منهج السلف ﷺ

في

تزكية النفوس

الطبعة الثالثة
مزيدة ومنقحة
١٤٤٢هـ - ٢٠٢٠م

شركة دار البشائر الإسلامية
للطباعة والنشر والتوزيع ش.م.م.
أسسها الشيخ رمزي دمشقية رحمه الله تعالى
سنة ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م
بيروت - لبنان - ص.ب: ١٤/٥٩٥٥
هاتف: ٠٠٩٦١١/٧٠٢٨٥٧ فاكس: ٠٠٩٦١١/٧٠٤٩٦٣
email: info@dar-albashaer.com
website: www. dar-albashaer.com

البشائر الإسلامية

ISBN 978-614-437-851-9

سِلْسِلَةُ مُؤَلَّفَاتٍ فِي المَنْهَجِ وَالتَّزْكِيَةِ وَالأَخْلَاقِ (٢)

منهج السلف ﷺ

في

تزكية النفوس

﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ۝١٠ ﴾ [الشمس: ٩، ١٠]

طبعة جديدة مصحّحة ومزيدة

تأليف

سعدي بن حمود الشمّري

دار البشائر الإسلامية

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقدّمَة

إن الحمد لله، نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مُضِلّ له، ومن يُضْلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إلٰه إلّا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، **أما بعد:**

فإن الله تعالى خلق الخلق ليعْبدُوه وحده لا شريك له، ويُفردُوه بأنواع العبودية قولًا وعملًا واعتقادًا، ويجتنبوا ما حرّم الله عليهم، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]. وهذه هي حقيقة تزكية النفس التي لأجلها خلق الله الخلق، وأرسل الرسل، وأنزل الكتب، وجعل الجنّة دار من حقّق هذه التزكية على وجهها الصحيح، والنار دار المعرضين عنها، قال الله تعالى مُبيِّنًا فضل تزكية النفس: ﴿وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾﴾ [طه: ٧٥، ٧٦]. وقال متوعدًا المعرضين عنها علمًا وعملًا: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٧﴾﴾ [فصلت: ٦، ٧].

إذا عُلِم هذا، فاعلم أن حاجة العِباد إلى تحقيق تزكية النفس علمًا وعملًا ماسّةً؛ لأنه لا فلاح ولا سعادة لهم في الدنيا والآخرة إلا بتحقيق هذه التزكية المحمودة علمًا وعملًا.

قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾﴾ [الشمس: ٩، ١٠].

أقسم الله تعالى في هذه السورة ـ سورة الشمس ـ: «سبع مرات

بسبع آيات كونية، هي: الشمس، والقمر، والليل، والنهار، والسماء، والأرض، والنفس البشرية، مع حالة لكل مُقْسَم به، وذلك على شيء واحد، وهو: فلاح مَنْ زَكَّى تلك النفس وَخَيْبَةِ مَنْ دَسَّاهَا، ومع كل آية جاء الْقَسَمُ بها توجيهًا إلى أَثَرِهَا العظيم الْمُشَاهَدِ الملموس، الدال على القدرة الباهرة»[(١)].

فالفلاح في الدارين مَضْمون لمن زكّى نفسه بالأعمال الصالحة، والأخلاق الفاضلة. والخيبة والخسران في الدارين يكون لمن دسّ نفسه، ودنّسها بمساوئ الأعمال والأخلاق وسائر الفواحش والمنكرات.

ولما كانت تزكية النفس بهذه المكانة العالية، وحاجة الناس إليها ماسَّة، خاصة طلاب العلم والدعاة الذين يَنْشدون الخير، ويحرصون عليه؛ جمعت هذا الكتاب المختصر، مساهمةً في نشر الخير والإصلاح، وبيانًا للحال التي يجب أن يكون عليها المسلمُ مع ربّه ونفسه ومعاملة الناس، وتحذيرًا من المخالفات الواقعة في تزكية النفس وإصلاحها.

وقد بينتُ فيه مفهوم تزكية النفس، وضوابطها العلمية والعملية، وخصائصها، والخصال التي تزكو بها النفس البشرية، وغير ذلك مما له تعلّق بالتزكية، كلّ ذلك في ضوء الكتاب والسُّنّة وفهم الصحابة الكرام ومن سار على نهجهم في العلم والعمل.

وسِرْتُ فيه على طريقة الإمام المصلح المجدد محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللَّهُ في كتاب «التوحيد»، بحيث يجعل بابًا، ثم يصدره بآيات وأحاديث وآثار عن الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ومن تبعهم بإحسان، ثم يُعقِّب الباب بفوائد تُبيِّن مقصوده منه، وتكشف عن مراده بتلك النصوص الشرعية.

---

(١) «أضواء البيان» (٨/ ٥٣٦).

وهذه الطريقة في التأليف حقيقتها إظهار فقه القرآن والسُّنَّة في بيان المسائل التي أُلِّف لأجلها، مع إلحاق نماذج من أقوال وأعمال الصحابة رضي الله عنهم ومن تبعهم بإحسان، تُبيّن فَهْمهَم وتطبيقهم للقرآن والسُّنَّة.

وهذه الطريقة ـ في العناية بالقرآن والسُّنَّة وفقه سلف الأمة ـ تعصم العبد من انحرافات كثيرة، في باب العقيدة أو الشريعة أو تزكية النفوس والأخلاق؛ لأنه من المعلوم أن باب العبودية وتزكية النفوس قد حصلت فيه مخالفات كثيرة وكبيرة، وقد عَظُمت هذه المخالفات بعد القرون المفضلة، وإن كانت ظهرت بوادرها في عهد الصحابة رضي الله عنهم، لكنها لم تتفشَّ وتَنتشر إلّا بعد القرون المفضلة، كما هو الحاصل في البدع الاعتقادية؛ لأن الصحابة رضي الله عنهم أماتوا هذه البدع في مهدها.

جاء عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه مَرَّ برجل ساقط من أهل العراق، فقال: ما شأنه؟ فقالوا: إذا قُرئ عليه القرآن يُصيبه هذا. فقال: «إِنَّا لَنَخْشَى الله عز وجل وَمَا نَسْقُطُ»[١].

وقيل لأسماء رضي الله عنها: كيف كان أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم عند قراءة القرآن؟ قالت: «كَانُوا كَمَا ذَكَرَهُمُ الله، أَوْ كَمَا وَصَفَهُمُ الله عز وجل تَدْمَعُ أَعْيُنُهُمْ وَتَقْشَعِرُّ جُلُودُهُمْ». فقيل لها: إن ههنا رجالًا إذا قُرئ على أحدهم القرآن غُشي عليه. فقالتَ: «أَعُوذُ بِالله مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ»[٢].

وهذا لكمال هدي الصحابة رضي الله عنهم، وضعف حال من خرج عن هديهم.

وذُكِر أن عائشة رضي الله عنها رأت أُناسًا يَمشون ويَتماوتون في مِشْيتهم، فسألت عن هؤلاء فقيل لها: «نُسَّاك»؛ أي: أن هؤلاء عُبَّاد. فقالت:

---

(١) رواه الإمام أحمد في «الزهد» (ص١٩٣).

(٢) رواه ابن المبارك في «الزهد» (ص٣٥٩).

«كَانَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إِذَا مَشَى أَسْرَعَ، وَإِذَا قَالَ أَسْمَعَ، وَإِذَا ضَرَبَ أَوْجَعَ، وَإِذَا أَطْعَمَ أَشْبَعَ، وَكَانَ هُوَ النَّاسِكَ حَقًّا»(١).

أي: ليست العبادة في المِشْية والهيئة الظاهرة، وإنما العبادة بتحقيق الإخلاص لله تعالى، والمتابعة لهدي الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قال ابن رجب رَحِمَهُ اللَّهُ مبينًا بعض أنواع الانحرافات الواقعة في باب تزكية النفوس، وأعمال القلوب، وموقف العلماء منها: «ومما أُحدِثَ من العلوم: الكلام في العلوم الباطنة من المعارف وأعمال القلوب وتوابع ذلك، بمجرد الرأي والذوق أو الكشف، وفيه خطر عظيم، وقد أنكره أعيان الأئمة كالإمام أحمد وغيره.

وقد اتَّسَع الخرق في هذا الباب، ودخل فيه قوم إلى أنواع الزندقة والنفاق، ودعوى أن أولياء الله أفضل من الأنبياء، أو أنهم مستغنون عنهم.

وأدخلوا في هذا الطريق أشياء كثيرة ليست من الدين في شيء، فبعضها: زعموا أنه يحصل به ترقيق القلوب كالغناء والرقص، وبعضها: زعموا أنه يراد لرياضة النفوس كعشق الصور المحرمة ونظرها، وبعضها: زعموا أنه لكسر النفوس والتواضع كشهرة اللباس وغير ذلك مما لم تأت به الشريعة، وبعضه يصدّ عن ذكر الله وعن الصلاة؛ كالغناء والنظر المحرم، وشابهوا بذلك الذين اتخذو دينهم لهوًا ولعبًا»(٢).

(١) «مدارج السالكين» (١/ ٥٢١).
(٢) «فضل علم السلف» (ص٦).

من المسائل التي تستحق التنبيه: مسألة التعبير بالألفاظ الشرعية في باب تزكية النفوس وأعمال القلوب، والتقيّد بها في جميع أبواب الدين؛ فالباب واحد عند أهل السُّنَّة والجماعة، لا فرق بين التعبير في الألفاظ الشرعية بين العقيدة وتزكية النفوس وأعمال القلوب والفقه والأخلاق.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «ينبغي للمفتي أن يفتي بلفظ النص مهما أمكنه، فإنه يتضمن الحكم والدليل مع البيان التام، فهو حكم مضمون له الصواب، متضمن =

فالواجب على كل مسلم يريد النجاة لنفسه، والوصول إلى رضا الله: أن يتفقه في القرآن والسُّنَّة ويعمل بهما، وأن يتّبعهما في جميع شؤونه، وأن يَقتدي بمن أمره الله بالاقتداء بهم، وأثنى على طريقتهم، ورضي عنهم وهم الصحابة والتابعون لهم بإحسان.

قال تعالى: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ٣﴾ [الأعراف: ٣].

وقال تعالى آمرًا بمتابعة رسوله ﷺ: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ﴾ [الحشر: ٧]، وقال تعالى: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهۡتَدُواْۚ﴾ [النور: ٥٤].

وقال تعالى آمرًا باتباع سبيل المؤمنين: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ

= للدليل عليه في أحسن بيان. وقول الفقيه المعين ليس كذلك. وقد كان الصحابة والتابعون والأئمة الذين سلكوا على منهاجهم يتحرون ذلك غاية التحري؛ حتى خلفت من بعدهم خلوف رغبوا عن النصوص واشتقوا لهم ألفاظًا غير ألفاظ النصوص؛ فأوجب ذلك هجر النصوص. ومعلوم أن تلك الألفاظ لا تفي بما تفي به النصوص من الحكم والدليل وحسن البيان؛ فتولّد من هجران ألفاظ النصوص، والإقبال على الألفاظ الحادثة، وتعليق الأحكام بها على الأمة من الفساد ما لا يعلمه إلا الله. فألفاظ النصوص عصمة وحجة بريئة من الخطأ والتناقض والتعقيد والاضطراب، ولما كانت هي عصمة عهدة الصحابة وأصولهم التي إليها يرجعون كانت علومهم أصح من علوم من بعدهم، وخطؤهم فيما اختلفوا فيه أقل من خطأ من بعدهم، ثم التابعون بالنسبة إلى من بعدهم كذلك وهلم جرًّا. ولما استحكم هجران النصوص عند أكثر أهل الأهواء والبدع كانت علومهم في مسائلهم وأدلتهم في غاية الفساد والاضطراب والتناقض، وقد كان أصحاب رسول الله ﷺ إذا سئلوا عن مسألة يقولون: (قال الله كذا)، (قال رسول الله ﷺ كذا)، أو (فعل رسول الله كذا)، ولا يعدلون عن ذلك ما وجدوا إليه سبيلًا قط، فمن تأمل أجوبتهم وجدها شفاء لما في الصدور». «أعلام الموقعين» (٤/١٤٨).

ﭐلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾ [التوبة: ١٠٠].

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ: «فرضي عن السابقين من غير اشتراط إحسان، ولم يرض عن التابعين إلّا أن يتبعوهم بإحسان»(١).

ولما أمر الله ـ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ـ باتباع سبيل المؤمنين، حذر من مخالفتهم، قال تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾﴾ [النساء: ١١٥].

فهذه الأصول الثلاثة هي التي تُوصل إلى رضا الله جَلَّ وَعَلَا، وهي التي تُوضّح الطريق إلى الله، وتُبيِّن الأقوال والأعمال التي يحبها سبحانه تعالى، والأقوال والأعمال التي يبغضها، فليس ثَمَّ طريق إلى الله تعالى سُواها.

وهذا الكتاب كلّه مبنيّ على هذه الأصول الثلاثة، وأرجو أن أكون جَلّيتُ فيه معالم تزكية النفوس عند أهل السُّنَّة والجماعة.

وقد جعلته في مقدمة، وأربعة فصول، وخاتمة.

أما المقدمة: فقد بيّنتُ فيها أهمية تزكية النفس، وطريقة تأليفي لهذا الكتاب.

وأما الفصول، فهي كالتالي:

الفصل الأول: مقدمة في ضوابط تزكية النفس العلمية والعملية.

الفصل الثاني: مكانة تزكية النفس في الإسلام، وبيان مفهومها، وأحكامها، وخصائصها.

---

(١) «الصارم المسلول» (ص٦٣).

الفصل الثالث: أهمية إصلاح القلب وبيان بعض أعمال القلوب المهمة.

الفصل الرابع: أهمية العبودية، وبيان مفهومها، وأركانها، وأنوعها، وما يتعلّق بها.

وأما الخاتمة: فقد بينتُ فيها مكانة الزهد وأحكامه، وما يُعين عليه؛ وفيها كذلك التحذير من الأمور التي تُعدّ معوقات وعَثَرات في طريق التزكية المحمودة، كما سيأتي بيانه.

وقد بلغ مجموع الأبواب في هذه الرسالة «٦٩» بابًا.

وأما الفوائد المستفادة من النصوص الشرعية والآثار السَّلَفية، فقد بلغت «٦٠٠» فائدة مع فوائد الخاتمة.

ومن خلال التأمُّل في عناوين الأبواب والفوائد المذكورة في الكتاب يَتبيَّن للقارئ منهج القرآن والسُّنَّة في باب تزكية النفوس وأعمال القلوب، والعبودية، والزهد، ويتبيَّن له أيضًا منهج السَّلَف في هذه الأبواب.

وليعلم القارئ أن الشواهد من القرآن والسُّنَّة، وأقوال السَّلَف على عناوين الأبواب كثيرة جدًّا، وإنما اقتصرت منها على ما يُبيِّن المراد، ويدل على المقصود، لأجل الاختصار والتذكير، وعدم التطويل والتكرار.

أسأل الله ﷻ أن يجعل عملي خالصًا لوجهه الكريم، وأن يبارك بهذا الكتاب، وينفع به المؤلف والقارئ في الدنيا والآخرة إنه سميع قريب جواد كريم.

المؤلف
سعدي بن حمود الشمّري
إيميل: [s3dy77@hotmail.com]

الفصل الأول

مقدمة في ضوابط تزكية النفس العلمية والعملية

١

باب وجوب بناء تزكية النفس على الكتاب والسُّنّة

قال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

وقال تعالى: ﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾ [الأعراف: ٣].

وقال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿١﴾﴾ [ابراهيم: ١].

وقال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾ [الأحزاب: ٢١].

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ كان يقول في خطبته: «**أَمَّا بَعْدُ.. فَإِنَّ خَيْرَ الْحَدِيثِ كِتَابُ الله، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ، وَشَرَّ الأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ**»[1].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ**»[2].

وقال سفيان بن عيينة رحمه الله: «إنَّ رسول الله ﷺ هو الميزان الأكبر؛ فعليه تُعرض الأشياء، على خُلُقه وسيرته وهَدْيه، فما وافقها فهو الحق، وما خالفها فهو الباطل»[3].

وقال شيخ الإسلام رحمه الله: «فإن السلوك هو بالطريق التي أمر الله

---

(١) رواه مسلم (٢/ ٨٦٧).

(٢) رواه البخاري (٢/ ٢٥٥٠).

(٣) «الجامع»، لأخلاق الراوي (ص٧٩).

بها ورسولُه ـ من الاعتقادات والعبادات والأخلاق ـ، وهذا كله مُبيَّن في الكتاب والسُّنّة؛ فمسائل السلوك من جنس مسائل العقائد كلها منصوصة في الكتاب والسُّنّة، وإنما اختلف أهل الكلام لمّا أعرضوا عن الكتاب والسُّنّة؛ فلما دخلوا في البدع وقع الاختلاف، وهكذا طريق العبادة عامة ما يقع فيه من الاختلاف إنما هو بسبب الإعراض عن الطريق المشروع؛ فيقعون في البدع، فيقع فيهم الخلاف»[١].

وقال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «من أحالك على غير «أخبرنا» و«حدثنا»، فقد أحالك إما على خيالٍ صوفي، أو قياس فلسفي، أو رأي نفسي؛ فليس بعد القرآن و«أخبرنا» و«حدثنا» إلا شبهات المتكلمين، وآراء المنحرفين، وخيالات المتصوفين، وقياس المتفلسفين؛ ومن فارق الدليل ضلَّ عن سواء السبيل، ولا دليل إلى الله والجنة سوى الكتاب والسُّنّة؛ وكل طريق لم يصحبها دليل القرآن والسُّنَّة، فهي طريق الجحيم والشيطان الرجيم»[٢].

وقال ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ومما أُحدث من العلوم: الكلام في العلوم الباطنة من المعارف وأعمال القلوب وتوابع ذلك، بمجرد الرأي والذوق أو الكشف؛ وفيه خطر عظيم. وقد أنكره أعيان الأئمة ـ كالإمام أحمد وغيره ـ، وقد اتَّسعَ الخرق في هذا الباب، ودخل فيه قوم إلى أنواع الزندقة والنفاق، ودعوى أن أولياء الله أفضل من الأنبياء، أو أنهم مستغنون عنهم، وأدخلوا في هذا الطريق أشياء كثيرة ليست من الدين في شيء؛ فبعضها زعموا: أنه يحصل به ترقيق القلوب كالغناء والرقص، وبعضها زعموا: أنه يراد لرياضة النفوس كعشق الصور المحرمة ونظرها، وبعضها زعموا: أنه لكسر النفوس والتواضع كشهرة اللباس وغير ذلك مما لم تأت به الشريعة، وبعضه: يصدُّ عن ذكر الله وعن الصلاة كالغناء

---

(١) «الفَتاوَى» (١٩/ ٢٧٤).

(٢) «مدارج السالكين» (٢/ ٤٦٨).

والنظر المحرم، وشابهوا بذلك الذين اتخذوا دينهم لهوًا ولعبًا»[(١)].

فيه فوائد

الأولى: كمال الدين عقيدة وعبادة وأخلاقًا، وعدم حاجته إلى الزيادة أو النقصان.

الثانية: القرآن والسُّنَّة فيهما الكفاية والغُنية لكل ما يحتاجه العِباد في تزكية النفوس وغيره.

الثالثة: منهج التزكية والإصلاح، والتربية والأخلاق لا يؤخذ إلا من الكتاب والسُّنّة.

الرابعة: كلّ من ادّعى عملًا في باب تزكية النفوس، ولم يكن عليه دليل فهو مردود وغير مقبول.

الخامسة: معرفة المنهج العلمي لأهل السُّنَّة والجماعة في باب تزكية النفوس وغيره.

السادسة: تحذير العلماء من البدع التي أُحدثت في باب تزكية النفوس.

السابعة: معرفة سبب البدع في الدين عمومًا، وفي تزكية النفوس على الخصوص.

الثامنة: معرفة الفُرقان العظيم بين منهج أهل السُّنَّة والجماعة في تزكية النفوس، وبين مخالفيهم.

۞ ۞ ۞

(١) «فضل علم السلف» (ص٦).

٢

باب كمال هدي الصحابة رضي الله عنهم والاقتداء بهم

قال تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ [التوبة: ١٠٠].

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «**خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ يَجِيءُ أَقْوَامٌ تَسْبِقُ شَهَادَةُ أَحَدِهِمْ يَمِينَهُ، وَيَمِينُهُ شَهَادَتَهُ**»(١).

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: «مَنْ كَانَ مِنْكُمْ مُتَأَسِّيًا، فَلْيَتَأَسَّ بِأَصْحَابِ مُحَمَّدٍ ﷺ؛ فَإِنَّهُمْ كَانُوا أَبَرَّ هَذِهِ الْأُمَّةِ قُلُوبًا، وَأَعْمَقَهَا عِلْمًا، وَأَقَلَّهَا تَكَلُّفًا، وَأَقْوَمَهَا هَدْيًا، وَأَحْسَنَهَا حَالًا، قَوْمًا اخْتَارَهُمُ اللهُ تعالى لِصُحْبَةِ نَبِيِّهِ وَلِإِقَامَةِ دِينِهِ، فَاعْرِفُوا لَهُمُ الْفَضْلَ، وَاتَّبِعُوهُمْ فِي آثَارِهِمْ؛ فَإِنَّهُمْ كَانُوا عَلَى الْهَدْيِ الْمُسْتَقِيمِ»(٢).

وقال أبو العالية رحمه الله: «كنا عبيدًا مملوكين، مِنَّا من يؤدي الضرائب، ومِنَّا من يخدم أهله، فكنا نختم كل ليلة، فَشَقّ ذلك علينا، حتى شكا بعضنا إلى بعض، فلقينا أصحاب رسول الله ﷺ فعلّمونا أن نختم كل جمعة، فصلينا، ونِمْنا، ولم يَشُقَّ علينا»(٣).

وقال شيخ الإسلام رحمه الله: «فمن بنى الكلام في العلم ـ الأصول والفروع ـ على الكتاب والسُّنَّة والآثار المأثورة عن السابقين، فقد أصاب طريق النبوة، وهذه طريق أئمة الهُدى»(٤).

---

(١) رواه البخاري (٣/ ٣٤٥١).

(٢) رواه ابن عبد البر في «الجامع» (ص٣٧٠).

(٣) «سير أعلام النبلاء» (٤/ ٢٠٩).

(٤) «الفَتاوَى» (١٠/ ٣٦٢).

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: «معرفة أقوالهم في العلم والدين وأعمالهم خير وأنفع من معرفة أقوال المتأخرين وأعمالهم في جميع علوم الدين ـ كالتفسير وأصول الدين وفروعه والزهد والعبادة والأخلاق والجهاد وغير ذلك ـ؛ فإنهم أفضل ممن بعدهم، كما دل عليه الكتاب والسُّنَّة؛ فالاقتداء بهم خير من الاقتداء بمن بعدهم»(١).

فيه فوائد

الأولى: وجوب اتباع الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ بإحسان ولزوم فهمهم في العقيدة والعمل.

الثانية: الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ خير الناس في جميع أبواب الدين.

الثالثة: رضا الله تعالى عمّن جاء بعد الصحابة مشروط باتباعه لهم بإحسان بلا زيادة أو نقصان.

الرابعة: حثُّ الأئمة على اتباع آثار الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ في جميع أمور الدين.

الخامسة: مَن اتبع هدي الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ بإحسان فقد امتثل أمر القرآن، وأصاب طريق النبوة، وسار على نهج أئمة الإسلام.

السادسة: الاقتداء بالصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ في جميع أبواب الدين أولى من الاقتداء بمن بعدهم.

السابعة: تقويم الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ للمخالفات التي وقعت في أبواب تزكية النفوس.

الثامنة: تصحيح منهج التأسِّي والاقتداء.

التاسعة: معرفة خطأ المناهج التي لم تتبع منهج الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ في العقيدة والعمل.

العاشرة: معرفة منهج أهل السُّنَّة والجماعة في فهم الإسلام، والعمل به، والدعوة إليه.

---

(١) «الفَتاوَى» (٣/ ٢٤).

٣

باب الميزان بحسن العمل لا بكثرته

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾﴾ [الملك: ٢].

وقال النبي ﷺ: «**مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ**»(١).

وعن أُبي بن كعب رضي الله عنه قال: «عَلَيْكُمْ بِالسَّبِيلِ وَالسُّنَّةِ؛ فَإِنَّهُ لَيْسَ مِنْ عَبْدٍ عَلَى سَبِيلٍ وَسُنَّةٍ ذَكَرَ الرَّحْمٰنَ، فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ مِنْ خَشْيَةِ الله فَتَمَسُّهُ النَّارُ، وَلَيْسَ مِنْ عَبْدٍ عَلَى سَبِيلٍ وَسُنَّةٍ ذَكَرَ الرَّحْمٰنَ، فَاقْشَعَرَّ جِلْدُهُ مِنْ خَشْيَةِ الله، إِلَّا كَانَ مَثَلُهُ كَمَثَلِ شَجَرَةٍ يَبِسَ وَرَقُهَا فَبَيْنَمَا هِيَ كَذَلِكَ، إِذْ أَصَابَتْهَا الرِّيحُ فَتَحَاتَّ عَنْهَا وَرَقُهَا، إِلَّا تَحَاتَّتْ عَنْهُ ذُنُوبُهُ كَمَا تَحَاتَّ عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ وَرَقُهَا، وَإِنَّ اقْتِصَادًا فِي سَبِيلٍ وَسُنَّةٍ خَيْرٌ مِنَ اجْتِهَادٍ فِي خِلَافِ سَبِيلٍ وَسُنَّةٍ؛ فَانْظُرُوا أَنْ يَكُونَ عَمَلُكُمْ إِـ نْ كَانَ اجْتِهَادًا أَوِ اقْتِصَادًا أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ ـ عَلَى مِنْهَاجِ الْأَنْبِيَاءِ وَسُنَّتِهِمْ»(٢).

وقال الفضيل بن عياض رحمه الله في قول الله تعالى: ﴿أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ﴾: «أخلصه وأصوبه؛ والعمل لا يُقبل حتى يكون خالصًا صوابًا. الخالص: إذا كان لله، والصواب: إذا كان على السُّنَّة»(٣).

وقال ابن القيِّم رحمه الله: «لا بد أن يُنشر لكل حَرَكة وكلمة منه ـ أي: العبد ـ ديوانان: ديوان: لِمن فَعلْتَه؟ وكيف فعلْتَه؟ فالأول: سؤال عن الإخلاص، والثاني: سؤال عن المتابعة. قال تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ

(١) رواه البخاري (٢٦٩٧).
(٢) أخرجه اللالكائي (١/ ٥٤).
(٣) «حلية الأولياء» (٨/ ٩٥).

لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾ [الحجر: ٩٢، ٩٣]»[١].

وقال ابن سعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فإن أهل السُّنَّة والجماعة المحضة، وأهلَ العلم الكامل المفصَّل بأسماء الله وصفاته، وقوة لقاء الله تُضاعَفُ أعمالُهم مضاعفةً كبيرةً لا يحصل مثلُها، ولا قريبٌ منها لمن لم يشاركوهم في هذا الإيمان والعقيدة؛ ولهذا كان السَّلَف يقولون: أهل السُّنَّة: إن قَعَدتْ بهم أعمالُهم قامت بهم عقائدُهم، وأهلُ البدع: إن كثرت أعمالُهم قَعَدتْ بهم عقائدهم»[٢].

فيه فوائد

الأولى: الابتلاء والاختبار وقع في هذه الأمة على حُسْن العمل لا كثرته.

الثانية: العمل لا يقبل ـ ولو كان عظيمًا ـ إلَّا بشرطين: الإخلاص (لله تعالى)، والمتابعة (للرسول ﷺ).

الثالثة: أهل السُّنَّة تُضَاعف أعمالهم مضاعفة عظيمة؛ وذلك لتحقيقهم الإخلاص والمتابعة[٣].

الرابعة: فضل التعبّد على التوحيد والسُّنَّة.

الخامسة: معرفة المنهج العملي لأهل السُّنَّة والجماعة في تزكية النفوس وغيرها.

السادسة: حسن النية لا يكفي لتصحيح العمل حتى يَنضم إليه الاتباع.

السابعة: معرفة أصل الانحراف الموجود عند المخالفين لمنهج أهل السُّنَّة والجماعة في العقيدة والعمل.

---

(١) «إغاثة اللهفان» (١/ ٨٣).

(٢) رسالة «تفاضل الأعمال» مع الشرح للشيخ محمد الحمد (ص٢١).

(٣) هذه المسألة يدل عليها من كتاب الله عدة آيات، منها قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَأُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَـٰتِ ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [سبأ: ٣٧].

٤

باب أهمية بناء تزكية النفس على العلم الشرعي

قال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾﴾ [آل عمران: ١٦٤].

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨].

وقال الأوزاعي رَحِمَهُ اللَّهُ: «سأل رجل ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أيُّ الأعمال أفضل؟ فقال: «الْعِلْمُ». فكرَّر عليه ثلاثًا، كل ذلك يقول: «الْعِلْمُ». ثم قال: «وَيْحَكَ إِنَّ مَعَ الْعِلْمِ بِاللهِ تَعَالَى يَنْفَعُكَ قَلِيلُ الْعَمَلِ وَكَثِيرُهُ، وَمَعَ الْجَهْلِ بِاللهِ لَا يَنْفَعُكَ قَلِيلُ الْعَمَلِ وَلَا كَثِيرُهُ»[(١)].

وقال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: «وطريق الله لا تتم إلَّا بعلم وعمل يكون كلاهما موافقًا الشريعة؛ فالسالك طريق الفقر والتصوف والزهد والعبادة، إن لم يسلك بعلم يوافق الشريعة، وإلا كان ضالًّا عن الطريق، وكان ما يفسده أكثر مما يصلحه؛ والسالك من الفقه والعلم والنظر والكلام، إن لم يتابع الشريعة ويعمل بعلمه، وإلا كان فاجرًا ضالًّا عن الطريق»[(٢)].

وقال ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ: «العلم إن لم يصحب السالك من أول قدم يضعه في الطريق إلى آخر قدم ينتهي إليه؛ فسلوكه على غير طريق، وهو مقطوع عليه طريق الوصول، مسدود عليه سُبُل الهدى والفلاح، مُغْلَقةٌ عنه أبوابها؛ وهذا إجماع من الشيوخ العارفين، ولم يَنْه عنه إلّا قُطّاع الطريق منهم ونوّاب إبليس وشُرَطه»[(٣)].

---

(١) «من الآداب الشرعية» (٢/ ٤٤). (٢) «الفَتاوَى» (١١/ ٢٧).
(٣) «مدارج السالكين» (٢/ ٤٦٤).

وقال أيضًا رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ولما كان طلب العلم ـ والبحث عنه وكتابته والتفتيش عليه ـ من عمل القلب والجوارح؛ كان من أفضل الأعمال. ومنزلته من عمل الجوارح كمنزلة أعمال القلب من الإخلاص والتوكل والمحبة والإنابة والخشية والرضا، ونحوها من الأعمال الظاهرة»(١).

وقال أيضًا رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «نُوّاب إبليس في الأرض هم الذين يُثبطون الناس عن طلب العلم والتفقّه في الدين؛ فهؤلاء أضرُّ عليهم من شياطين الجن؛ فإنهم يَحولون بين القلوب وبين هُدَى الله»(٢).

فيه فوائد

الأولى: تزكية النفس لا تكون إلّا بعلم؛ لقوله تعالى: ﴿يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

الثانية: أهل العلم هم أهل الخشية حقيقة.

الثالثة: فضل العلم وحثُّ السَّلَف عليه.

الرابعة: العبادة القليلة مع العلم تنفع صاحبها، بخلاف العبادة الكثيرة بدون علم فإنها تضرّ ولا تنفع.

الخامسة: طلب العلم من أعمال القلوب والجوارح.

السادسة: معرفة خطأ من قلّل من شأن طلب العلم أو زهّد فيه.

السابعة: طريق أهل السُّنَّة والجماعة وسط بين أهل الفجور وأهل الضلال.

الثامنة: مكانة العلم عند أهل السُّنَّة والجماعة، ومعرفة ثمراته.

التاسعة: الجهل هو السبب الأكبر في منشأ البدع والوقوع بها.

العاشرة: معرفة خطأ المناهج التي لم تهتم بالعلم الشرعي على جادّة السَّلَف الصالح.

---

(١) «مفتاح دار السعادة» (١/ ١٧٨).

(٢) «مفتاح دار السعادة» (١/ ١٦٠).

٥

باب ما جاء في ذمِّ التعبد على جهل

قال تعالى: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ۖ فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الحديد: ٢٧].

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن نبيّ الله ﷺ قال: «**كَانَ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ رَجُلٌ قَتَلَ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ نَفْسًا؛ فَسَأَلَ عَنْ أَعْلَم أَهْلِ الْأَرْضِ، فَدُلَّ عَلَى رَاهِبٍ، فَأَتَاهُ فَقَالَ: إِنَّهُ قَتَلَ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ نَفْسًا فَهَلْ لَهُ مِنْ تَوْبَةٍ؟ فَقَالَ: لَا؛ فَقَتَلَهُ فَكَمَّلَ بِهِ مِائَةً. ثُمَّ سَأَلَ عَنْ أَعْلَم أَهْلِ الْأَرْضِ، فَدُلَّ عَلَى رَجُلٍ عَالِمٍ، فَقَالَ: إِنَّهُ قَتَلَ مِائَةَ نَفْسٍ، فَهَلْ لَهُ مِنْ تَوْبَةٍ؟ فَقَالَ: نَعَمْ، وَمَنْ يَحُولُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ التَّوْبَةِ؟ انْطَلِقْ إِلَى أَرْضِ كَذَا وَكَذَا، فَإِنَّ بِهَا أُنَاسًا يَعْبُدُونَ الله فَاعْبُدِ اللهَ مَعَهُمْ، وَلَا تَرْجِعْ إِلَى أَرْضِكَ، فَإِنَّهَا أَرْضُ سَوْءٍ. فَانْطَلَقَ، حَتَّى إِذَا نَصَفَ الطَّرِيقَ أَتَاهُ الْمَوْتُ؛ فَاخْتَصَمَتْ فِيهِ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ وَمَلَائِكَةُ الْعَذَابِ، فَقَالَتْ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ: جَاءَ تَائِبًا مُقْبِلًا بِقَلْبِهِ إِلَى الله، وَقَالَتْ مَلَائِكَةُ الْعَذَابِ: إِنَّهُ لَمْ يَعْمَلْ خيرًا قَطُّ. فَأَتَاهُمْ مَلَكٌ فِي صُورَةِ آدَمِيٍّ، فَجَعَلُوهُ بَيْنَهُمْ، فَقَالَ: قِيسُوا مَا بَيْنَ الْأَرْضَيْنِ، فَإِلَى أَيَّتِهِمَا كَانَ أَدْنَى فَهُوَ لَهُ. فَقَاسُوهُ، فَوَجَدُوهُ أَدْنَى إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي أَرَادَ؛ فَقَبَضَتْهُ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ**»(١).

وقال ابن سيرين رحمه الله: «إن قومًا تركوا العلم، فاتخذوا محاريب وصلُّوا فيها وصاموا، حتى يَبِسَ جِلْد أحدهم على عظْمه، ثم خالفوا

(١) رواه مسلم (٤/ ٢٧٦٦).

السُّنَّة فهلَكوا!؛ فلا والله الذي لا إلٰه غيره، ما عمل عامل قط على جهل، إلّا كان ما يُفسد منه أكثر مما يصلح»[١].

وقال الإمام مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إن قومًا ابتغوا العبادة وأضاعوا العلم، فخرجوا على أُمّة محمد بأسيافهم، ولو ابتغوا العلم لحجزهم عن ذلك»[٢].

وقال ابن سعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والجهل بالعلوم النافعة أكبر عائق، وأعظم مانع من الوصول إلى الحقائق الصحيحة، والأخلاق الجميلة»[٣].

فيه فوائد

الأولى: الفرق بين فِقْه العلماء، وفقه العُبّاد بلا علم.

الثانية: بيان ما يثمره فقه العلماء، وما يثمره فقه العُبّاد بلا علم.

الثالثة: العلماء هم المرجع؛ دون العُبَّاد أو مَن يتشبّه بهم وليس منهم.

الرابعة: العلم هو الطريق الوحيد الموصِّل إلى العبودية الصحيحة، والتزكية النافعة.

الخامسة: أثر العلم في حجز صاحبه عن مواطن الهلكة.

السادسة: عواقب التَّعبُّد على جهل.

السابعة: أن الشرع لما رغَّب في العلم، بَيَّن أمثلة لخطورة الجهل على العِبَاد.

الثامنة: كلّ تزكية لم تؤسس على العلم فلا خير فيها.

التاسعة: الحذر من المناهج التي لا تهتمّ بالعلم الشرعي ولا بالصلة بالعلماء الربانيين.

---

(١) «الباعث على إنكار البدع والحوادث» (ص٦٨).

(٢) «مفتاح دار السعادة» (١/ ١١٩).

(٣) «تعليم أصول الإيمان» (ص٣٤).

٦

باب الدعوة إلى تزكية النفوس من مقاصد بِعْثَة الرُّسُل

قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ۝٢﴾ [الجمعة: ٢].

وقال تعالى حكاية عن نبيّه إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝١٢٩﴾ [البقرة: ١٢٩].

وقال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ**»(١).

وقال ابن القيّم رَحِمَهُ اللهُ: «وتزكية النفوس مسلّم إلى الرّسل، وإنما بعثهم الله لهذه التزكية وولّاهم إياها، وجعلها على أيديهم دعوة، وتعليمًا، وبيانًا... فهم المبعوثون لعلاج نفوس الأمم، قال الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ۝٢﴾ [الجمعة: ٢]؛ فالرسل أطبّاء القلوب؛ فلا سبيل إلى تزكيتها وصلاحها إلا من طريقهم، وعلى أيديهم، وبمحض الانقياد والتسليم لهم، والله المستعان»(٢).

فيه فوائد

الأولى: الدعوة إلى تزكية النفوس من مقاصد بِعْثة الرسل.

---

(١) أخرجه البيهقي في «السنن الكبرى» (٢٠٧٨٢)، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» برقم (٤٥)، وأخرجه أحمد (٢/ ٣٨١) بلفظ: «إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق»، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» برقم (٢٣٤٩).

(٢) «مدارج السالكي» (٢/ ٣١٥).

الثانية: تزكية النفوس مُسَلَّم إلى الرسل لا إلى غيرهم؛ فهم أطباء القلوب.

الثالثة: الهدي النبوي في الإصلاح والتغيير المحمود، مبنيٌّ على العلم النافع والعمل الصالح.

الرابعة: سبيل أهل السُّنَّة والجماعة التسليم لِما جاء به الرسول ﷺ والانقياد له دون زيادة أو نقصان.

الخامسة: الحذر من المناهج التي لم تُسلِّم وتَنْقَدْ لهدي الرسول ﷺ في التزكية والتربية والأخلاق.

٧

باب ما جاء في أن التوحيد أساس تزكية النفوس

قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ [الذاريات: ٥٦].

وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ۝٢﴾ [الجمعة: ٢].

وقال تعالى: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ۝٦ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ كَـٰفِرُونَ ۝٧﴾ [فصلت: ٦، ٧].

وقال تعالى: ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ۝١٧ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ۝١٨ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ۝١٩﴾ [النازعات: ١٧ ـ ١٩].

وقال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۝١٤﴾ [الأعلى: ١٤].

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ۝٢٤ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ۝٢٥﴾ [إبراهيم: ٢٤، ٢٥].

وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّـٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ ۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ ۝١٧﴾ [الزمر: ١٧].

وسئل النبي ﷺ: ما تزكية النفس؟ فقال: «**أَنْ يَعْلَمَ أَنَّ الله** ﷻ **مَعَهُ حَيْثُ كَانَ**»(١).

وقال ابن عباس رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۝١٤﴾: «مَنْ تَزَكَّى مِنَ الشِّرْكِ»(٢).

---

(١) صححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٠٤٦)، وقال: رواه الطبراني في «المعجم الصغير» (ص١١٥)، والبيهقي في «السنن» (٤/ ٩٥).

(٢) أخرجه الطبري (٢٤/ ٣٧٣).

وقال عكرمة مولى ابن عباس رَحِمَهُ اللَّهُ: «من قال: لا إله إلا الله»(١).

وقال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: «ولهذا كان التوحيد والإيمان أعظم ما تَتَزكى به النفس، وكان الشرك أعظم ما يدسيها. وتتزكى بالأعمال الصالحة»(٢).

وقال ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ: «بل نقول قولًا كليًّا: إن كل آية في القرآن فهي متضمنة للتوحيد، شاهدة به، داعية إليه؛ فإن القرآن: إما خبر عن الله وأسمائه وصفاته وأفعاله، فهو التوحيد العلمي الخبري. وإما دعوة إلى عبادته وحده لا شريك له، وخلع كل ما يعبد من دونه، فهو التوحيد الإرادي الطلبي. وإما أمر ونهي وإلزام بطاعته في نهيه وأمره، فهي حقوق التوحيد ومكملاته. وإما خبر عن كرامة الله لأهل توحيده وطاعته، وما فعل بهم في الدنيا وما يكرمهم به في الآخرة، فهو جزاء توحيده. وإما خبر عن أهل الشرك، وما فعل بهم في الدنيا من النكال، وما يحلّ بهم في العقبى من العذاب، فهو خبر عمن خرج عن حكم التوحيد. فالقرآن كلّه في التوحيد وحقوقه وجزائه، وفي شأن الشرك وأهله وجزائهم»(٣).

وقال أيضًا رَحِمَهُ اللَّهُ: «والتوكل نصف الدين، والنصف الثاني الإنابة؛ فإن الدين استعانة وعبادة؛ فالتوكل هو الاستعانة، والإنابة هي العبادة»(٤).

وقال أيضًا رَحِمَهُ اللَّهُ: «وليس التوحيد مجرد إقرار العبد بأنه لا خالق إلّا الله، وأن الله ربُّ كلّ شيء ومليكه، كما كان عُبَّاد الأصنام مقرِّين بذلك، وهم مشركون؛ بل التوحيد يتضمن من محبة الله، والخضوع له والذل، وكمال الانقياد لطاعته، وإخلاص العبادة له، وإرادة وجهه

(١) أخرجه الطبري (٢٤/ ٣٧٣).
(٢) «تزكية النفوس» (ص٤٨).
(٣) «مدارج السالكين» (٣/ ٤٥٠).
(٤) «مدارج السالكين» (٢/ ١٣٢).

الأعلى بجميع الأقوال والأعمال، والمنع والعطاء، والحبّ والبُغضّ، ما يحول بين صاحبه وبين الأسباب الداعية إلى المعاصي والإصرار عليها»(١).

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: «إن العبد لو عرف كل شيء، ولم يعرف ربه، فكأنه لم يعرف شيئًا»(٢).

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: «من أراد عُلُوَّ بنيانه، فعليه بتوثيق أساسه وإحكامه وشِدَّة الاعتناء به، فإن عُلُوَّ البنيان على قَدْر توثيق الأساس وإحكامه؛ فالأعمال والدرجات بنيان، وأساسها الإيمان؛ ومتى كان الأساس وثيقًا حَمَل البنيان واعتلى عليه؛ وإذا تَهَدَّم شيءٌ من البنيان سَهُل تداركه، وإذا كان الأساس غير وثيقٍ لم يرتفع البنيان ولم يثبت، وإذا تَهَدَّم شيءٌ من الأساس سَقَط البنيان أو كاد؛ فالعارف همته تصحيح الأساس وإحكامه، والجاهل يرفع في البناء عن غير أساسٍ فلا يلبث بنيانه أن يسقط»(٣).

وقال ابن سعدي رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسير آية سورة إبراهيم: «شجرة الإيمان أصلها ثابت في قلب المؤمن، علمًا واعتقادًا، وفرعها من الكلم الطيب والعمل الصالح والأخلاق المرضية، والآداب الحسنة في السماء دائمًا يصعد إلى الله منه من الأعمال والأقوال التي تخرجها شجرة الإيمان ما ينتفع به المؤمن وينفع غيره... فهذه صفة كلمة التوحيد وثباتها في قلب المؤمن»(٤).

فيه فوائد

الأولى: بيان المقصود من خلق الثّقلين، وهو عبادته وحده لا شريك له.

---

(١) «مدارج السالكين» (١/ ٣٣٠).

(٢) «إغاثة اللهفان» (ص٦٨).

(٣) «الفوائد» (ص١٥٥).

(٤) «تفسير السعدي» (ص٤٢٥).

الثانية: التوحيد ليس علميًّا خبريًّا فقط، بل هو توحيد علمي عملي.

الثالثة: التوحيد أساس تزكية النفوس، وصلاح القلوب، والأخلاق الفاضلة.

الرابعة: القرآن كلّه في التوحيد، ومعنى ذلك.

الخامسة: حقيقة التوحيد بتحقيق التألُّه إلى الله تعالى، وعدم تعلّق القلب بشيء سِواه.

السادسة: الدين كلّه قائم على أمرين، وهما: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾.

السابعة: أن الله تعالى بعث الرسل من أجل الدعوة إلى تزكية النفوس.

الثامنة: تفسير آية سورة إبراهيم.

التاسعة: معرفة أوثق أساس أَسَّسَ العبد عليه أعماله وأخلاقه.

❁ ❁ ❁

٨

باب آثار التوحيد الحميدة على أهله في الدنيا والآخرة

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الأنعام: ٨٢].

وقال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [النحل: ٩٧].

وعن أنس رضي الله عنه قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: «**مَا مِنْ عَبْدٍ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلٰهَ إِلَّا الله، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ صِدْقًا مِنْ قَلْبِهِ، إِلَّا حَرَّمَهُ اللهُ عَلَى النَّارِ**»(١).

وعن أبي ذر رضي الله عنه قال: قلتُ: يا رسول الله، علمني عملًا يقرّبني إلى الجنَّة، ويباعدني من النار، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**إِذَا عَمِلْتَ سَيِّئَةً فَاعْمَلْ حَسَنَةً، فَإِنَّهَا عَشرُ أَمْثَالِهَا**». قُلْتُ: يا رَسُولَ الله، أَفَمِنَ الْحَسَنَاتِ لَا إِلٰهَ إِلَّا الله؟ قال: «**نَعَمْ، أَحْسَنُ الْحَسَنَاتِ**»(٢).

وقال شيخ الإسلام رحمه الله: «ولهذا لما كان يوسف محبًّا لله مخلصًا له الدين، لم يُبْتل بذلك؛ بل قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [يوسف: ٢٤]. وأما امرأة العزيز فكانت مشركة هي وقومها، فلهذا ابتليت بالعشق.

وما يُبتلى بالعشق أحد إلّا لنقص توحيده وإيمانه، **وإلا فالقلب المنيب إلى الله الخائف منه فيه صارفان يصرفان عن العشق:**

أحدهما: إنابته إلى الله ومحبته له؛ فإن ذلك ألذّ وأطيب من كل

(١) رواه البخاري (١/ ١٢٨).

(٢) رواه أحمد: (٢١٤٨٧)، وحسَّنه الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (٣١٦٢).

شيء، فلا تبقى مع محبة الله محبة مخلوق تزاحمه. والثاني: خوفه من الله، فإن الخوف المضاد للعشق يصرفه»[١].

وقال أيضًا رَحِمَهُ اللَّهُ: «من تدبّر أحوال العالم وجد كل صلاح في الأرض فسببه: توحيد الله وعبادته وطاعة رسوله ﷺ، وكل شر وفتنة وبلاء وقحط وتسليط عدو وغير ذلك فسببه: مخالفة الرسول ﷺ والدعوة إلى غير الله»[٢].

وقال ابن سعدي رَحِمَهُ اللَّهُ: «وليس شيءٌ من الأشياء له من الآثار الحسنة، والفضائل المتنوعة، مثل التوحيد؛ فإن خير الدنيا والآخرة من ثمرات التوحيد وفضائله»[٣].

فيه فوائد

الأولى: فضل التوحيد وعِظَم آثاره الحميدة.

الثانية: التوحيد يُحقِّق لأهله الأمن التام بجميع أنواعه، والهداية التامة في الدنيا والآخرة.

الثالثة: من ثمرات التوحيد تحقيق الحياة الطيبة في الدنيا والآخرة.

الرابعة: فضل التوحيد على أهله؛ وذلك لقوله ﷺ: «**حَرَّمَهُ اللهُ عَلَى النَّارِ**».

الخامسة: التوحيد سبب كل خير في الدنيا، والشرك سبب كل شر فيها.

السادسة: التوحيد يُطهِّر أهله من فعل الفواحش والمنكرات، والشرك يدعو أتباعه إلى فعل الفواحش والمنكرات.

السابعة: معرفة خطأ الفِرق والجماعات التي لا تهتمّ بتعلّم التوحيد وتعليمه.

الثامنة: حسن منهج أهل السُّنَّة والجماعة في العقيدة والعمل.

---

(١) «الفَتاوَى» (١٠/ ١٣٥).

(٢) «الفَتاوَى» (١٥/ ٢٥)، انظر: «مدارج السالكين» (١/ ٣٣٠).

(٣) «القول السديد في مقاصد التوحيد» (ص٢٣).

٩

باب عناية أهل السُّنَّة والجماعة بتزكية النفوس

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ﴾ [البقرة: ٢٠٨].

وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗاۗ﴾ [البقرة: ١٤٣].

وقال النبي ﷺ: «**أَنْتُمْ تُوفُونَ سَبْعِينَ أُمَّةً أَنْتُمْ خَيْرُهَا وَأَكْرَمُهَا عَلَى الله**»(١).

وقال أبو بكر الإسماعيلي رَحِمَهُ اللهُ: «ويرون مجانبة البدعة والآثام، والفخر، والتكبر، والعُجْب، والخيانة، والدّغل، والسعاية، ويرون كف الأذى، وترك الغيبة إلا لمن أظهر بدعة وهوى يدعو إليها؛ فالقول فيه ليس بغيبة عندهم... مع لزوم الجماعة والتّعَفُّف في المأكل والمشرب والملبس، والسعي في عمل الخير، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والإعراض عن الجاهلين حتى يعلموهم ويبينوا لهم الحق، ثم الإنكار والعقوبة من بعد البيان وإقامة العذر بينهم ومنهم. هذا أصل الدين والمذهب: اعتقاد أئمة أهل الحديث الذين لم تُشِنْهم بدعة، ولم تُلْبِسهم فتنة، ولم يخفوا إلى مكروه في دين؛ فتمسكوا معتصمين بحبل الله جميعًا ولا تفرقوا عنه»(٢).

وقال أبو عثمان إسماعيل الصابوني رَحِمَهُ اللهُ: «ويرون المسارعة إلى

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٠٠١)، وابن ماجه (٤٢٨٨)، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» برقم (٢٣٠١).

(٢) «اعتقاد أئمة الحديث» (ص٧٩).

أداء الصلوات المكتوبات، وإقامتها في أوائل الأوقات أفضل من تأخيرها إلى آخر الأوقات، ويتواصون بقيام الليل للصلاة بعد المنام، وبصلة الأرحام، وإفشاء السلام وإطعام الطعام، والرحمة على الفقراء والمساكين والأيتام، والاهتمام بأمور المسلمين، والتعفف في المأكل والمشرب والملبس والمنكح، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والبدار إلى فعل الخيرات أجمع، ويتحابّون في الدين ويتباغضّون فيه، ويتقون الجدال في الله، والخصومات فيه، ويجانبون أهل البدع والضلالات، ويعادون أصحاب الأهواء والجهالات»[(١)].

وقال قِوَام السُّنَّة إسماعيل بن محمد الأصبهاني رَحِمَهُ اللَّهُ: «ومن مذهب أهل السُّنَّة، التورّع في المآكل والمشارب والمناكح، والتحرّز من الفواحش والقبائح، والتحريض على التحابّ في الله عَزَّ وَجَلَّ، واتقاء الجدال والمنازعة في أصول الدين، ومجانبة أهل الأهواء والضلالة، وهجرهم ومباينتهم، والقيام بوفاء العهد والأمانة، والخروج من المظالم والتبعات، وغضّ الطرف عن الريبة والحرمات، ومنع النفس عن الشهوات، وترك شهادة الزور، وقذف المحصنات، وإمساك اللسان عن الغيبة والبهتان، والفضول من الكلام، وكظم الغيظ والصفح عن زلل الإخوان، والمسابقة إلى فعل الخيرات، والإمساك عن الشبهات، وصلة الأرحام، ومواساة الضعفاء، والنصيحة في الله، والشفقة على خلق الله، والتهجّد لقيام الليل لا سيما لحملة القرآن، والبدار إلى أداء الصلوات»[(٢)].

وقال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: «ويدينون بالنصيحة للأمة، ويعتقدون معنى قوله ﷺ: «**الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا**»، وَشَبَّكَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ. وقوله ﷺ: «**مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ كَمَثَلِ**

---

(١) «عقيدة السلف وأصحاب الحديث» (ص٢٩٧ ـ ٢٩٨).

(٢) «الحجة في بيان المحجة» (٢/ ٥٧١ ـ ٥٧٢).

الْجَسَدِ، إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالْحُمَّى وَالسَّهَرِ»، ويأمرون بالصبر عند البلاء، والشكر عند الرخاء، والرضا بمر القضاء؛ ويدعون إلى مكارم الأخلاق، ومحاسن الأعمال، ويعتقدون معنى قوله ﷺ: «**أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا**»؛ ويندبون إلى أن تصل من قطعك، وتعطي من حرمك، وتعفو عمن ظلمك؛ ويأمرون ببر الوالدين، وصلة الأرحام، وحسن الجوار، والإحسان إلى اليتامى والمساكين وابن السبيل، والرفق بالمملوك؛ وينهون عن الفخر والخيلاء والبغي والاستطالة على الخلق بحق أو بغير حق، ويأمرون بمعالي الأخلاق، وينهون عن سفسافها»(١).

فيه فوائد

الأولى: عناية أهل السُّنَّة والجماعة بتزكية النفوس ومكارم الأخلاق، وذكر ذلك في كتب العقيدة.

الثانية: عقيدة أهل السُّنَّة والجماعة عقيدة علمية عملية، تؤثر في أعمالهم وأخلاقهم.

الثالثة: أعمال أهل السُّنَّة والجماعة وأخلاقهم نابعة من دينهم وعقيدتهم.

الرابعة: أهل السُّنَّة والجماعة يَهتمّون بأمور المسلمين كلّها، ولا يُهملون شيئًا منها.

الخامسة: أهل السُّنَّة والجماعة يدعون إلى كل ما دعا إليه القرآن والسُّنَّة.

---

(١) «العقيدة الواسطية» (ص١٢٩ ـ ١٣١).

السادسة: أهل السُّنَّة والجماعة حققوا تزكية النفوس ومكارم الأخلاق علمًا وعملًا ودعوةً.

السابعة: معرفة صلة تزكية النفوس والأخلاق بالتوحيد والعقيدة الصحيحة.

الثامنة: حسن منهج أهل السُّنَّة والجماعة في العقيدة والعمل.

التاسعة: قُبح العقائد المخالفة لعقيدة أهل السُّنَّة والجماعة وما عليه سلف الأمة.

۞ ۞ ۞

الفصل الثاني

مكانة تزكية النفس في الإسلام، وبيان مفهومها، وأحكامها، وخصائصها

١

باب ما جاء في مكانة تزكية النفس في الإسلام

قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ [الذاريات: ٥٦].

وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ۝٢﴾ [الجمعة: ٢].

وقال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠﴾ [الشمس: ١٠].

وقال تعالى: ﴿وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَـٰتُ ٱلْعُلَىٰ ۝٧٥ جَنَّـٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ۝٧٦﴾ [طه: ٧٥، ٧٦].

وقال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝٩٧﴾ [النحل: ٩٧].

وقال تعالى: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ۝٦ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ كَـٰفِرُونَ ۝٧﴾ [فصلت ٦، ٧].

وقال النبي ﷺ: «... **كُلُّ النَّاسِ يَغْدُو، فَبَائِعٌ نَفْسَهُ فَمُعْتِقُهَا أَوْ مُوبِقُهَا**»(١).

وعن زيد بن أرقم رضي الله عنه قال: لا أقول لكم إلا كما كان رسول الله ﷺ يقول: «**اللَّهُمَّ آتِ نَفْسِي تَقْوَاهَا، وَزَكِّهَا أَنْتَ خَيْرُ مَنْ زَكَّاهَا، أَنْتَ وَلِيُّهَا وَمَوْلَاهَا**»(٢).

---

(١) رَوَاهُ مُسلِم (١/ ٢٢٣).

(٢) رواه مسلم (٤/ ٢٠٨٨).

وقال قتادة رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩﴾: «من عمل خيرًا زكاها بطاعة الله»(١).

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۝١٤﴾: «بعمل صالح»(٢).

وقال مجاهد رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قوله تعالى: ﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠﴾: «من أغواها»(٣).

وقال الماوردي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لا بد من تزكية النفس ولا بد من تربيتها، وإلا بَقيت على نقائصها الطّبعية التي خلقت عليها، وبقي فيها غير ذلك مما يكتسبه الإنسان، نتيجة كونه باقيًا في هذه الدنيا، والدنيا ملأى بالأوضار والمضار والأوصاب والعلل»(٤).

وقال ابن سعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير قوله تعالى: ﴿وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ۝٧٦﴾: «أي: تطهَّر من الشرك والكفر والفسوق والعصيان؛ إما ألا يفعلها بالكلية، أو يتوب مما فعله منها، وزكّى أيضًا نفسه، ونمّاها بالإيمان والعمل الصالح؛ فإن للتزكية معنيين: التنقية وإزالة الخبث، والزيادة بحصول الخير. وسميت الزكاة زكاة لهذين الأمرين».

فيه فوائد

الأولى: مكانة تزكية النفس في الإسلام.

الثانية: معرفة مقصد بعثة النبي ﷺ.

(١) أخرجه الطبري (٩٤٥٦).
(٢) رواه عبد الرزاق في «مصنفه» (٣/ ٣٢١).
(٣) أخرجه الطبري (٩/ ٤٥٨).
(٤) هذا الكلام ينقل عن الماوردي، ويعزى إلى كتابه «أدب الدنيا والدين»، ولم أجده فيه حسب بحثي.

الثالثة: فضل تزكية النفس وعظم ثمراتها.

الرابعة: الفلاح في الدارين متوقف على تزكية النفس، والخيبة والخسران على تدسيتها.

الخامسة: الوعيد الشديد لمن أعرض عن التزكية المحمودة، ودسّ نفسه بالمعاصي.

السادسة: تزكية النفس تكون بتحقيق الإيمان، والأعمال الصالحة، والأخلاق الفاضلة، وترك ما يضادها.

السابعة: معرفة أكمل الناس حياة وسعادة.

الثامنة: دعاء النبي ﷺ ربه أن يزكي نفسه.

التاسعة: عناية القرآن والسُّنَّة ببيان معالم تزكية النفوس بما يَكفي ويَشفي ويُغني عن غيرهما.

٢

باب مفهوم تزكية النفس في الإسلام

قَالَ تَعَالَى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣].

وقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَن يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى ﴿٧٥﴾ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ مَن تَزَكَّى ﴿٧٦﴾﴾ [طه: ٧٥، ٧٦].

وسئل النبي ﷺ: ما تزكية النفس؟ فقال: «**أَنْ يَعْلَمَ أَنَّ الله عز وجل مَعَهُ حَيْثُ كَانَ**»(١).

وقال شيخ الإسلام رحمه الله: «فصل: (في تزكية النفس، وكيف تزكو بترك المحرمات مع فعل المأمورات). قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴿٩﴾﴾، و﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى ﴿١٤﴾﴾. قال قتادة وابن عيينة وغيرهما: قد أفلح من زَكَّى نفسه بطاعة الله وصالح الأعمال. وقال الفراء والزجاج: قد أَفلَحتْ نفسٌ زكاها الله، وقد خَابتْ نفسٌ دَسَّاهَا الله. وكذلك ذكره الوالبي عن ابن عباس وهو منقطع. وليس هو مراد الآية؛ بل المراد بها الأول قطعًا لفظًا ومعنى»(٢).

وقال رحمه الله: «فإن التَّزَكِّي هو التَّطَهُّرُ بترك السيئات الْمُوجِبُ لزَكَاةِ النفس كما قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴿٩﴾﴾ ولهذا تفسر الزكاة تارة بالنماء والزيادة، وتارة بالنظافة والإماطة. والتحقيق: أن الزكاة تجمع بين الأمرين: إزالة الشرِّ، وزيادة الخير. وهذا هو العمل الصالح وهو الإحسان»(٣).

---

(١) صححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٠٤٦) وقال: رواه الطبراني في «المعجم الصغير» ص١١٥، والبيهقي في «السنن» (٤/ ٩٥).

(٢) «الفَتاوَى» (١٠/ ٦٢٥).

(٣) «الفَتاوَى» (١٦/ ١٩٨).

وقال في موضع آخر: «**والزَّكَاة في اللغة**: النَّمَاء والزيادة فِي الصّلاح؛ يُقَال: زكا الشَّيْء؛ إِذا نما في الصّلاح؛ فالقلب يحتاج أن يَتربّى فينمو ويزيد حتى يكمل ويصلح، كما يحتاج البدن أن يُربَّى بالأغذية المصلحة له، ولا بد مع ذلك من منع مما يضره؛ فلا ينمو البدن إلا بإعطاء ما ينفعه ومنع ما يضره، وكذلك القلب لا يزكو فينمو ويتم صلاحه إلا بحصول ما ينفعه ودفع ما يضره»(١).

فيه فوائد

الأولى: مفهوم تزكية النفس في الكتاب والسُّنَّة.

الثانية: تزكية النفس تكون في الأفعال والتروك.

الثالثة: تزكية النفس تتعلق بالقلوب والأقوال والأعمال.

الرابعة: تطهير القلب والجوارح من كل سوء، وتحليتهما بالتوحيد، والأعمال الصالحة، والأخلاق الفاضلة، هو حقيقة تزكية النفس.

الخامسة: خطأ من رام صلاح نفسه بدون طهارة قلبه من أمراضه.

السادسة: تفسير قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ⑨﴾.

السابعة: معرفة الخصال الحميدة التي تزكو بها النفس البشرية(٢).

---

(١) «الفَتاوَى» (١٠/ ٩٦).

جاء في «معجم مقاييس اللغة»: (الزاي والكاف والحرف المعتل يدل على معنيين هما: النماء والطهارة). **فالتزكية في اللغة**: النَّماءُ والطَّهارةُ. **وشرعًا**: المراد بتزكية النفس: تطهير النفس من الكفر والبدع والمعاصي، وتحليتها بتحقيق الإيمان اعتقادًا وقولًا وعملًا.

(٢) **قاعدة**: النفس تزكو بكل الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة، التي أمر الله بها؛ فكل الطاعات المتعلقة بالقلوب واللسان والجوارح التي أمر الله بها، فإن النفس البشرية تزكو بها. وزكاة النفس بهذه العبادات تختلف بحسب: حسن العمل، وجنسه، وكثرته.

=

٣

باب في أن تزكية النفس فضل من الله تعالى

قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾﴾ [النور: ٢١].

وقال تعالى: ﴿بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٩].

وقال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ﴿٧﴾ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٨﴾﴾ [الحجرات: ٧، ٨].

وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ﴿١٠﴾﴾ [الليل: ٥ ـ ١٠].

= **فكلما كان العمل أحسن** كانت زيادة الإيمان به أعظم. وحسن العمل يكون بحسب الإخلاص والمتابعة.

وأما جنس العمل؛ فإن الواجب أفضل من المسنون، وبعض الطاعات أوكد وأفضل من البعض الآخر، وكلما كانت الطاعة أفضل كانت زيادة الإيمان بها أعظم.

وأما كثرة العمل؛ فإن الإيمان يزداد بها؛ لأن العمل من الإيمان، فلا جرم أن يزيد بزيادته. (انظر: «تلخيص الحموية» للشيخ ابن عثيمين: ١٠٤).

ومما تزكو به النفس البشرية: ترك الذنوب والمعاصي؛ فكل من ترك المعصية خوفًا من الله ﷻ، فإن نفسه تزكو، وإيمانه يزداد. والترك الذي يثاب عليه العبد هو الترك الوجودي الذي تهيأت أسبابه؛ كمن يغضّ بصره عن امرأة جميلة أمامه؛ فهذا الترك الذي يثاب عليه، لا الترك العدمي. واعلم أنه كلما قوي الداعي إلى فعل المعصية كانت زكاة النفس بتركها أعظم؛ لأن تركها مع قوة الداعي إليها دليل على قوة إيمان العبد، وتقديمه ما يحبه الله ورسوله على ما تهواه نفسه.

وعَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ فِي جَنَازَةٍ، فَأَخَذَ شَيْئًا فَجَعَلَ يَنْكُتُ بِهِ الْأَرْضَ، فَقَالَ: «**مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَقَدْ كُتِبَ مَقْعَدُهُ مِنْ النَّارِ، وَمَقْعَدُهُ مِنَ الْجَنَّةِ**». قَالُوا: يا رَسُولَ الله، أَفَلَا نَتَّكِلُ عَلَى كِتَابِنَا، وَنَدَعُ الْعَمَلَ؟ قَالَ: «**اعْمَلُوا؛ فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ، أَمَّا مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ السَّعَادَةِ فَيُيَسَّرُ لِعَمَلِ أَهْلِ السَّعَادَةِ، وَأَمَّا مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الشَّقَاءِ فَيُيَسَّرُ لِعَمَلِ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ**»؛ ثُمَّ قَرَأَ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦﴾ الآيات [الليل: ٥، ٦]»[١].

وقال ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ في قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾ [النور: ٢١] قال: «ما اهتدى منكم من الخلائق لشيء من الخير ينفع به نفسه، ولم يتق شيئًا من الشرّ يدفعه عن نفسه»[٢].

وقال ابن سعدي رَحِمَهُ اللهُ في تفسيره لآية سورة الحجرات [٧ ـ ٨]: «فهذه أكبر المِنَن: أن يحبب الله الإيمان للعبد، ويُزَيّنه في قلبه، ويُذيقه حلاوته؛ وتَنقاد جوارحه للعمل بشرائع الإسلام، ويُبغّض الله إليه أصناف المحرمات. والله عليم بمن يستحق أن يتفضل عليه بهذا الفضل، حكيم في وضعه في محله اللائق به»[٣].

فيه فوائد

الأولى: تزكية النفس فضل من الله تعالى.

الثانية: تزكية النفس تُطلب من الله تعالى لا من غيره، وعلى ما يُحبّه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال.

الثالثة: هداية الله العبد إلى تزكية النفس من أعظم النعم، وأجلّ المنن.

---

(١) رواه البخاري (٤٩٤٩).
(٢) أخرجه الطبري (١٩/ ١٣٥).
(٣) «التوضيح والبيان» لشجرة الإيمان (ص٢٢).

الرابعة: هداية الله للعبد مربوطة بأسباب شرعية، إذا أتى بها العبد هداه الله إلى سبيله.

الخامسة: تزكية النفس عند أهل السُّنَّة والجماعة تكون: لله «إخلاصًا»، وبالله «استعانة»، وعلى أمر الله «اتباعًا».

۞ ۞ ۞

٤

باب ما جاء من النهي عن تزكية النفس

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم ۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٤٩﴾﴾ [النساء ٤٩]. وقال تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ [النجم: ٣٢].

وقال النبي ﷺ: «**الْمُتَشَبِّعُ بِمَا لَمْ يُعْطَ كَلَابِسِ ثَوْبَي زُورٍ**»[١].

وعن وهب بن منبه رحمه الله قال: «مرّ رجل عابد على رجل عابد، فقال: ما لك؟ قال: عجبت من فلان أنه كان قد بلغ من عبادته ومالت به الدنيا. فقال بِعَجَل: لا تَعْجَب ممن تميل به الدنيا، ولكن اعْجَب ممن استقام»[٢].

وقال الطبري رحمه الله في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم ۚ﴾: «من اليهود، فيبرِّئونها من الذنوب ويطهرونها»[٣].

وقال رحمه الله عند قوله: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾: «يقول جل ثناؤه: فلا تشهدوا لأنفسكم بأنها زكية بريئة من الذنوب والمعاصي»[٤].

وقال ابن سعدي رحمه الله في تفسير قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم ۚ﴾: «هذا تعجيب من الله لعباده، وتوبيخ للذين يزكون أنفسهم من اليهود والنصارى، ومن نحا نحوهم من كل من زكى نفسه بأمر ليس فيه»[٥].

وقال الشيخ صالح الفوزان حفظه الله: «التزكية للنفس على قسمين: تزكية مذمومة وهي المدح، وتزكية محمودة وهي تزكية النفس

---

(١) رواه البخاري (٥٢١٩).
(٢) «حلية الأولياء» (٤/ ٥١).
(٣) «تفسير الطبري» (٨/ ٤٥٢).
(٤) «تفسير الطبري» (٢٢/ ٥٤٠).
(٥) «تفسير السعدي» (ص١٨٢).

بالطاعات والأعمال الصالحة والتوبة والاستغفار، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ۝٤﴾ [المؤمنون: ٤]؛ أي: يزكون أنفسهم بالطاعات، أما تزكية النفس بالمدح، فإنها لا تجوز»[١].

فيه فوائد

الأولى: النهي عن تزكية النفس بالمدح والثناء، أو التنزيه لها من المعايب والذنوب.

الثانية: ذمّ اليهود ومن شابههم في تبرئة نفوسهم من المساوئ والآثام.

الثالثة: ذمّ من زكى نفسه بأمر ليس فيه.

الرابعة: معرفة الفرق بين التزكية المحمودة، والتزكية المذمومة.

الخامسة: الحذر من العُجْب ومدح النفس.

السادسة: العبد مأمور بمجاهدة نفسه، وطهارتها من مساوئ الأخلاق والأعمال، لا بالتغرير بها، والتماس الأعذار المذمومة لها.

السابعة: العَجَب يكون ممّن طهّر قلبه وجوارحه من مساوئ الأخلاق والأعمال، وحلّاها بضدها، لا ممن دنسها بالآثام أو مدحها بما ليس فيها أو برأها مما هو فيها.

۞ ۞ ۞

(١) «شرح كتاب الكبائر» (ص٢٠٧).

٥

باب ما جاء في حقيقة النفس

قال تعالى: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٥٣﴾ [يوسف: ٥٣][١].

---

(١) **وصفت النفس في القرآن بثلاث صفات:** نفس مطمئنة، ونفس لوامة، ونفس أمارة بالسوء.

ولكل منها حقيقة وعلامات.

قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ: «**والنفوس التي جاءت في القرآن وصفت بثلاثة أوصاف:**

الأول: النفس المطمئنة؛ لقول الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ٢٧ ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ ٢٨﴾ [الفجر: ٢٧، ٢٨].

الثاني: الأمّارة بالسّوء، في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ [يوسف: ٥٣].

الثالث: النفس اللوامة، في قوله تعالى: ﴿وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ ٢﴾ [القيامة: ٢].

فأما المطمئنة والأمّارة بالسّوء فهما متباينتان؛ لأن المطمئنة تأمر بالخير وتنهى عن الشر، والأمّارة بالسّوء تأمر بالشر وتنهى عن الخير. وأما اللوامة؛ فالصحيح أنها وصف للنفسين جميعًا؛ فالأمّارة بالسّوء تلومك، والمطمئنة تلومك؛ فأما الأمّارة بالسّوء فتلومك إذا فعلت الخير، وإذا تركت السّوء، والمطمئنة تلومك إذا فعلت السوء، وإذا تركت الخير. فالصواب: أن اللوامة وصف للنفسين جميعًا؛ أي: للأمّارة بالسوء، وللمطمئنة». «شرح أصول التفسير» (ص٢١).

وليحذر المسلم من خطرات النفوس والوساوس والالتفات إليها؛ فإن خطرها عظيم، قال ابن القيم: «قلت لشيخ الإسلام ابن تيمية: مثل آفات النفس مثل الحيات والعقارب التي في طريق المسافر؛ فإن أقبل على تفتيش الطريق عنها والاشتغال بقتلها انقطع، ولم يمكنه السفر قط، ولتكن همتك المسير والإعراض عنها وعدم الالتفات إليها، فإذا عرض لك فيها ما يعوقك عن =

وقال تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾﴾ [الأحزاب: ٧٣].

وكان النبي ﷺ إذا خطب، قدّم بين يدي خُطبته قوله: «**إِنَّ الْحَمْدَ للهِ، نَحْمَدُهُ، وَنَسْتَعِينُهُ، وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِالله مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا، وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلٰهَ إِلَّا الله وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ**»... الآيات(١).

وقال أبو بكر رضي الله عنه: يا رسول الله، مُرْني بكلمات أقولهنَّ إذا أصبحت وإذا أمسيت، قال: «**قُلْ: (اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، رَبَّ كُلِّ شَيْءٍ وَمَلِيكَهُ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلٰهَ إِلَّا أَنْتَ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ نَفْسِي، وَشَرِّ الشَّيْطَانِ وَشِرْكِهِ، وَأَنْ أَقْتَرِفَ عَلَى نَفْسِي سُوءًا أَوْ أَجُرَّهُ إِلَى مُسْلِمٍ)، قُلْهُ إِذَا أَصْبَحْتَ وَإِذَا أَمْسَيْتَ وَإِذَا أَخَذْتَ مَضْجَعَكَ**»(٢).

وقال شيخ الإسلام رحمه الله: «قال بعض العارفين: ما من نفس إلا وفيها ما في نفس فرعون، إلا أنه قَدَرَ فأظهر، وغيره عجز فأضمر، وذلك أن الإنسان إذا اعتبر وتعرَّف نفسه والناس رأى الواحد يريد نفسه أن تطاع وتعلو بحسب الإمكان، والنفوس مشحونة بحب العلو والرئاسة بحسب إمكانها، فتجده يوالي من يوافقه على هواه، ويعادي من يخالفه

= المسير فاقتله، ثم امض على سيرك. فاستحسن شيخ الإسلام ذلك جدًّا وأثنى على قائله». انظر: «مدارج السالكين» (٢/ ٣١٣).

(١) خرج هذه الخطبة الألباني في «السلسلة الصحيحة»، وفي رسالة مستقلة (ص٣٢).

(٢) رواه الترمذي (٥/ ٣٣٩٢).

في هواه، وإنما معبوده ما يهواه ويريده، قال تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾﴾ [الفرقان: ٤٣]»(١).

وقال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «اتفق السالكون إلى الله على اختلاف طرقهم وتباين سلوكهم على أن النفس قاطعة بين القلب وبين الوصول إلى الرب»(٢).

وقال ابن سعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «النفس ظالمة جاهلة، والظلم والجهل لا يأتي منهما إلّا كل شرّ، فإن رحم الله العبد فمنَّ عليه بالعلم النافع وسلوك طريق العدل في أخلاقه وأعماله، خرجت نفسه من هذا الوصف، وصارت مطمئنة إلى طاعة الله وذكره، ولم تأمر صاحبها إلّا بالخير»(٣).

فيه فوائد

الأولى: معرفة حقيقة النفس، وأن الأصل فيها أنها أمّارة بالسوء.

الثانية: استعاذة النبي ﷺ من شرّ النفس.

الثالثة: الأصل في النفس الظلم والجهل، فلا يغترّ بها صاحبها.

الرابعة: تأكد أهمية تزكية النفس، وذلك لكثرة الآفات التي طُبِعَت عليها.

الخامسة: أثر أذكار اليوم والليلة في ترويض النفوس.

❁ ❁ ❁

---

(١) «الفَتاوَى» (١٤/ ٣٢٤).

(٢) انظر: «إغاثة اللهفان» (١/ ٧٥)، و«مدارج السالكين» (٢/ ٣٥١).

(٣) فوائد مستنبطة من سورة يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ (ص٣١)، وانظر: «أدب النفوس» للآجري (ص١٥).

٦

باب تفاوت درجات الناس في تزكية النفس

قال تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ۚ﴾ [الأنعام: ١٣٢].

وقال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَاۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾﴾ [فاطر: ٣٢].

وقال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والسلوك سلوكان: **سلوك** الأبرار أهل اليمن، وهو أداء الواجبات وترك المحرمات باطنًا وظاهرًا. **والثاني**: سلوك المقربين السابقين، وهو فعل الواجب والمستحبّ بحسب الإمكان، وترك المكروه والمحرم، كما قال النبي ﷺ: «**إِذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ فَاجْتَنِبُوهُ، وَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِأَمْرٍ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ**»»[١].

وقال ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «استحضار ذكر الآخرة بالقلب في جميع الأحوال عزيز جدًّا ولا يَقْدر كثير من الناس أو أكثرهم عليه، فيكتفى منهم بذكر ذلك أحيانًا، وإن وقعت الغفلة عنه في حال التلبس بمصالح الدنيا المباحة، ولكن المؤمن لا يرضى من نفسه بذلك بل يلوم نفسه عليه ويُحزنه ذلك من نفسه»[٢].

وقال ابن سعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الإيمان يشمل عقائد الدين، وأخلاقه، وأعماله الظاهرة والباطنة. ويترتب على ذلك أنه يزيد بزيادة هذه الأوصاف والتحقق بها، وينقص بنقصها، وأن الناس في الإيمان درجات متفاوتة بحسب تفاوت هذه الأوصاف.

---

(١) «الفَتاوَى» (١٠/ ٤٦٣).

(٢) «لطائف المعارف»، لابن رجب (ص١٥).

ولهذا كانوا ثلاث درجات:

١ ـ سابقون مقربون، وهم: الذين قاموا بالواجبات والمستحبات، وتركوا المحرمات والمكروهات، وفضول المباحات.

٢ ـ ومقتصدون، وهم: الذين قاموا بالواجبات، وتركوا المحرمات.

٣ ـ وظالمون لأنفسهم، وهم: الذين تركوا بعض واجبات الإيمان، وفعلوا بعض المحرمات.

كما ذكرهم الله بقوله: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَـٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾﴾ [فاطر: ٣٢]»[1].

فيه فوائد

الأولى: تزكية النفس على درجتين: واجبة ومستحبة.

الثانية: تفسير الإيمان.

الثالثة: تفاوت الناس في درجات تزكية النفس.

الرابعة: معرفة مرتبة السابقين المقربين.

الخامسة: معرفة مرتبة المقتصدين، وهي واجبة على كل مسلم، وإنما يتفاضل فيها العِبَاد بحسب الإخلاص والاتباع.

السادسة: معرفة حال الظالم لنفسه.

السابعة: المؤمن لا يرضى لنفسه التخلُّف عن درجات الكمال.

الثامنة: أهمية العلم في تزكية النفس.

التاسعة: العبد قد ينتقل من مرتبة الظالمين لأنفسهم أو المقتصدين إلى مرتبة المقرّبين ـ إن حسنت نِيّته، وصدق في سعيه ـ، وقد يَنزل عن درجات الكمال بحسب عمله.

العاشرة: سعة رحمة الله.

---

(١) «التوضيح والبيان»، لشجرة الإيمان (ص١٩).

٧

باب أنّ من تَزكّى فإنما يَتزكّى لنفسه

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ وَيَأۡتِ بِخَلۡقٖ جَدِيدٖ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٖ ﴿١٧﴾ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۚ وَإِن تَدۡعُ مُثۡقَلَةٌ إِلَىٰ حِمۡلِهَا لَا يُحۡمَلۡ مِنۡهُ شَيۡءٞ وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰٓۗ إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفۡسِهِۦۚ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلۡمَصِيرُ ﴿١٨﴾﴾ [فاطر: ١٥ ـ ١٨].

وعن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم، فيما يرويه عن ربه تبارك وتعالى أنه قال: «**يَا عِبَادِي إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ، ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا؛ فَمَنْ وَجَدَ خيرًا فَلْيَحْمَدِ الله، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِك فَلا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ**»(١).

وقال ابن سعدي رحمه الله في تفسيره لقول الله تعالى: ﴿وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفۡسِهِۦۚ﴾: «أي: ومن زكى نفسه بالتنقِّي من العيوب (كالرياء، والكبر، والكذب، والغش، والمكر، والخداع، والنفاق، ونحو ذلك من الأخلاق الرذيلة)، وتحلَّى بالأخلاق الجميلة (من الصدق، والإخلاص، والتواضع، ولين الجانب، والنصح للعباد، وسلامة الصدر من الحقد والحسد وغيرهما من مساوئ الأخلاق)؛ فإن تزكيته يعود نفعها إليه، ويصل مقصودها إليه، ليس يضيع من عمله شيء؛ ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلۡمَصِيرُ ﴿١٨﴾﴾ فيجازي الخلائق على ما أسلفوه، ويحاسبهم على ما قدموه وعملوه، ولا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها».

---

(١) رواه مسلم (٤/ ٢٥٧٧).

فيه فوائد

الأولى: كمال استغناء الله تعالى، وفقر العباد إليه في كل لحظة من لحظات حياتهم.

الثانية: العبد هو المُنتفع بالتزكية سعادة وطمأنينة في الدنيا، وثوابًا ونعيمًا في الآخرة.

الثالثة: أهل السُّنَّة والجماعة عرفوا كمال غنى الله ﷻ، وفقرهم إليه؛ فتوجهوا إليه عبادة واستعانة.

۞ ۞ ۞

٨

باب ما جاء في نواقض ونواقص تزكية النفس ومدار الانحراف فيها

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ [النساء: ٤٨].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ لَيَحۡبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعۡبُدۡ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [الزمر: ٦٥، ٦٦].

وقال تعالى: ﴿قُلۡ هَلۡ نُنَبِّئُكُم بِٱلۡأَخۡسَرِينَ أَعۡمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ يُحۡسِنُونَ صُنۡعًا ﴿١٠٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فَلَا نُقِيمُ لَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَزۡنًا ﴿١٠٥﴾﴾ [الكهف: ١٠٣ ـ ١٠٥].

وقال تعالى: ﴿أَمۡ لَهُمۡ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمۡ يَأۡذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ﴾ [الشورى: ٢١].

وقال تعالى: ﴿وَذَرُواْ ظَٰهِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَبَاطِنَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡسِبُونَ ٱلۡإِثۡمَ سَيُجۡزَوۡنَ بِمَا كَانُواْ يَقۡتَرِفُونَ ﴿١٢٠﴾﴾ [الأنعام: ١٢٠].

وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِهِمۡ لِيُجَٰدِلُوكُمۡۖ وَإِنۡ أَطَعۡتُمُوهُمۡ إِنَّكُمۡ لَمُشۡرِكُونَ ﴿١٢١﴾﴾ [الأنعام: ١٢١].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**قَالَ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي، تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ**»(١).

(١) رواه البخاري (٢٩٨٥).

وسئل النبي ﷺ: أيّ الذنب أعظم؟ قال: «**أَنْ تَجْعَلَ للهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ**»(١).

وقال النبي ﷺ: «**الْـمَدِينَةُ حَرَمٌ مِنْ عَيْرٍ إِلَى كَذَا؛ فَمَنْ أَحْدَثَ فِيهَا حَدَثًا فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللهِ وَالمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ، لَا يَقْبَلُ اللهُ مِنْهُ صَرْفًا وَلَا عَدْلًا**»(٢).

وقال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ: «النفس والأعمال لا تزكو حتى يزال عنها ما يناقضها، ولا يكون الرجل مُتزكيًا إلا مع ترك الشر»(٣).

وقال ابن القيِّم رَحِمَهُ اللهُ: «فالمعاصي للإيمان كالمرض والحمَّى للقوة، سواء بسواء. ولذلك قال السَّلَف: المعاصي بريد الكفر، كما أن الحمَّى بريد الموت. فإيمان صاحب القبائح كقوة المريض على حسب قوة المرض وضعفه»(٤).

وقال رَحِمَهُ اللهُ: «وعامّة من تزندق من السالكين فلإعراضه عن دواعي العلم، وسَيْـرِهِ على جادّة الذوق والوجد، ذاهبةً به الطريقُ كلَّ مذهب فهذه فتنته، والفتنة به شديدة»(٥).

---

(١) رواه البخاري (٤٤٧٧)، ومسلم (٨٦)، من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٢) رواه البخاري (٦٧٥٥)، ومسلم (١٣٧٠).

(٣) «الفَتاوَى» (١٠/ ٦٢٩).

(٤) «مدارج السالكين» (٢/ ٢٧).

وقال رَحِمَهُ اللهُ مبينًا بعض عواقب الذنوب: «قلة التوفيق، وفساد الرأي، وخفاء الحق، وفساد القلب، وخمول الذكر، وإضاعة الوقت، ونفرة الخلق، والوحشة بين العبد وبين ربه، ومنع إجابة الدعاء، وقسوة القلب، ومحق البركة في الرزق والعمر، وحرمان العلم، ولباس الذل، وإهانة العدو، وضيق الصدر، والابتلاء بقرناء السوء الذين يفسدون القلب ويضيعون الوقت، وطول الهم والغم، وضنك المعيشة، وكسف البال: تتولد من المعصية والغفلة عن ذكر الله، كما يتولد الزرع عن الماء، والإحراق عن النار، وأضداد هذه تتولد عن الطاعة».

(٥) «مدارج السالكين» (١/ ١٥٨).

وقال ابن رجب رَحِمَهُ اللَّهُ: «فأما العبادات فما كان منها خارجًا عن حكم الله ورسوله بالكلية؛ فهو مردود على عامله، وعامله يدخل تحت قوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَـٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾﴾ [الشورى: ٢١]. فمن تقرّب إلى الله بعمل لم يجعله الله ورسوله قربة إلى الله؛ فعمله باطل مردود عليه. وهو شبيه بحال الذين كانت صلاتهم عند البيت مُكَاءً وتصدية، وهذا كمن تقرب إلى الله تعالى بسماع الملاهي أو بالرقص...»[1].

وقال ابن سعدي في «تفسيره» لقول الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَذَرُواْ ظَـٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ﴾: «المراد بالإثم: جميع المعاصي، التي تُؤَثِّم العبد؛ أي: توقعه في الإثم والحرج من الأشياء المتعلقة بحقوق الله، وحقوق عباده. فنهى الله عباده عن اقتراف الإثم الظاهر والباطن؛ أي: السر والعلانية؛ سواء المعاصي المتعلقة بالبدن والجوارح، أم المتعلقة بالقلب. ولا يتم للعبد ترك المعاصي الظاهرة والباطنة إلا بعد معرفتها، والبحث عنها؛ فيكون البحث عنها، ومعرفة معاصي القلب والبدن، والعلمُ بذلك واجبًا متعينًا على المكلف. وكثير من الناس تخفى عليه كثير من المعاصي ـ خصوصًا معاصي القلب؛ كالكبر والعجب والرياء ونحو ذلك ـ، حتى إنه يكون به كثير منها، وهو لا يحس به ولا يشعر؛ وهذا من الإعراض عن العلم، وعدم البصيرة. ثم أخبر تعالى أن الذين يكسبون الإثم الظاهر والباطن، سيجزون على حسب كسبهم، وعلى قدر ذنوبهم، قلَّت أو كثرت؛ وهذا الجزاء يكون في الآخرة، وقد يكون في الدنيا، يعاقب العبد فيخفف عنه بذلك من سيئاته».

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسيره لآية سورة الأنعام: «ودلت هذه الآية الكريمة

(١) «جامع العلوم والحكم» (ص٦٠).

على أن ما يقع في القلوب من الإلهامات والكشوف التي يكثر وقوعها عند الصوفية ونحوهم، لا تدل ـ بمجردها ـ على أنها حق، ولا تُصدَّق حتى تُعرض على كتاب الله وسُنَّة رسوله، فإن شهدا لها بالقبول قُبلت، وإن ناقضتهما رُدَّت، وإن لم يُعلم شيء من ذلك تُوقف فيها ولم تُصدق ولم تُكذب؛ لأن الوحي والإلهام يكون من الرحمٰن ويكون من الشيطان، فلا بد من التمييز بينهما والفرقان؛ وبعدم التفريق بين الأمرين حصل من الغلط والضلال ما لا يحصيه إلا الله»[1].

---

(١) «تفسير السعدي» (ص٢٧١).

قاعدة: في المشروع من الكتاب والسُّنَّة من العقائد والعبادات والأخلاق غنية وكفاية عن غير المشروع، قال تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾﴾ [الأنعام: ١١٤ ـ ١١٥]. قال ابن سعدي في تفسيره: «أي: قل يا أيها الرسول ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا﴾ أُحاكم إليه، وأتقيّد بأوامره ونواهيه؟! فإنّ غير الله محكوم عليه لا حاكم. وكلّ تدبير وحُكم للمخلوق فإنه مُشتمل على النقص والعيب والجور. وإنما الذي يجب أن يُتَّخذ حاكمًا فهو الله وحده لا شريك له، الذي له الخلق والأمر، ﴿ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ۚ﴾؛ أي: موضَّحًا فيه الحلال والحرام، والأحكام الشرعية، وأصول الدين وفروعه، الذي لا بيان فوق بيانه، ولا برهان أجلى من برهانه، ولا أحسن منه حُكمًا ولا أقوم قيلًا؛ لأن أحكامه مشتملة على الحكمة والرحمة. وأهل الكتب السابقة من اليهود والنصارى يعترفون بذلك ﴿يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ۖ﴾؛ ولهذا تواطأت الإخبارات؛ ﴿فَلَا﴾ تشُكَّنَّ في ذلك، ولا ﴿تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾﴾.

ثم وصف تفصيلها فقال: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ﴾؛ أي: صدقًا في الأخبار، وعدلًا في الأمر والنهي. فلا أصدق من أخبار الله التي أودعها هذا الكتاب العزيز، ولا أعدل من أوامره ونواهيه ﴿لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ۚ﴾ [حيث حفظها وأحكمها بأعلى أنواع الصدق، وبغاية الحق، فلا يمكن تغييرها، ولا اقتراح أحسن منها]، ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لسائر الأصوات، باختلاف اللغات =

وقال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ: «**وأما نقص الإيمان فله أسباب**:

منها: فعل المعصية؛ فينقص الإيمان بحسب قدْرها، والتهاون بها، وقوة الداعي إليها أو ضعفه.

فأما جنسها وقدرها: فإنَّ نقص الإيمان بقتل النفس المحرّمة أعظم من نقصه بأخذ مال محترم، ونقصه بمعصيتين أعظم من نقصه بمعصية واحدة، وهكذا.

وأما التهاوُن بها: فإن المعصية إذا صدرت من قلب متهاون بمن عصاه ضعيف الخوف منه؛ كان نقص الإيمان بها أعظم من نقصه إذا صدرت من قلب معظم لله تعالى شديد الخوف منه، لكن فَرَطَت منه المعصية.

وأما قوة الداعي إليها: فإنَّ المعصية إذا صدرت ممن ضعفت منه دواعيها؛ كان نقص الإيمان بها أعظم من نقصه إذا صدرت ممن قويت منه دواعيها؛ ولذلك كان استكبار الفقير، وزنى الشيخ أعظم إثمًا من استكبار الغني وزنى الشاب. كما في الحديث: «**ثَلَاثَةٌ لَا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ، وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلَا يُزَكِّيهِمْ، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ**»، وذكر منهم: «**الْأُشَيْمِطَ الزَّانِي، وَالْعَائِلَ الْـمُسْتَكْبِرَ**»؛ لقلة دواعي تلك المعصية فيهما»(١).

فيه فوائد

الأولى: الشرك والبدع الكفرية تُبطل التزكية النافعة، وتنقضها من أصلها.

= على تفنّن الحاجات. ﴿ٱلْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾﴾ الذي أحاط علمه بالظواهر والبواطن، والماضي والمستقبل».

(١) «فتح رب البرية بتلخيص الحموية» (ص١٢٣).

الثانية: الذنوب والمعاصي الظاهرة والباطنة تنقص التزكية الواجبة، ولا تنقضها.

الثالثة: معرفة الفرق بين نواقض تزكية النفس ونواقصها.

الرابعة: النواقض والنواقص تتعلق بالقلوب والأقوال والأعمال.

الخامسة: معرفة حدّ الشرك.

السادسة: معرفة حدّ البدعة في الدين.

السابعة: البدعة تحبط العمل.

الثامنة: الحذر من التعبّد على شرك أو بدعة.

التاسعة: أثر المعصية على التزكية.

العاشرة: معرفة ما ينقص الإيمان ويزيده.

الحادية عشرة: العمل لا يُقبَل إلا إذا كان خالصًا لله تعالى، صوابًا على السُّنَّة.

الثانية عشرة: كل تزكية وأمر مخالف للكتاب والسُّنَّة فهو مردود وغير مقبول.

الثالثة عشرة: عواقب طلب تزكية النفس بدون علم بالشرع.

الرابعة عشرة: الفرق بين الوحي الإلٰهي، والوحي الشيطاني.

الخامسة عشرة: معرفة منهج أهل السُّنَّة والجماعة في التعامل مع الوجد والذوق والإلهام وخطرات النفوس.

السادسة عشرة: معرفة أُسس الانحراف عن التزكية المشروعة.

❁ ❁ ❁

٩

باب فيما جاء من خصائص تزكية النفس عند أهل السُّنَّة والجماعة

قال تعالى: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝٣﴾ [الأعراف: ٣].

وقال تعالى: ﴿فَأَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفٗاۚ فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ۝٣٠﴾ [الروم: ٣٠].

وقال تعالى: ﴿وَمَن يُعَظِّمۡ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقۡوَى ٱلۡقُلُوبِ ۝٣٢﴾ [الحج: ٣٢].

وقال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ﴾ [الإسراء: ٥٧].

وقال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَعَلَيۡهَا مَا ٱكۡتَسَبَتۡۗ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

وقال النبي ﷺ: «**إِنَّ الدِّينَ يُسْرٌ، وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلَّا غَلَبَهُ، فَسَدِّدُوا وَقَارِبُوا، وَأَبْشِرُوا، وَاسْتَعِينُوا بِالْغَدْوَةِ وَالرَّوْحَةِ وَشَيْءٍ مِنَ الدُّلْجَةِ**»(١). وفي لفظ «**وَالْقَصْدَ الْقَصْدَ تَبْلُغُوا**»(٢).

وقال الإمام مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ لعبد الله العمري: «إن الله قَسَمَ الأعمال كما قَسَمَ الأرزاق، فرب رجل فُتح له في الصلاة، ولم يُفتح له في الصوم، وآخر فُتح له في الصدقة، ولم يُفتح له في الصوم، وآخر فُتح له

(١) رواه البخاري (٣٩).
(٢) البخاري (٦٤٦٣).

في الجهاد، فنشر العلم من أفضل أعمال البر، وقد رضيت لما فُتح لي فيه، وما أظنّ ما أنا فيه بدون ما أنت فيه، وأرجو أن يكون كلانا على خير وبر»(١).

وقال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: «ولا يجوز أن يُعتمد في الشريعة على الأحاديث الضعيفة التي ليست صحيحة ولا حسنة... ولم يقل أحد من الأئمة: إنه يجوز أن يجعل الشيء واجبًا أو مستحبًّا بحديث ضعيف، ومن قال هذا فقد خالف الإجماع»(٢).

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَقَالَ من قَالَ من السَّلَف: من عبد الله بالحب وَحده فَهُوَ زنديق، وَمن عَبده بالرجاء وَحده فَهُوَ مرجئ، وَمن عَبده بالخوف وَحده فَهُوَ حروري، وَمن عَبده بالحب وَالْخَوْف والرجاء فَهُوَ مُؤمن موحِّد»(٣).

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: «والتعبير عن حقائق الإيمان بعبارات القرآن أولى من التعبير عنها بغيرها؛ فإن ألفاظ القرآن يجب الإيمان بها، وهي تنزيل من

---

(١) «سير أعلام النبلاء» (٨/ ١١٤).
(٢) «الفَتاوَى» (١/ ٢٥٠).
وهذا نص كلامه كاملًا؛ قال رَحِمَهُ اللَّهُ: «ولا يجوز أن يعتمد في الشريعة على الأحاديث الضعيفة التي ليست صحيحة ولا حسنة؛ لكن أحمد بن حنبل وغيره من العلماء جوزوا أن يُروى في فضائل الأعمال ما لم يعلم أنه ثابت إذا لم يعلم أنه كذب؛ وذلك أن العمل إذا علم أنه مشروع بدليل شرعي، وروي في فضله حديث لا يعلم أنه كذب، جاز أن يكون الثواب حقًّا. ولم يقل أحد من الأئمة: إنه يجوز أن يجعل الشيء واجبًا أو مستحبًّا بحديث ضعيف، ومن قال هذا فقد خالف الإجماع. لكن إذا علم تحريمه، وروي حديث في وعيد الفاعل له ولم يعلم أنه كذب، جاز أن يرويه، فيجوز أن يروي في الترغيب والترهيب ما لم يعلم أنه كذب، لكن فيما علم أن الله رغَّب فيه أو رهَّب منه بدليل آخر غير هذا الحديث المجهول حاله». «الفَتاوَى» (١/ ٢٥٠).
(٣) «الفَتاوَى» (١٠/ ٢٠٧).

حكيم حميد، والأمة متفقة عليها، ويجب الإقرار بمضمونها قبل أن تُفهم، وفيها من الحِكَم والمعاني ما لا تنقضي عجائبه، والألفاظ المحدثة فيها إجمال واشتباه ونزاع. ثمّ قد يُجعل اللفظ حجة بمجرده، وليس هو قول الرسول الصادق المصدوق، وقد يُضطرب في معناه؛ وهذا أمرٌ يعرفه من جرّبه من كلام الناس.

فالاعتصام بحبل الله يكون بالاعتصام بالقرآن والإسلام كما قال تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا﴾.

ومتى ذُكِرت ألفاظ القرآن والحديث، وبُيِّن معناها بيانًا شافيًا؛ فإنّها تنتظم جميع ما يقوله الناس من المعاني الصحيحة، وفيها زيادات عظيمة لا توجد في كلام الناس، وهي محفوظة مما دخل في كلام الناس من الباطل؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ۝٩﴾ [الحجر: ٩]»(١).

وقال رَحِمَهُ اللهُ في جواب له عن تفاضل الأعمال: «وأما ما سألت عنه من أفضل الأعمال بعد الفرائض؛ فإنه يختلف باختلاف الناس فيما يقدرون عليه، وما يُناسب أوقاتهم، فلا يمكن فيه جواب جامع مُفصّل لكل أحد؛ لكن مما هو كالإجماع بين العلماء بالله وأمره: أن ملازمة ذكر الله دائمًا هو أفضل ما شغل العبد به نفسه في الجملة، وعلى ذلك دل حديث أبي هريرة الذي رواه مسلم: «**سَبَقَ الْمُفَرِّدُونَ**» قالوا: يا رسول الله، ومن المفرِّدون؟ قال: «**الذَّاكِرُونَ الله كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتُ**». وفيما رواه أبو داود، عن أبي الدرداء رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، عن النبي ﷺ أنه قال: «**أَلَا أُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرِ أَعْمَالِكُمْ، وَأَزْكَاهَا عِنْدَ مَلِيكِكُمْ، وَأَرْفَعِهَا فِي دَرَجَاتِكُمْ، وَخَيْرٍ لَكُمْ مِنْ إِعْطَاءِ الذَّهَبِ وَالْوَرِقِ، وَمِنْ أَنْ تُلْقُوا عَدُوَّكُمْ فَتَضْرِبُوا أَعْنَاقَهُمْ وَيَضْرِبُوا أَعْنَاقَكُمْ؟**» قَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ. قَالَ: «**ذِكْرُ اللهِ**». والدلائل

(١) «النبوات» (ص٨٧٦).

القرآنية والإيمانية بصرًا وخبرًا ونظرًا على ذلك كثيرة. وأقل ذلك أن يلازم العبد الأذكار المأثورة عن معلِّم الخير وإمام المتقين ﷺ، كالأذكار المؤقتة في أول النهار وآخره»[(١)].

وقال ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ: «فالأولى بنا: أن نذكر منازل العبودية الواردة في القرآن والسُّنَّة، ونشير إلى معرفة حدودها ومراتبها؛ إذ معرفة ذلك من تمام معرفة حدود ما أنزل الله على رسوله؛ وقد وصف الله تعالى من لم يعرفها بالجهل والنفاق، فقال تعالى: ﴿ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾ [التوبة: ٩٦]؛ فبمعرفة حدودها درايةً، والقيام بها رعايةً يستكمل العبد الإيمان، ويكون من أهل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة: ٥]»[(٢)].

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: «. . . لله على العبد عبوديتين: عبودية باطنة، وعبودية ظاهرة؛ فله على قلبه عبودية، وعلى لسانه وجوارحه عبودية؛ فقيامه بسورة العبودية الظاهرة مع تعرّيه عن حقيقة العبودية الباطنة مما لا يقربه إلى ربه، ولا يوجب له الثواب وقبول عمله؛ فإن المقصود امتحان القلوب وابتلاء السرائر؛ فعمل القلب هو روح العبودية ولبّها، فإذا خلا عمل الجوارح منه كان كالجسد الموات بلا روح. . . . .

---

(١) «الفَتاوَى» (١٠/ ٦٦٠).

(٢) «مدارج السالكين» (١/ ١٦٠).

قال رَحِمَهُ اللَّهُ مبينًا أهمية معرفة حدود ما أنزل الله على رسوله، وثمرة ذلك: «فَمِن أشرف الْعُلُوم وأنفعها علم الْحُدُود، وَلَا سِيمَا حُدُود الْمَشْرُوع الْمَأْمُور والمنهي، فَأَعْلم النَّاس أعلمهم بِتِلْكَ الْحُدُود، حَتَّى لَا يدْخل فِيهَا ما لَيْسَ مِنْهَا وَلَا يخرج مِنْهَا ما هُوَ دَاخل فِيهَا؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾، فأعدل النَّاس من قَامَ بحدود الْأَخْلَاق والأعمال والمشروعات معرفَةً وفعلًا، وَبِالله التَّوْفِيق». «الفوائد» (ص١٤١).

والمقصود بالأعمال كلها ـ ظاهرها وباطنها ـ، إنما هو صلاح القلب وكماله، وقيامه بالعبودية بين يدي ربه وقيومه وإلهه، ومن تمام ذلك: قيامه هو وجنوده في حضرة معبوده وربه، فإذا بعث جنوده ورعيته وتغيب هو عن الخدمة والعبودية، فما أجدر تلك الخدمة بالرد والمقت، وهذا مثل في غاية المطابقة. وهل الأعمال الخالية عن عمل القلب إلا بمنزلة حركات العابثين؟ وغايتها ألا يترتب عليها ثواب ولا عقاب.

ولما رأى بعض أرباب القلوب طريقة هؤلاء انحرف عنها إلى أن صرف همّه إلى عبودية القلب، وعطل عبودية الجوارح، وقال: المقصود قيام القلب بحقيقة الخدمة والجوارح تبع.

والطائفتان متقابلتان أعظم تقابل، هؤلاء لا التفات لهم إلى عبودية جوارحهم، ففسدت عبودية قلوبهم، وأولئك لا التفات لهم إلى عبودية قلوبهم، ففسدت عبودية جوارحهم.

والمؤمنون العارفون بالله وبأمره قاموا له بحقيقة العبودية ظاهرًا وباطنًا، وقدموا قلوبهم في الخدمة، وجعلوا الأعضاء تبعًا لها، فأقاموا الملك وجنوده في خدمة المعبود، وهذا هو حقيقة العبودية»[(١)].

وقال ابن سعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «تفسيره»: «... وهذا الأمر الذي أمرناك به هو ﴿فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ﴾ ووضع في عقولهم حسنها واستقباح غيرها؛ فإن جميع أحكام الشرع الظاهرة والباطنة قد وضع اللهُ في قلوب الخلق كلهم الميلَ إليها، فوضع في قلوبهم محبة الحق وإيثار الحق وهذا حقيقة الفطرة. ومن خرج عن هذا الأصل فلعارض عرض لفطرته أفسدها؛ كما قال النبي ﷺ: «**كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ**»[(٢)].

---

(١) «بدائع الفوائد» (٣/ ١٩٢).

(٢) رواه البخاري (١٣٥٨)، ومسلم (٢٦٥٨).

وقال رَحِمَهُ اللهُ: «قوله: «**إِنَّ الدِّينَ يُسْرٌ**»؛ أي: مُيَسَّرٌ مُسهَّلٌ في عقائده وأخلاقه وأعماله، وفي أفعاله وتروكه، فإن عقائده التي ترجع إلى الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره: هي العقائد الصحيحة التي تطمئن لها القلوب، وتُوصل مُقتديها إلى أجل غايةٍ وأفضل مطلوبٍ؛ وأخلاقه وأعماله: أكمل الأَخْلَاق، وأصلح الأعمال؛ بها صلاح الدين والدُّنيا والآخرة، وبفواتها يفوت الصلاح كله، وهي كلها مُيسرةٌ مُسهلةٌ؛ كل مُكَلَّفٍ يرى نفسه قادرًا عليها لا تَشُقُّ عليه ولا تُكَلِّفه؛ عقائده صحيحة بسيطةٌ، تقبلها العقول السليمة، والفطر المستقيمة، وفرائضه أسهل شيء»(١).

وقال رَحِمَهُ اللهُ: «إذا نظر العبد إلى الأعمال الموظفة على العباد في اليوم والليلة ـ المتنوعة من فرض ونفل، وصلاة وصيام وصدقة وغيرها ـ،

---

(١) «جوامع الأخبار» (ص١٠١).

وقال رَحِمَهُ اللهُ في قول النبي ﷺ: «**واستعينوا بالغدوة والروحة، وشيء من الدلجة**»: «ختم الحديث بوصية خفيفة على النفوس، وهي في غاية النفع. فقال: «واستعينوا بالغدوة والروحة، وشيء من الدلجة» وهذه الأوقات الثلاثة ـ كما أنها السبب الوحيد لقطع المسافات القريبة والبعيدة في الأسفار الحسية، مع راحة المسافر، وراحة راحلته، ووصوله براحة وسهولة ـ، فهي السبب الوحيد لقطع السفر الأخروي، وسلوك الصراط المستقيم، والسير إلى الله سيرًا جميلًا.

فمتى أخذ العامل نفسه، وشغلها بالخير والأعمال الصالحة المناسبة لوقته ـ أول نهاره وآخر نهاره وشيئًا من ليله، وخصوصًا آخر الليل ـ حصل له من الخير ومن الباقيات الصالحات أكمل حظ، وأوفر نصيب، ونال السعادة والفوز والفلاح، وتم له النجاح في راحة وطمأنينة، مع حصول مقاصده الدنيوية، وأغراضه النفسية. وهذا من أكبر الأدلة على رحمة الله بعباده بهذا الدين الذي هو مادة السعادة الأبدية، إذ نصبه لعباده، وأوضحه على ألسنة رسله، وجعله ميسَّرا سهلًا، وأعان عليه من كل وجه، ولطف بالعاملين، وحفظهم من القواطع والعوائق».

وأراد أن يقتدي فيها بأكمل الخلق وإمامهم محمد ﷺ؛ رأى ذلك غير شاقٍّ عليه، ولا مانع له عن مصالح دنياه؛ بل يتمكّن معه من أداء الحقوق كلها (حق الله، وحق النفس، وحق الأهل والأصحاب، وحق كل من له حق على الإنسان) برفق وسهولة.

وأما من شدّد على نفسه فلم يكتف بما اكتفى به النبي ﷺ، ولا بما علمه للأمة وأرشدهم إليه، بل غلا وأوغل في العبادات؛ فإن الدين يغلبه، وآخر أمره العجز والانقطاع؛ ولهذا قال: «**وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلَّا غَلَبَهُ**»؛ فمن قاوم هذا الدين بشدة وغلو ولم يقتصد: غلبه الدين، واستحسر ورجع القهقرى. ولهذا أمر ﷺ بالقصد، وحث عليه، فقال: «**وَالْقَصْدَ الْقَصْدَ تَبْلُغُوا**»»[(١)].

فيه فوائد

الأولى: تزكية النفس عند أهل السُّنَّة والجماعة مبنية على الاتباع للقرآن والسُّنَّة لا لغيرهما.

الثانية: أهل السُّنَّة والجماعة في منهاج التزكية موافقون لألفاظ القرآن والسُّنَّة ومعانيهما.

الثالثة: منهج أهل السُّنَّة والجماعة التعبير بالألفاظ الشرعية في باب تزكية النفوس وغيره.

الرابعة: منهج تزكية النفس عند أهل السُّنَّة والجماعة موافق للفطرة السليمة والعقل الصحيح.

الخامسة: أهل السُّنَّة والجماعة منهجهم في تزكية النفوس قائم على تعظيم شعائر الله بفعلها، والقيام بها على أكمل وجه إلى الممات، وعدم تركها أو التهاون فيها والتقليل من شأنها.

---

(١) «بهجة قلوب الأبرار» (ص١٠٣).

السادسة: منهج تزكية النفس عند أهل السُّنَّة والجماعة سهل ميسر في عقائده، وعباداته، وأخلاقه، وفي أفعاله وتروكه.

السابعة: جميع خصال تزكية النفس عند أهل السُّنَّة والجماعة داخلة تحت قدرة العبد.

الثامنة: منهج التزكية عند أهل السُّنَّة لا يتعارض مع مصالح العباد الدنيوية.

التاسعة: منهج تزكية النفس عند أهل السُّنَّة والجماعة قائم على التوسُّط والاعتدال، والسلامة من الغلو والجفاء، أو التعقيد والتشدد.

العاشرة: منهج تزكية النفس عند أهل السُّنَّة والجماعة مبني على مراعاة قدرات الناس، واختلاف أحوالهم.

الحادية عشرة: منهج تزكية النفس عند أهل السُّنَّة والجماعة فيه الجمع بين العبادات القلبية، والعبادات البدنية.

الثانية عشرة: منهج التزكية عند أهل السُّنَّة والجماعة فيه الجمع بين المحبة والخوف والرجاء.

الثالثة عشرة: معرفة أوقات السير إلى الله.

الرابعة عشرة: منهج التزكية عند أهل السُّنَّة والجماعة يورث الحرية الصحيحة وعدم الذل للمخلوقين.

الخامسة عشرة: أهل السُّنَّة والجماعة لا يتعبدون بالرأي والهوى أو الأحاديث الضعيفة والمكذوبة.

۞ ۞ ۞

١٠

باب بيان الأسباب المشروعة لتحصيل التزكية المحمودة

قال تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴿١١٤﴾﴾ [طه: ١١٤].

وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩].

وقال تعالى: ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [الأعراف: ٥٨].

وقال تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٢٩﴾﴾ [ص: ٢٩].

وقال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾ [الأحزاب: ٢١].

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ﴾ [النور: ٢١].

وقال النبي ﷺ: «**احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِاللهِ وَلَا تَعْجِزْ**»(١).

وعن زيد بن أرقم رضي الله عنه: لا أقول لكم إلا كما كان رسول الله ﷺ يقول، كان يقول: «**اللَّهُمَّ آتِ نَفْسِي تَقْوَاهَا، وَزَكِّهَا أَنْتَ خَيْرُ مَنْ زَكَّاهَا، أَنْتَ وَلِيُّهَا وَمَوْلَاهَا**»(٢).

وقال النبي ﷺ: «**أَفْضَلُ الْجِهَادِ مَنْ جَاهَدَ نَفْسَهُ فِي ذَاتِ اللهِ**»(٣).

---

(١) رواه مسلم (٢٦٦٤). (٢) رواه مسلم (٤/ ٢٠٨٨).

(٣) أخرجه ابن نصر في «الصلاة»، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٢/ ١٤٩١).

وقال أبو الدرداء رضي الله عنه: «إن من فقه العبد أن يعلم نزغات الشيطان، متى تأتيه، ومن أين تأتيه»(١).

وقال الحسن رحمه الله: «إن العبد لا يزال بخير ما كان له واعظ من نفسه، وكانت المحاسبة من همتّه»(٢).

وقال الإمام أبو حنيفة رحمه الله: «الحكايات عن العلماء ومجالستهم أحب إليّ من كثير من الفقه؛ لأنها آداب القوم وأخلاقهم»(٣).

وقال قِوامُ السُّنَّة الأصبهاني رحمه الله: «وقال بعض العلماء: أول فرض فرضه الله على خلقه معرفته، فإذا عرفه الناس، عبدوه؛ قال الله تعالى: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [محمد: ١٩]. فينبغي للمسلمين أن يعرفوا أسماء الله وتفسيرها، فيعظموا الله حق عظمته، ولو أراد رجل أن يعامل رجلًا، طلب أن يعرف اسمه وكنيته، واسم أبيه وجده، وسأل عن صغير أمره وكبيره؛ فالله ـ الذي خلقنا ورزقنا، ونحن نرجو رحمته ونخاف من سخطه ـ أولى أن نعرف أسماءه ونعرف تفسيرها»(٤).

وقال ابن الجوزي رحمه الله: «وأصل الأصول: العلم، وأنفع العلوم: النظر في سير الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه، قال الله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ﴾ [الأنعام: ٩٠]»(٥).

وقال شيخ الإسلام رحمه الله: «إذا كانت النفس تهوى وتشتهي وهو ينهاها ـ أي: صاحبها ـ؛ كان نهيه إياها عبادة لله تعالى، وعملًا صالحًا يثاب عليه؛ وقد ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «**الْمُجَاهِدُ مَنْ جَاهَدَ نَفْسَهُ**

---

(١) «جامع الأحاديث»، للسيوطي (٣٨/ ٣٣٨).
(٢) «حلية الأولياء» (٢/ ١٤٦).
(٣) «جامع بيان العلم وفضله» (١/ ٥١٠).
(٤) «الحجة في بيان المحجة» (١/ ١٣٣، وما بعدها).
(٥) «صيد الخاطر» (ص١٢٧).

فِي ذَاتِ اللهِ»»[١].

وقال ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ: «علّق سبحانه الهداية بالجهاد؛ فأكمل الناس هداية أعظمهم جهادًا. وأفرض الجهاد جهاد النفس، وجهاد الهوى، وجهاد الشيطان، وجهاد الدنيا؛ فمن جاهد هذه الأربعة في الله: هداه الله سبل رضاه الموصلة إلى جنّته، ومن ترك الجهاد: فاته من الهدى بحسب ما عطّل من الجهاد»[٢].

وقال ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ: «طالب النفوذ إلى الله والدار الآخرة بل وإلى كل علم وصناعة.... يحتاج أن يكون... عارفًا بطريق الوصول إليه والطرق القواطع عنه»[٣].

وقال أيضًا رَحِمَهُ اللَّهُ: «ولولا القواطع والآفات لكانت الطريق معمورة بالسالكين»[٤].

---

(١) «الفَتاوَى» (١٠/ ٦٣٥).

(٢) «الفوائد» (ص٥٩).

(٣) «الفوائد» (ص١٩١).

(٤) «طريق الهجرتين» (١/ ٨٣).

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: «**فصل**: الوصول إلى المطلوب موقوف على: هجر العوائد، وقطع العوائق والعلائق.

فالعوائد: السكون إلى الدَّعة والراحة، وما أَلفه النَّاس واعتادوه من الرسوم والأوضاع التي جعلوها بمنزلة الشرع المتبع، بل هي عندهم أعظم من الشرع؛ فإنهم ينكرون على من خرج عنها وخالفها ما لا ينكرون على من خالف صريح الشرع، وربما كفروه أو بدعوه وضللوه أو هجروه وعاقبوه لمخالفة تلك الرسوم، وأماتوا لها «السنن»، ونصبوها أندادًا للرسول يوالون عليها ويعادون؛ فالمعروف عندهم ما وافقها، والمنكر ما خالفها، وهذه الأوضاع والرسوم قد استولت على طوائف بني آدم من الملوك والولاة والفقهاء والصوفية والفقراء والمطوعين والعامة، فربي فيها الصغير، ونشأ عليها الكبير، واتخذت سننًا؛ بل هي أعظم عند أصحابها من السنن، الواقف معها محبوس، والمتقيد بها منقطع؛ عم بها المصاب، وهجر لأجلها السُّنَّة والكتاب؛ من استنصر بها فهو =

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسير قول الله تعالى: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾﴾ [الحديد: ١٧]: «فيه إشارة إلى أن الله يُلين القلوب بعد قَسْوتها، ويَهْدي الحيارى بعد ضلَّتِها، ويُفرج الكروب بعد شدَّتها؛ فكما يحيي الأرض الميتة المُجْدِبة الهامدة بالغيث الهَتَّان الوابل، كذلك يهدي القلوب القاسية ببراهين القرآن والدلائل، ويُولج إليها النور بعد أن كانت مقفلة لا يصل إليها الواصل»[١].

وقال ابن سعدي رَحِمَهُ اللَّهُ: «أهل السُّنَّة والجماعة يعتقدون ويعلمون أن لا طريق إلى الله وإلى كرامته إلا بالعلم النافع، والعمل الصالح. والعلم

= عند الله مخذول، ومن اقتدى بها ـ دون كتاب الله وسُنَّة رسوله ـ فهو عند الله غير مقبول، وهذه أعظم الحجب والموانع بين العبد وبين النفوذ إلى الله ورسوله.

فصل: وأما العوائق: فهي أنواع المخالفات ـ ظاهرها وباطنها ـ؛ فإنها تعوق القلب عن سيره إلى الله، وتقطع عليه طريقه.

وهي ثلاثة أمور: شرك، وبدعة، ومعصية. فيزول عائق الشرك بتجريد التوحيد، وعائق البدعة بتحقيق السُّنَّة، وعائق المعصية بتصحيح التوبة. وهذه العوائق لا تتبين للعبد حتى يأخذ في أهبة السفر، ويتحقق بالسير إلى الله والدار والآخرة؛ فحينئذ تظهر له هذه العوائق ويحس بتعويقها له بحسب قوة سيره وتجرده للسفر، وإلا فما دام قاعدًا لا تظهر له كوامنها وقواطعها.

فصل: وأما العلائق: فهي كل ما تعلق به القلب دون الله ورسوله من ملاذّ الدنيا وشهواتها ورئاساتها وصحبة الناس والتعلق بهم، ولا سبيل له إلى قطع هذه الأمور الثلاثة ورفضها إلا بقوة التعلق بالمطلب الأعلى، وإلا فقطعها عليه بدون تعلقه بمطلوبه ممتنع؛ فإن النفس لا تترك مألوفها ومحبوبها إلا لمحبوب هو أحب إليها منه وآثر عندها منه، وكلما قوي تعلقه بمطلوبه ضعف تعلقه بغيره وكذا بالعكس، والتعلق بالمطلوب هو شدة الرغبة فيه، وذلك على قدر معرفته به وشرفه وفضله على ما سواه». «الفوائد» (ص٢٢٥).

(١) «تفسير ابن كثير» (٨/ ٢١).

النافع: هو ما جاء به الرسول من الكتاب والسُّنَّة؛ فيجتهدون في معرفة معانيها، والتفقه فيها أصولًا وفروعًا، ويسلكون جميع الطرق المعينة على ذلك»[١].

فيه فوائد

الأولى: طلب العلم النافع من أكبر أسباب تحصيل التزكية المحمودة.

الثانية: أَثر دراسة كتب التوحيد والعقيدة الصحيحة على تزكية النفس وصلاحها.

الثالثة: مجاهدة النفس هي السبيل إلى تحصيل التزكية المشروعة.

الرابعة: تلاوة القرآن وتدبره من أسباب تحصيل التزكية المشروعة.

الخامسة: أهمية الدعاء، والاستعانة بالله في صلاح النفس وتزكيتها.

السادسة: من الأسباب المفيدة في تزكية النفس: النظر في سيرة النبي ﷺ وأصحابه.

السابعة: حاجة العبد إلى النظر في سِيَر السَّلَف ومعرفة أحوالهم.

الثامنة: ثمرة الحذر والبعد عن خطوات الشيطان.

التاسعة: عدم اليأس من صلاح النفس.

العاشرة: أهمية محاسبة النفس والصدق معها.

الحادية عشرة: التزكية المحمودة لا تتم إلا ببذل الأسباب المشروعة، والابتعاد عن المعوقات والآفات المذمومة.

---

(١) «الفَتاوَى» السعدية (ص٢٠، وما بعدها).

١١

باب ما جاء في محاسبة النفس

قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ [الحشر: ١٨].

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «حَاسِبُوا أَنْفُسَكُمْ قَبْلَ أَنْ تُحَاسَبُوا، وَزِنُوا أَنْفُسَكُمْ قَبْلَ أَنْ تُوزَنُوا؛ فَإِنَّهُ أَهْوَنُ عَلَيْكُمْ فِي الْحِسَابِ غَدًا أَنْ تُحَاسِبُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ، وَتَزَيَّنُوا لِلْعَرْضِ الْأَكْبَرِ ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾﴾»(١).

وقال ميمون بن مهران رحمه الله: «لا يكون الرجل تقيًّا حتى يكون لنفسه أشدَّ محاسبة من الشريك لشريكه، وحتى يعلم من أين ملْبَسه ومطعَمه ومشرَبه»(٢).

وقال الحسن رحمه الله: «إنّ العبد لا يزال بخير ما كان له واعظ من نفسه، وكانت المحاسبة من همَّته»(٣).

وقال يونس بن عبيد رحمه الله: «إني لأجد مائة خصلة من خصال الخير، ما أعلم أن في نفسي منها واحدة»(٤).

وقال مطرف رحمه الله: «لولا ما أعلم من نفسي، لَقَلَيْت الناس»(٥).

وقال أيوب السختياني رحمه الله: «إذا ذُكِر الصالحون، كنت عنهم بمعزل»(٦).

وقال ابن القيِّم رحمه الله: «وجماع ذلك: أن يحاسب نفسه أولًا على

(١) رواه الترمذي (٤/ ٢٤٥٩).
(٢) سير أعلام النبلاء (٥/ ٧٤).
(٣) حلية الأولياء (٢/ ١٤٦).
(٤) «إغاثة اللهفان» (١/ ٨٤).
(٥) «إغاثة اللهفان» (١/ ٨٤).
(٦) «إغاثة اللهفان» (١/ ٨٤).

الفرائض، فإن تذكر فيها نقصًا تداركه، إما بقضاء أو إصلاح. ثم يحاسبها على المناهي، فإن عرف أنه ارتكب منها شيئًا تداركه بالتوبة والاستغفار والحسنات الماحية. ثم يحاسب نفسه على الغفلة، فإن كان قد غفل عما خُلق له تداركه بالذِّكْر والإقبال على الله تعالى. ثمّ يحاسبها بما تكلّم به، أو مشتْ إليه رجلاه، أو بطشتْ يداه، أو سمعته أُذناه، ماذا أَرادَتْ بهذا؟ ولِمن فَعَلتْه؟ وعلى أي وجه فَعَلتْه؟ ويعلم أنه لا بد أن يُنْشَر لكلّ حَرَكة وكَلمة منه ديوانان: ديوان لِمن فعلْتَه؟ وكيف فعلْتَه؟ فالأول سؤال عن الإخلاص، والثاني سؤال عن المتابعة، قال تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾ [الحجر: ٩٢، ٩٣]»[١].

(١) «إغاثة اللهفان» (١/ ٨٣).
وهذه صورة من صور المحاسبة في حوار مع النفس الأمارة بالسوء يصورها الشيخ السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فيقول: «ويحك يا نفس! إذا أردت أن تعصي الله فلا تستعيني بنعمه على معاصيه؛ فإن المعصية لا تتأتى إلا من القوة والعافية، ومن الذي أعطاها؟ ولا تتحرك إلا من توالي الشبع، ومن الذي يسّر الأقوات وآتاها؟ ولا تكون في العادة إلا بخلوة من الخلق، ومن الذي أسبل عليك حلمه وستره؟ ولا تقع إلا بنظره إليك؛ فإياك أن تستخفّي باطّلاعه وعلمه.
أما تعلمين يا نفس أن من جاهد نفسه عن المعاصي وألزمها الخير، فقد سعى في سعادتها وقد أفلح من زكاها، وأن من أطاع نفسه على ما تريد من الشر، فقد تسبب لهلاكها ودساها؟!
ويحك يا نفس! كم بيني وبينك في المعاملة؛ أنت تريدين هلاكي، وأنا أسعى لك بالنجاة؛ وأنت تحيلين علي بكل طريق يوقع في المضار والشرور، وأنا أجتهد لك في كل أمر مآله الخير والراحة والسرور؛ فهلمي يا نفس إلى صلح شريف؛ يحتفظ كل منا على ما له من المرادات والمقاصد، ونتفق على أمر يحصل به للطرفين أصناف المصالح والفوائد. دعيني يا نفس أمضي بإيماني متقدمًا إلى الخيرات، متجرًا فيه لتحصيل المكاسب والبركات. دعيني أتوسل بإيماني إلى من أعطاه أن يتمه بتمام الهداية، وكمال الرحمة، وأكمل ما نقص منه؛ لعل الله أن يتم علَيَّ وعليك النعمة. ولئن تركتني وشأني لم تعترضي علَيَّ =

فيه فوائد

الأولى: أهمية محاسبة النفس؛ كي يتعرّف العبد على عيوبها ويعالجها.

الثانية: فضل محاسبة النفس.

الثالثة: لا يمكن للعبد أن يصلح نفسه وينجيها إلّا بمحاسبة نفسه.

الرابعة: العبد لا يزال بخير ما دام يحاسب نفسه.

الخامسة: محاسبة النفس من صفات المتقين.

السادسة: صِدْق السَّلَف مع أنفسهم في المحاسبة.

السابعة: لا ينبغي للعبد أن يُحْسِن الظنّ بنفسه، ويُغَرِّر بها.

الثامنة: مراتب محاسبة النفس.

۞ ۞ ۞

= بوجه من الوجوه؛ لأعطينك كل ما تطلبينه من المباحات، وكل ما تؤمله النفوس وترجوه. ولئن تركتني وشأني؛ لأوصلنك إلى خيرات ولذات طالما تمناها المتمنون، وطالما مات بحسرتها قبل إدراكها الباطلون.

يا نفس، أما تحبين أن تُنقلي من هذا الوصف الدنيء إلى أوصاف النفوس المطمئنة التي اطمأنت إلى ربها، وإلى ذكره، واطمأنت إلى عطائه ومنعه، واطمأنت في جميع تدبيره، واطمأنت إلى توحيده والإيمان به حتى سلاها عن كل المحبوبات، واطمأنت إلى وعده حتى كانت هي الحاملة للعبد على الطاعات المزعجة له عن المعاصي والمخالفات. فلا يزال المؤمن مع نفسه في محاسبة ومنافرة حتى تنقاد لداعي الإيمان، وتكون ممن يقال لها عند الانتقال من هذه الدار: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾﴾ [الفجر: ٢٧ ـ ٣٠]». «الفتاوى السعدية» (٤٣).

الفصل الثالث

أهمية إصلاح القلب، وبيان بعض أعمال القلوب

١

باب أهمية إصلاح القلب، والعناية به

قال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ [الشعراء: ٨٨، ٨٩].

وقال النبي ﷺ: «**أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ**»(١).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ الله تَعَالَى لَا يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ**»(٢).

وقال النبي ﷺ: «**تُعْرَضُ الْفِتَنُ عَلَى الْقُلُوبِ كَالْحَصِيرِ عُودًا عُودًا، فَأَيُّ قَلْبٍ أُشْرِبَهَا، نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ، وَأَيُّ قَلْبٍ أَنْكَرَهَا، نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ بَيْضَاءُ، حَتَّى تَصِيرَ عَلَى قَلْبَيْنِ: عَلَى أَبْيَضَ مِثْلِ الصَّفَا فَلَا تَضُرُّهُ فِتْنَةٌ مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ، وَالْآخَرُ أَسْوَدُ مُرْبَادًّا كَالْكُوزِ، مُجَخِّيًا لَا يَعْرِفُ مَعْرُوفًا، وَلَا يُنْكِرُ مُنْكَرًا، إِلَّا مَا أُشْرِبَ مِنْ هَوَاهُ**»(٣).

وقال أنس رضي الله عنه كان رسول الله ﷺ يكثر أن يقول: «**يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ**». فقلت: يا رسول الله، آمنا بك وبما جئت به، فهل تخاف علينا؟ قال: «**نَعَمْ، إِنَّ الْقُلُوبَ بَيْنَ أُصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الله يُقَلِّبُهَا كَيْفَ يَشَاءُ**»(٤).

وقال أبو هريرة رضي الله عنه: «إِنَّ الْقَلْبَ مَلِكٌ وَالْأَعْضَاءَ جُنُودُهُ، فَإِنْ طَابَ الْمَلِكُ طَابَتْ جُنُودُهُ، وَإِذَا خَبُثَ الْمَلِكُ خَبُثَتْ جُنُودُهُ»(٥).

---

(١) رواه مسلم (٣/ ١٥٩٩).
(٢) رواه مسلم (٤/ ٢٥٦٤).
(٣) رواه مسلم (١٤٤).
(٤) رواه الترمذي (٢١٤٠).
(٥) «الفَتَاوَى» (٧/ ٦٤٤).

وقال منذر رَحِمَهُ اللَّهُ: «جاء ناس من الدَّهَاقين إلى عبد الله بن مسعود، فَتعجَّب الناس من غِلَظ رقابهم وصحتهم. قال: فقال عبد الله: إنكم ترون الكافر: من أصح الناس جسمًا، وأمرضهم قلبًا، وتلقون المؤمن من أصح الناس قلبًا، وأمرضهم جسمًا، وأيم الله، لو مَرِضت قلوبكم، وصحت أجسامكم، لكنتم أهون على الله من الجعلان»[١].

وعن سفيان بن دينار رَحِمَهُ اللَّهُ قال: «سألت ماهان الحنفي: ما كانت أعمال القوم؟ قال: كانت أعمالهم قليلة، وكانت قلوبهم سليمة»[٢].

وقال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: «فأصل الإيمان في القلب، وهو: قول القلب وعمله، وهو إقرار بالتصديق والحب والانقياد، وما كان في القلب فلا بد أن يظهر موجبه ومقتضاه على الجوارح، وإذا لم يعمل بموجبه ومقتضاه دلّ على عدمه أو ضعفه؛ ولهذا كانت الأعمال الظاهرة من موجب إيمان القلب ومقتضاه، وهي تصديق لما في القلب ودليل عليه وشاهد له، وهي شعبة من مجموع الإيمان المطلق وبعض له؛ لكن ما في القلب هو الأصل لما على الجوارح»[٣].

وقال ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ: «ولما كان القلب لهذه الأعضاء كالملك المتصرف في الجنود، الذي تصدر كلّها عن أمره، ويستعملها فيما شاء، فكلّها تحت عبوديته وقهره، وتَكتسب منه الاستقامة والزيغ، وتَتبعه فيما يَعقده من العزم أو يحلّه... كان الاهتمام بتصحيحه وتسديده أولى ما اعتمد عليه السالكون، والنظر في أمراضه وعلاجها أهم ما تَنسك به الناسكون»[٤].

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: «فمعرفة أحكام القلوب أهم من معرفة أحكام الجوارح، إذ هي أصلها، وأحكام الجوارح متفرعة عليها»[٥].

---

(١) «حلية الأولياء» (١/ ١٣٥).
(٢) «حلية الأولياء» (٤/ ٣٦٥).
(٣) «الفَتاوَى» (٧/ ٦٤٤).
(٤) «إغاثة اللهفان» (١/ ٥).
(٥) «بدائع الفوائد» (٣/ ١٨٧).

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ في قول الله تعالى: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴿٤﴾﴾ [المدثر: ٤]: «وجمهور المفسرين من السَّلَف ومن بعدهم على أن المراد بالثيات ههنا القلب، والمراد بالطهارة إصلاح الأعمال والأخلاق»[(١)].

وقال ابن رجب رَحِمَهُ اللَّهُ: «سلامة الصدور من الرياء والغِلِّ والحسد والغش والحقد، وتطهيرها من ذلك: أفضل من التطوّع بأعمال الجوارح. وكثرة أعمال الجوارح مع تَدْنيس القلب بشيء من هذه الأوضار لا يزكو؛ وهو كزرع في أرض كثيرة الآفات لا يكاد يسلم ما ينبت فيها»[(٢)].

فيه فوائد

الأولى: مكانة القلب في الكتاب والسُّنَّة، والأمر بحفظه وإصلاحه.

الثانية: أهمية السعي في صلاح القلب؛ لأنه بصلاحه تصلح بقية الأعضاء.

الثالثة: قول القلب وأعماله وأعمال الجوارح من الإيمان عند أهل السُّنَّة والجماعة.

الرابعة: صلة أقوال القلوب وأعمالها بأعمال الجوارح.

الخامسة: أهل السُّنَّة والجماعة جمعوا بين عبودية الباطن وعبودية الظاهر[(٣)].

---

(١) «إغاثة اللهفان» (١/ ٥٢). (٢) «شرح حديث شداد» (١/ ٣٨٤).

(٣) قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في (بيان الصلة بين أعمال القلوب والجوارح): «ومن تأمّل الشريعة في مصادرها ومواردها، علم ارتباط أعمال الجوارح بأعمال القلوب، وأنها لا تنفع بدونها، وأن أعمال القلوب أفرض على العبد من أعمال الجوارح، وهل يُميَّز المؤمن عن المنافق إلا بما في قلب كل واحد منهما من الأعمال التي ميزت بينهما؟ وهل يمكن أحد الدخول في الإسلام إلا بعمل قلبه قبل جوارحه؟ وعبودية القلب أعظم من عبودية الجوارح وأكثر وأدوم، فهي واجبة في كل وقت، ولهذا كان الإيمان واجب القلب على الدوام، والإسلام =

السادسة: النجاة مضمونة يوم القيامة لأهل القلوب السليمة لا لغيرهم.

السابعة: سلامة قلوب السَّلَف.

الثامنة: العبد لا ينتفع بأعمال الجوارح مع فساد القلب.

التاسعة: سلامة القلب من الرياء والغل والحسد ـ وسائر أمراضه ـ أفضل من نوافل التطوُّع.

العاشرة: أمراض القلوب أشدّ من أمراض الأبدان، وهي أولى بالعلاج من أمراض البدن.

الحادية عشرة: القلب لا يصلح ويزكو إلا بتطهيره مما يُدنِّسه، ثم تَحلِيته بما يُحْييه.

الثانية عشرة: أهمية تعاهد القلب بالأعمال المشروعة، والمحافظة عليه من الفتن والمؤثرات.

الثالثة عشرة: أهمية الدعاء بالثبات على الحق إلى الممات.

الرابعة عشرة: مدار الثواب والعقاب في الدار الآخرة على القلب، وما يتفرّع عنه لا على صورة الإنسان أو جاهه أو ماله.

الخامسة عشرة: أعمال القلوب: منها ما هو واجب، ومنها ما هو مستحبّ.

۞ ۞ ۞

= واجب الجوارح في بعض الأحيان، فمركب الإيمان القلب، ومركب الإسلام الجوارح؛ فهذه كلمات مختصرة في هذه المسألة لو بسطت لقام منها سفر ضخم، وإنما أشير إليها إشارة». بدائع الفوائد (٣/ ١٩٣).

٢

باب ما جاء في أقسام القلوب

قال تعالى: ﴿لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾﴾ [الحج: ٥٣، ٥٤].

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**الْقُلُوبُ أَرْبَعَةٌ: قَلْبٌ أَجْرَدُ فِيهِ مِثْلُ السِّرَاجِ يَزْهَرُ، وَقَلْبٌ أَغْلَفُ مَرْبُوطٌ عَلَى غِلَافِهِ، وَقَلْبٌ مَنْكُوسٌ، وَقَلْبٌ مُصْفَحٌ. فَأَمَّا الْقَلْبُ الْأَجْرَدُ: فَقَلْبُ الْمُؤْمِنِ، سِرَاجُهُ فِيهِ نُورُهُ. وَأَمَّا الْقَلْبُ الْأَغْلَفُ: فَقَلْبُ الْكَافِرِ، وَأَمَّا الْقَلْبُ الْمَنْكُوسُ: فَقَلْبُ الْمُنَافِقِ الْخَالِصِ، عَرَفَ ثُمَّ أَنْكَرَ. وَأَمَّا الْقَلْبُ الْمُصْفَحُ: فَقَلْبٌ فِيهِ إِيمَانٌ وَنِفَاقٌ، فَمَثَلُ الْإِيمَانِ فِيهِ كَمَثَلِ الْبَقْلَةِ يَمُدُّهَا الْمَاءُ الطَّيِّبُ، وَمَثَلُ النِّفَاقِ فِيهِ كَمَثَلِ الْقُرْحَةِ يَمُدُّهَا الْقَيْحُ وَالدَّمُ، فَأَيُّ الْمَدَّتَيْنِ غَلَبَتْ عَلَى الْأُخْرَى غَلَبَتْ عَلَيْهِ**»[١].

---

(١) رواه الإمام أحمد (١٧/ ١١٢٩).

قال ابن القيم رحمه الله: «**فقوله: «قلب أجرد»**؛ أي: متجرد مما سوى الله ورسوله، فقد تجرد وسَلِم مما سوى الحق. و«**فيه سراج يزهر**» وهو مصباح الإيمان؛ فأشار بتجرده إلى سلامته من شبهات الباطل وشهوات الغي، وبحصول السراج فيه إلى إشراقه واستنارته بنور العلم والإيمان.

وأشار بـ«القلب الأغلف» إلى قلب الكافر؛ لأنه داخل في غلافه وغشائه؛ فلا يصل إليه نور العلم والإيمان، كما قال تعالى حاكيًا عن اليهود: ﴿وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ﴾ [البقرة: ٨٨]. وهو جمع أغلف، وهو الداخل في غلافه، كقُلف وأقلف، وهذه الغشاوة هي الأكنّة التي ضربها الله على قلوبهم، عقوبة لهم على =

وقال ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ: «**القلوب ثلاثة:**

١ ـ **قلب قاسٍ**: وهو اليابس الصلب الذي لا يقبل صورة الحق، ولا تنطبع فيه.

٢ ـ **وضدّه القلب اللين المتماسك**: وهو السليم من المرض الذي يقبل صورة الحق بلينه، ويحفظه بتماسكه.

٣ ـ **بخلاف القلب المريض**: الذي لا يحفظ ما ينطبع فيه؛ لميعانه ورخاوته؛ كالمائع الذي إذا طبعت فيه الشيء، قبل صورته بما فيه من اللين، ولكن رخاوته تمنعه من حفظها.

فخير القلوب القلب الصلب الصافي اللين، فهو يرى الحق بصفائه، ويقبله بلينه، ويحفظه بصلابته»[١].

= ردّ الحق والتكبّر عن قبوله. فهي أكنّة على القلوب ووقر في الأسماع، وعمى في الأبصار، وهي الحجاب المستور عن العيون في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ [الإسراء: ٤٥ ـ ٤٦]. فإذا ذكر لهذه القلوب تجريد التوحيد وتجريد المتابعة، ولّى أصحابها على أدبارهم نفورًا.

وأشار بـ«القلب المنكوس» ـ وهو المكبوب ـ إلى قلب المنافق، كما قال تعالى: ﴿فَمَا لَكُمْ فِى ٱلْمُنَـٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓا۟﴾ [النساء: ٨٨]؛ أي: نكسهم وردّهم في الباطل الذي كانوا فيه، بسبب كسبهم وأعمالهم الباطلة. وهذا شر القلوب وأخبثها؛ فإنه يعتقد الباطل حقًّا ويوالي أصحابه، والحق باطلًا ويعادي أهله؛ فالله المستعان. وأشار بـ «القلب الذي له مادتان» إلى القلب الذي لم يتمكن فيه الإيمان ولم يزهر فيه سراجه، حيث لم يتجرد للحق المحض الذي بعث الله به رسوله، بل فيه مادة منه ومادة من خلافه، فتارة يكون للكفر أقرب منه للإيمان، وتارة يكون للإيمان أقرب منه للكفر، والحكم للغالب وإليه يرجع». «إغاثة اللهفان» (١/ ١٢).

(١) «شفاء العليل» (ص١٠٥).

فيه فوائد

الأولى: أقسام القلوب في القرآن والسُّنَّة ثلاثة: القلب السليم، والقلب المريض، والقلب الميت.

الثانية: معرفة القلب الأجرد: وهو قلب المؤمن؛ تجرد مما سوى الله ورسوله، ولم يتقيد بغير الحق.

الثالثة: معرفة القلب الأغلف: وهو قلب الكافر؛ الذي لم ينقد لربه.

الرابعة: معرفة القلب المريض: وهو القلب الذي فيه خير وشر.

الخامسة: أصح القلوب: القلب الذي يقبل صورة الحق، وتنطبع فيه. وضده: القلب القاسي. وأما المريض، فهو بينهما، وهو لما غلب عليه.

السادسة: الفقه بالقرآن والسُّنَّة يُغني عن غيرهما من آراء البشر وعقولهم.

۞ ۞ ۞

٣

باب القلب السليم وعلاماته

قال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ [الشعراء: ٨٨، ٨٩].

وقال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [الأنبياء: ٩٠].

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ [الحديد: ١٦].

وقال تعالى: ﴿وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾﴾ [ق: ٣٣].

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾﴾ [الانفال: ٢].

وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾﴾ [الحج: ٣٢].

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: (قيل لرسول الله ﷺ: أَيُّ النَّاسِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: «**كُلُّ مَخْمُومِ الْقَلْبِ، صَدُوقِ اللِّسَانِ**». قَالُوا: صَدُوقُ اللِّسَانِ نَعْرِفُهُ، فَمَا مَخْمُومُ الْقَلْبِ؟ قَالَ: «**هُوَ النَّقِيُّ التَّقِيُّ، لَا إِثْمَ عَلَيْهِ، وَلَا بَغْيَ وَلَا غِلَّ وَلَا حَسَدَ**»)[1].

وقال النبي ﷺ لشداد بن أوس رضي الله عنه: «**إِذَا كَنَزَ النَّاسُ الدَّنَانِيرَ وَالدَّرَاهِمَ، فَاكْنِزْ هَؤُلَاءِ الْكَلِمَاتِ...**» ومنها: «**وَأَسْأَلُكَ قَلْبًا سَلِيمًا**»[2].

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٤٢١٦)، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٩٤٨).
(٢) رواه أحمد (١٧١٥٥).

وقال ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ: «والقلب السليم هو الذي سَلِم من الشرك والغِلّ والحِقْدِ والحسَد والشّح والكِبْر وحبّ الدنيا والرياسة، فسَلِم من كل آفة تُبعده عن الله، وسلِم من كل شبْهة تعارض خَبره، ومن كل شهوة تُعارض أَمره، وسلِم من كل إرادة تُزاحم مُراده، وسلِم من كل قاطع يَقطع عن الله، فهذا القلب السليم في جنّة مُعجلة في الدنيا، وفي جنّة في البرزخ، وفي جنّة يوم المعاد، ولا تتم له سلامته مطلقًا حتى يَسلم من خمسة أشياء: من شرك يُناقض التوحيد، وبدعة تُخالف السُّنَّة، وشهوة تُخالف الأمر، وغفلة تُناقض الذِّكْر، وهوى يُناقض التجريد والإخلاص. وهذه الخمسة حُجب عن الله، وتحت كل واحد منها أنواع كثيرة، تتضمن أفرادًا لا تَنحصر»(١).

وقال الشيخ عبد الرحمٰن السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ: «القلب السليم، معناه: الذي سَلِم من الشرك والشك، ومحبة الشر، والإصرار على البدعة والذنوب، ويلزم من سلامته مما ذكر اتصافه بأضدادها ـ من الإخلاص، والعلم، واليقين، ومحبة الخير، وتزيينه في قلبه ـ، وأن تكون إرادته ومحبته تابعة لمحبة الله، وهواه تابعًا لما جاء عن الله»(٢).

فيه فوائد

الأولى: معرفة حقيقة القلب السليم في الكتاب والسُّنَّة، وثوابه العظيم.

الثانية: معرفة علامات القلب السليم، والترغيب في الاتصاف بها.

الثالثة: معرفة مفسدات القلوب والحجب التي تحول بين القلب، وبين الوصول إلى الرب.

الرابعة: القلب لا يكون سليمًا حتى يسلم من جميع أمراضه وآفاته.

---

(١) «الداء والدواء» (١/ ١٢١).

(٢) من تفسيره (ص٥٩٣).

الخامسة: العبادات لا تظهر آثارها على العبد وتَبِين لذّاتها، إلا حينما يكون القلب سليمًا.

السادسة: العبرة بالبينات والبراهين، لا بالدعاوى والأماني.

السابعة: أثر سلامة القلب في معاملة الناس.

الثامنة: أهل القلوب السليمة من أفضل الناس في الدنيا والآخرة.

التاسعة: الحذر من الشرك والبدع وسائر الذنوب والمعاصي.

العاشرة: كمال نصح أهل السُّنَّة والجماعة، وذلك لتحذيرهم من أعظم مفسدات القلوب والأخلاق؛ من الشرك والبدع وسائر الفواحش والمنكرات.

٤

باب القلب الميت وعلاماته

قال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢].

وقال تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً﴾ [المائدة: ١٣].

وقال تعالى: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ [البقرة: ٧].

وقال تعالى: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۝ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنبياء: ٢ ـ ٣].

وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ﴾ [آل عمران: ٧].

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص، عن النبي ﷺ قال: «**ارْحَمُوا تُرْحَمُوا، وَاغْفِرُوا يَغْفِرِ اللهُ لَكُمْ، وَيْلٌ لِأَقْمَاعِ الْقَوْلِ، وَيْلٌ لِلْمُصِرِّينَ، الَّذِينَ يُصِرُّونَ عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ**»(١).

وقال ابن القيِّم رَحِمَهُ اللهُ: «القلب الميت الذي لا حياة به، فهو لا يعرف ربّه، ولا يَعبده بأمره وما يحبّه ويرضاه؛ بل هو واقف مع شهواته ولذّاته، ولو كان فيها سخط ربّه وغضبه؛ فهو لا يبالي إذا فاز بشهوته وحظه، رضي ربه أم سخط؛ فهو متعبّد لغير الله: حبًّا، وخوفًا، ورجاءً، ورضًا، وسخطًا، وتعظيمًا، وذلًّا؛ إن أحبَّ أحبّ لهواه، وإن

(١) رواه البخاري في «الأدب المفرد» (٣٨٠)، وصححه الألباني.

أبغضَ أبغضَ لهواه، وإن مَنع مَنع لهواه؛ فهواه آثر عنده وأحبّ إليه من رضا مولاه؛ فالهوى إمامُه، والشهوة قائُده، والجهل سائقُه، والغفلة مَرْكبه؛ فهو بالفكر في تحصيل أغراضه الدنيوية مغمور، وبِسَكْرة الهوى وحبّ العاجلة مخمور؛ ينادى إلى الله وإلى الدار الآخرة من مكان بعيد، ولا يستجيب للناصح، ويتّبع كل شيطان مريد؛ الدنيا تسخطه وترضيه، والهوى يصمّه عما سوى الباطل ويُعميه، فمخالطة صاحب هذا القلب سُقْم، ومعاشرته سُمّ، ومجالسته هلاك»(١).

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن حقيقة القلب الميت: «هو القلب الخالي من الإيمان وجميع الخير، وهو قلب الكافر والمنافق، فذلك قلب مظلم قد استراح الشيطان من إلقاء الوساوس إليه؛ لأنه قد اتخذه بيتًا ووطنًا، وتحكّم فيه بما يريد، وتمكّن منه غاية التمكُّن»(٢).

فيه فوائد

الأولى: حقيقة القلب الميت.

الثانية: معرفة علامات القلب الميت في القرآن، ومن أسوئها: نقض الميثاق الذي بيْنه وبين الله، والميثاق الذي بيْنه وبين الناس.

الثالثة: الوعيد الشديد لأهل القلوب الميتة القاسية؛ وذلك لِشَنَاعة صفاتهم.

الرابعة: الحذر من الاتصاف بصفات أهل القلوب الميتة القاسية.

الخامسة: معرفة الربّ والإيمان بكتابه أساس حياة القلوب.

السادسة: الوحي هو المادة لإحياء القلب لا غيره.

❁ ❁ ❁

(١) «إغاثة اللهفان» (١/ ٩).

(٢) «الوابل الصيب» (ص٤٠).

٥

باب القلب المريض وعلاماته

قال تعالى: ﴿فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا﴾ [البقرة: ١٠].

وقال تعالى: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ﴾ [الأحزاب: ٣٢].

وقال ابن القيِّم رَحِمَهُ اللهُ ـ في بيان وصف القلب المريض ـ: «قلب له حياة وبه عِلّة؛ **فله مادتان تَمدّه** ـ هذه مرة، وهذه أخرى ـ، وهو لما غَلب عليه منها؛ ففيه من محبة الله تعالى، والإيمان به، والإخلاص له، والتوكّل عليه: ما هو مادة حياته. وفيه من محبّة الشهوات، وإيثارها، والحرص على تحصيلها، والحسد، والكبْر، والعُجب، وحبّ العُلُوِّ، والفساد في الأرض بالرياسة: ما هو مادة هلاكه وعطبه.

وهو ممتحن بين داعيين: داعٍ يدعوه إلى الله ورسوله والدار الآخرة، وداعٍ يدعوه إلى العاجلة؛ وهو إنما يجيب أقربهما منه بابًا، وأدناهما إليه جوارًا.

فهذا القلب المريض قلب مفتون، فإمّا إلى السلامة أدنى أو إلى العطَب أدنى؛ فإن غلب عليه المرض الْتحق بالقلب الميت القاسي، وإن غلبت عليه الصحة التحق بالقلب الصحيح السليم»[١].

وقال رَحِمَهُ اللهُ: «**ومرضه هو**: فساد يحصل له، يفسد به تصوره للحق وإرادته له، فلا يرى الحقّ حقًّا، أو يراه على خلاف ما هو عليه، أو يفسد إدراكه له، وتفسد به إرادته له، فيبغض الحقّ النافع، أو يحبّ الباطل الضار، أو يجتمعان له وهو الغالب.

(١) «إغاثة اللهفان» (١/ ٩).

وبهذا يفسّر المرض الذي يَعرض له تارة بالشّك والرّيب ـ كما قال مجاهد وقتادة في قوله تعالى: ﴿فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾؛ أي: شك ـ، وتارة بشهوة الزنا ـ كما فسر به قوله تعالى: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ﴾ [الأحزاب: ٣٢] ـ فالأول: مرض الشبهة، والثاني: مرض الشهوة.

ولما كان البدن المريض يُؤذيه ما لا يُؤذي الصحيح من يسير الحرِّ والبرد والحركة ونحو ذلك، فكذلك القلب إذا كان فيه مرض آذاه أدنى شيء من الشبهة أو الشهوة؛ حيث لا يَقْوى على دفعهما إذا وردا عليه.

وبالجملة: فإذا حصل للمريض مثل مرضه: زاد مرضه وضعفت قوته وترامى إلى التلف، ما لم يتدارك ذلك؛ بأن يحصل له ما يقوي قوته ويزيل مرضه»(١).

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ في **علامات القلب المريض:** «إنه لا تؤلمه جراحات القبائح، ولا يوجعه جهله بالحق؛ فإن القلب إذا كان فيه حياة، تألّم بورود القبح عليه، وتألم بجهله بالحق بحسب حياته.

ومن علامات أمراض القلوب: عُدُولُها عن الأغذية النافعة الموافقة لها إلى الأغذية الضارة، وعدولها عن دوائها النافع إلى دوائها الضار؛ **فهنا أربعة أمور:** غذاء نافع، ودواء شاف، وغذاء ضار، ودواء مُهلك؛ فالقلب الصحيح يُؤثر النافع الشافي على الضار المؤذي، والقلب المريض بضد ذلك. **وأنفع الأغذية:** غذاء الإيمان، **وأنفع الأدوية:** دواء القرآن، وكل منها فيه الغذاء والدواء»(٢).

---

(١) «إغاثة اللهفان» (١/ ١٧).

(٢) انظر: «إغاثة اللهفان» (١/ ٦٨ ـ ٧٠).

فيه فوائد

الأولى: حقيقة القلب المريض.

الثانية: علامات القلب المريض، والحذر من الوقوع فيها.

الثالثة: سبب أمراض القلوب، إما شُبْهة، وإما شهوة.

الرابعة: القلب إذا مَرِض فسد تصوّره للحق وإرادته له.

الخامسة: القلب إذا مَرِض تؤثِّر فيه أدنى شبهة أو شهوة.

السادسة: من علامات القلب المريض: أنه لا يتألم بورود القبائح عليه ـ الذنوب والمعاصي، ـ ولا جهله الحق، أو الإعراض عنه.

السابعة: من علامات القلب المريض: عدوله عن الأغذية النافعة، والأدوية الشافية كالإيمان والقرآن.

الثامنة: قلوب العصاة وأهل الشهوات لا تصح من عِللها إلا بالإيمان والقرآن لا بغيرهما.

۞ ۞ ۞

٦

باب ما جاء في أسباب فساد القلوب

قال تعالى: ﴿كَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنكُمۡ قُوَّةٗ وَأَكۡثَرَ أَمۡوَٰلٗا وَأَوۡلَٰدٗا فَٱسۡتَمۡتَعُواْ بِخَلَٰقِهِمۡ فَٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِخَلَٰقِكُمۡ كَمَا ٱسۡتَمۡتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُم بِخَلَٰقِهِمۡ وَخُضۡتُمۡ كَٱلَّذِي خَاضُوٓاْۚ﴾ [التوبة: ٦٩].

وقال ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ: «فأشار سبحانه في هذه الآية إلى ما يحصل به فساد القلوب والأديان، من الاستمتاع بالخَلَاق، والخوض بالباطل؛ لأن فساد الدين إما أن يكون باعتقاد الباطل والتكلم به، أو بالعمل بخلاف العلم الصحيح. **فالأول**: هو البدع وما والاها، **والثاني**: فسق الأعمال. **فالأول**: فساد من جهة الشبهات، **والثاني**: من جهة الشهوات.

ولهذا كان السَّلَف يقولون: احذروا من الناس صنفين: صاحب هوى قد فتنه هواه، وصاحب دنيا أعمته دنياه. وكانوا يقولون: احذروا فتنة العالم الفاجر، والعابد الجاهل، فإن فتنتهما فتنة لكل مفتون.

وأصل كل فتنة: إنما هو من تقديم الرأي على الشرع، والهوى على العقل؛ **فالأول**: أصل فتنة الشبهة، **والثاني**: أصل فتنة الشهوة»(١).

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: «القلب يَعْترضه مرضان يَتوَاردان عليه؛ إذا استحكما فيه كان هلاكه وموته، وهما: مرض الشهوات، ومرض الشبهات. هذا أصل داء الخلق، إلا من عافاه الله»(٢).

---

(١) «إغاثة اللهفان» (٢/ ١٦٦).

(٢) «مفتاح دار السعادة» (١/ ١١٠).

وذكر رَحِمَهُ اللَّهُ أن مفسدات القلب خمسة، وشرحها في «مدارج السالكين» (١/ ٤٥٢)؛ قال: «وأما مفسدات القلب الخمسة فهي التي أشار إليها: من كثرة الخلطة والتمني، والتعلق بغير الله، والشبع، والمنام؛ فهذه الخمسة من أكبر =

وقال أيضًا رَحِمَهُ اللهُ: «**مدار اعتلال القلوب، واستقامتها على أصلين**: فساد العلم، وفساد القصد. **ويترتب عليهما داءان قاتلان، وهما**: الضلال والغضب؛ فالضلال نتيجة فساد العلم، والغضب نتيجة فساد القصد. وهذان المرضان هما مِلاك أمراض القلوب جميعها»(١).

فيه فوائد

الأولى: فساد القلوب يكون من أمرين: الشبهات المانعة من كمال التصديق، والشهوات المانعة من امتثال الأمر.

الثانية: القلب إذا فسد بالشبهة؛ فسد تصوره للحق، بحيث لا يراه حقًّا.

الثالثة: القلب إذا فسد بالشهوة؛ يبغض الحق النافع، ولا يريده.

الرابعة: مدار اعتلال القلوب على أصلين، وهما: فساد العلم، وفساد القصد.

الخامسة: أثر العلم الشرعي والعمل به في صلاح القلب.

السادسة: معرفة أصل فساد القلوب التي يرجع إليها جميع أنواع المفسدات المتنوعة.

❁ ❁ ❁

= مفسدات القلب». وفي موضع آخر ذكر أن من مفسدات القلب: «فضول النظر، وفضول الكلام، وفضول الطعام، ومخالطة الناس». وهذه هي الطريق إلى الشهوات والشبهات، والناس فيها على أحوال متفاوتة. انظر: «أسباب قسوة القلوب وعلاجها». مؤلفات الحافظ ابن رجب (٢/ ٤٠٤ ـ ٤٠٦).

(١) «مدارج السالكين» (١/ ٥٢).

٧

باب ما جاء في علاج القلوب

قال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢].

وقال تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء: ٨٢].

وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [السجدة: ٢٤].

وقال النبي ﷺ: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عِلْمٍ لَا يَنْفَعُ، وَمِنْ قَلْبٍ لَا يَخْشَعُ، وَمِنْ نَفْسٍ لَا تَشْبَعُ، وَمِنْ دَعْوَةٍ لَا يُسْتَجَابُ لَهَا**»(١).

وقال يحيى بن معاذ وإبراهيم الخواص رحمهما الله: «دواء القلب خمسة أشياء: قراءة القرآن بالتفكر، وخلاء البطن، وقيام الليل، والتضرع عند السَّحَر، ومجالسة الصالحين»(٢).

وقال رجل للحسن رحمه الله: «يا أبا سعيد أشكو إليك قسوة قلبي. قال: أَذِبْه بالذِّكْر»(٣).

وقال ابن القيِّم رحمه الله: «ومما ينبغي أن يعلم: أنه لا يمتنع مع الطبع والختم والقفل حصول الإيمان، بأن يَفُكَّ الذي خَتَم على القلب، وطَبَع عليه وضَرَب عليه القفلَ ذلك الختْمَ والطابع والقفلَ، ويهديه بعد ضلاله ويعلّمه بعد جهله، ويرشده بعد غيّه، ويفتح قُفل قلبه بمفاتيح توفيقه التي

(١) رواه مسلم (٢٧٢٢).
(٢) «قسوة القلب»، لابن رجب (١٧).
(٣) «قسوة القلب»، لابن رجب (١٧).

هي بيده، حتى لو كتب على جبينه الشقاوة والكفر لم يمتنع أن يمحوها، ويكتب عليه السعادة والإيمان. وقرأ قارئ عند عمر بن الخطاب: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾ [محمد: ٢٤]، وعنده شاب فقال: (اللَّهُمَّ عليها أقفالها، ومفاتيحها بيدك، لا يفتحها سواك)؛ فعرفها له عمر وزادته عنده خيرًا»[1].

وقال أيضًا رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «مدار الإيمان على أصلين: تصديق الخبر، وطاعة الأمر.

ويتبعهما أمران آخران وهما: أولًا: نفي شبهات الباطل الواردة عليه، المانعة من كمال التصديق. **ثانيًا:** ودفع شهوات الغي الواردة عليه، المانعة من كمال الامتثال.

فهاهنا أربعة أمور:

أحدها: تصديق الخبر. **الثاني:** بذل الاجتهاد في ردّ الشبهات التي توحيها شياطين الجن والإنس في معارضته. **الثالث:** طاعة الأمر. **والرابع:** مجاهدة النفس في دفع الشهوات التي تحول بين العبد وبين كمال الطاعة.

وهذان الأمران ـ أعني الشبهات والشهوات ـ: أصل فساد العبد وشقائه في معاشه ومعاده.

كما أن الأصلين الأولين ـ وهما: تصديق الخبر، وطاعة الأمر ـ: أصل سعادته وصلاحه في معاشه ومعاده.

وذلك أن العبد له قوتان: قوة الإدراك والنظر وما يتبعها من العلم والمعرفة والكلام. وقوة الإرادة والحب وما يتبعها من النية والعزم والعمل.

---

(١) «شفاء العليل» (١/ ٩٠).

فالشبهة تؤثر فسادًا في القوة العلمية النظرية ما لم يداوها بدفعها، والشهوة تؤثر فسادًا في القوة الإرادية العملية ما لم يداوها بإخراجها»[(١)].

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: «ففتنة الشبهات تُدفع باليقين، وفتنة الشهوات تُدفع بالصبر؛ ولذلك جعل سبحانه إمامة الدين منوطة بهذين الأمرين، فقال: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [السجدة: ٢٤]. فدل على أنه بالصبر واليقين تنال الإمامة في الدين»[(٢)].

فيه فوائد

الأولى: أدوية القلوب تؤخذ من الوحي لا من غيره؛ فالوحي هو العلاج لجميع أمراض القلوب.

الثانية: القلوب مهما بلغت من القسوة والمرض، فإن الإصلاح وارد، إذا صدق العبد وبذل الأسباب النافعة.

الثالثة: ومن الأدوية لصلاح القلب: تقوية اليقين والصبر في النفس؛ فباليقين تدفع الشبهات، وبالصبر تدفع الشهوات.

الرابعة: ومنها كثرة الذِّكْر، وتلاوة القرآن بتدبر.

الخامسة: ومنها طلب العلم، وملازمة حلقه.

السادسة: ومنها مجالسة من تحيا القلوب بمجالستهم.

السابعة: ومنها الدعاء، وقيام الليل، وعدم الشّبَع.

الثامنة: معرفة أصل سعادة العبد في الدنيا والآخرة وأصل شقائه.

التاسعة: المسلم قد يقسو قلبه، لكن لا تستحكم فيه القسوة.

❁ ❁ ❁

(١) «مفتاح دار السعادة» (١/ ٤٠).

(٢) «إغاثة اللهفان» (٢/ ١٦٦).

٨

باب ما جاء في الإخلاص لله تعالى

قال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ۝٥﴾ [البينة: ٥].

وقال تعالى: ﴿قُلۡ إِن تُخۡفُواْ مَا فِي صُدُورِكُمۡ أَوۡ تُبۡدُوهُ يَعۡلَمۡهُ ٱللَّهُۗ﴾ [آل عمران: ٢٩].

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى، فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ، فَهِجْرَتُهُ إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ، وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ لِدُنْيَا يُصِيبُهَا أَوِ امْرَأَةٍ يَنْكِحُهَا، فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ**»(١).

وقال النبي ﷺ: «**يَا نَعَايَا الْعَرَبِ (ثَلَاثًا): إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ: الرِّيَاءُ، وَالشَّهْوَةُ الْخَفِيَّةُ**»(٢).

وقال الزبير بن العوام رضي الله عنه: «أَيُّكُمُ اسْتَطَاعَ أَنْ يَكُونَ لَهُ خَبِيئَةٌ مِنْ عَمَلٍ صَالِحٍ فَلْيَفْعَلْ»(٣).

وعن عاصم رحمه الله قال: «كان أبو وائل ـ شقيق بن سلمة ـ إذا صلّى في بيته يَنْشُج نشيجًا، ولو جُعلت له الدنيا على أن يفعله وأَحدٌ يراه ما فعله»(٤).

وقال الحسن البصري رحمه الله: «إن كان الرجل لقد جمع القرآن وما

---

(١) رواه البخاري (١/ ١).

(٢) رواه الطبراني، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٢/ ٥٠٨)، قال ابن الأثير: «إن الشهوة الخفية هي حب إطلاع الناس على العمل». ومما يدل على خطورة الرياء قصة الثلاثة الذين أولُ من تُسعَّر بهم النار.

(٣) «الزهد»، لابن المبارك (ص٣٩٢). (٤) «سير أعلام النبلاء» (٤/ ١٦٥).

يشعر به جاره، وإن كان الرجل لقد فقه الفقه الكثير وما يشعر به أناس، وإن كان الرجل ليصلي الصلاة الطويلة في بيته وعنده الزّوّر وما يشعرون به، ولقد أدركنا أقوامًا ما كان على ظهر الأرض من عمل يقدرون على أن يعملوه في سر، فيكون علانية أبدًا»[١].

وقال ميمون رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إن أعمالكم قليلة، فأخلصوا هذا القليل»[٢].

وقال ابن المبارك رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «رُبّ عملٍ صغير تكثره النية، ورُبَّ عمل كثير تصغره النية»[٣].

وقال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الإخلاص هو تجريد القصد طاعة للمعبود»[٤].

فيه فوائد

الأولى: منزلة الإخلاص في الكتاب والسُّنَّة.

الثانية: حقيقة الإخلاص، ومعرفة حُكمه، وبعض معوقاته.

الثالثة: النية الصادقة يُضاعف معها العمل.

الرابعة: خوف النبيّ ﷺ على أُمّته مما يفسد عليهم عباداتهم؛ كالرياء والشهوة الخفية.

الخامسة: إذا وُجِد الإخلاص في القلب؛ سَلِم العبد من حظوظ النفس وآفاتها، ومن سائر أمراض القلوب.

السادسة: أهمية إخفاء الأعمال الصالحة.

السابعة: إخلاص السَّلَف في أنواع الطاعات.

الثامنة: صِدْق السَّلَف مع أنفسهم حال الخلوة.

التاسعة: كمال عدل الله، وأنه يجازي كل امرئ على حسب قصده.

العاشرة: الحذر من الرياء والعُجْب، وسائر الأعمال التي تنافي الإخلاص.

---

(١) «الزهد»، لابن المبارك (١/ ٤٥).
(٢) «حلية الأولياء» (٤/ ٩٢).
(٣) «سير أعلام النبلاء» (٨/ ٤٠٠).
(٤) «أعلام الموقعين» (٢/ ١٧١).

٩

باب ما جاء في الصدق مع الله تعالى

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ١١٩﴾ [التوبة: ١١٩].

وقال تعالى: ﴿قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوۡمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدۡقُهُمۡۚ لَهُمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ١١٩﴾ [المائدة: ١١٩].

وعن ابن مسعود رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «**إِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ، وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَصْدُقُ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللهِ صَدِّيقًا، وَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ، وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَكْذِبُ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللهِ كَذَّابًا**»(١).

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: «**مَنْ سَأَلَ الشَّهَادَةَ بِصِدْقٍ، بَلَّغَهُ اللهُ مَنَازِلَ الشُّهَدَاءِ، وَإِنْ مَاتَ عَلَى فِرَاشِهِ**»(٢).

وجاء عن جعفر بن برقان رحمه الله قال: «بلغني عن يونس بن عبيد فضل وصلاح؛ فكتبت إليه: (يا أخي، بلغني عنك فضل وصلاح، فأحببت أن أكتب إليك، فاكتب بما أنت عليه)، فكتب إليّ: (أتاني كتابك تسألني أن أكتب إليك بما أنا عليه، وأخبرك أني عرضت على نفسي أن تحب للناس ما تحب لها، وأن تكره لهم ما تكره لها، فإذا هي من ذلك بعيدة، ثم عرضت عليها مرة أخرى ترك ذكرهم إلّا من خير، فوجدت الصوم في اليوم الحارّ ـ الشديد الحرّ بالهواجر بالبصرة ـ أيسر

---

(١) رواه البخاري (٥/٥٧٤٣).

(٢) رواه مسلم (٣/١٩٠٩).

عليها من ترك ذكرهم، هذا أَمرِي يا أخي. . . والسلام»[(١)].

وقال أيوب السختياني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ما صدق عبد قط، فأحب الشهرة»[(٢)].

وقال الوليد بن مسلم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «سألت الأوزاعي وسعيد بن عبد العزيز وابن جريج: لمن طلبتم العلم؟ كلهم يقول: لنفسي، غير ابن جريج فإنه قال: طلبته للناس»[(٣)].

وقال الفضيل بن عياض رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ما تزين الناس بشيء أفضل من الصدق، والله عَزَّ وَجَلَّ يسأل الصادقين عن صدقهم، منهم عيسى بن مريم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ؛ كيف بالكذابين المساكين؟» ثم بكى وقال: «أتدرون في أي يوم يسأل الله عَزَّ وَجَلَّ عيسى بن مريم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ؟ يوم يجمع الله الأولين والآخرين ـ آدم فمن دونه ـ». ثم قال: وكم مِن قَبيح تكشفه القيامة غدًا»[(٤)].

وقال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والمقصود أن صِدْق التأهب للِّقاء هو مفتاح جميع الأعمال الصالحة والأحوال الإيمانية، ومقامات السالكين إلى الله، ومنازل السائرين إليه من اليقظة والتوبة والإنابة والمحبة والرجاء والخشية والتفويض والتسليم، وسائر أعمال القلوب والجوارح»[(٥)].

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**والصدق ثلاثة أقسام**: الصدق في الأقوال، والصدق في الأعمال، والصدق في الأحوال: فعلى العبد السعي في تحقيقها.

فالصدق في الأقوال: استواء اللسان على الأقوال، كاستواء السنبلة على ساقها.

والصدق في الأعمال: استواء الأفعال على الأمر والمتابعة، كاستواء الرأس على الجسد.

---

(١) «سير أعلام النبلاء» (٦/ ٢٩١).
(٢) «حلية الأولياء» (٣/ ٦).
(٣) «سير أعلام النبلاء» (٦/ ٣٢٨).
(٤) «حلية الأولياء» (٨/ ١٠٨).
(٥) «طريق الهجرتين» (١/ ٢٧٦).

والصدق في الأحوال: استواء أعمال القلب والجوارح على الإخلاص، واستفراغ الوسع، وبَذْل الطاقة.

فبذلك يكون العبد من الذين جاءوا بالصدق، وبحسب كمال هذه الأمور فيه وقيامها به، تكون صدِّيقيَّته»[(١)].

فيه فوائد

الأولى: منزلة الصدق في الكتاب والسُّنَّة.

الثانية: حقيقة الصدق، وحكمه، وفضله، وأنواعه.

الثالثة: الصدق ينجي صاحبه يوم القيامة.

الرابعة: الصدق من الأخلاق التي دعا إليها النبي ﷺ، واتصف بها.

الخامسة: العبد مأمور بأن يتصف بصفات أهل الصدق.

السادسة: صدق السَّلَف مع أنفسهم، وعدم تزكيتها.

السابعة: صلة أعمال القلوب بعضها ببعض.

الثامنة: معرفة العلامة الفارقة بين الصادق والكاذب في محبة الله ورسوله ﷺ.

التاسعة: حبّ الشهرة والعلو في الأرض خلاف الصدق مع الله.

العاشرة: الله يفضح الكاذبين والمنافقين يوم القيامة.

❁ ❁ ❁

(١) «مدارج السالكين» (٢/ ٢٥٨).

١٠

باب ما جاء في محبة الله تعالى

قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ﴾ [البقرة: ١٦٥]، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾﴾ [آل عمران: ٣١].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «**ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الإِيمَانِ: أَنْ يَكُونَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ المَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا للهِ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ**»(١).

وعن أنس رضي الله عنه: أن رجلًا سأل النبي ﷺ عن الساعة فقال: متى الساعة؟ قال: «**وَمَا أَعْدَدْتَ لَهَا؟**»، قال: لا شيء، إلّا أنّي أُحبّ الله ورسوله، فقال ﷺ: «**أَنْتَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ**». قال أنس: فما فرحنا بشيء فرحنا بقول النبي ﷺ: «**أَنْتَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ**». قال أنس: فأنا أُحبّ النبي ﷺ، وأبا بكر، وعمر، وأرجو أن أكون معهم بحبي إياهم، وإن لم أعمل بمثل أعمالهم(٢).

وقال شيخ الإسلام رحمه الله: «**محبة الله، بل محبة الله ورسوله من أعظم واجبات الإيمان وأكبر أصوله وأجلّ قواعده**؛ بل هي أصل كل عمل من أعمال الإيمان والدين، كما أن التصديق به أصل كل قول من أقوال الإيمان والدين؛ فإن كل حركة في الوجود إنما تصدر عن محبة: إما عن محبة محمودة أو عن محبة مذمومة ـ كما قد بسطنا ذلك في «قاعدة

---

(١) رواه البخاري (١/ ١٦).

(٢) رواه البخاري (٣/ ٣٤٨٥).

المحبة» من القواعد الكبار ـ. فجميع الأعمال الإيمانية الدينية لا تصدر إلا عن المحبة المحمودة.

وأصل المحبة المحمودة هي محبة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ إذ العمل الصادر عن محبة مذمومة عند الله لا يكون عملًا صالحًا؛ بل جميع الأعمال الإيمانية الدينية لا تصدر إلا عن محبة الله؛ فإن الله تعالى لا يقبل من العمل إلا ما أريد به وجهه».

ثم قال: «فإذا كان أصل العمل الديني هو إخلاص الدين لله وهو إرادة الله وحده؛ فالشيء المراد لنفسه هو المحبوب لذاته ـ وهذا كمال المحبة ـ، لكن أكثر ما جاء المطلوب مسمى باسم العبادة؛ كقوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات: ٥٦]، وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [البقرة: ٢١] وأمثال هذا.

والعبادة تتضمن: كمال الحب ونهايته، وكمال الذل ونهايته؛ فالمحبوب الذي لا يُعظّم ولا يُذلّ له لا يكون معبودًا، والمُعظّم الذي لا يُحبّ لا يكون معبودًا»(١).

وقال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وإذا كانت المحبة أصل كل عمل ديني؛ فالخوف والرجاء وغيرهما يستلزم المحبة، ويرجع إليها؛ فإن الراجي الطامع، إنما يطمع فيما يحبه لا فيما يبغضه، والخائف يَفِرُّ من الخوف لينال المحبوب»(٢).

وقال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**فأصل العبادة محبة الله**؛ بل إفراده بالمحبة، وأن يكون الحبّ كلّه لله، فلا يحب معه سواه، وإنما يحب لأجله وفيه، كما يحب أنبياءه ورسله وملائكته وأولياءه، فمحبتنا لهم من تمام محبته، وليست محبة معه؛ كمحبة من يتخذ من دون الله أندادًا يحبونهم كحبه.

وإذا كانت المحبة له هي حقيقة عبوديته وسرها، فهي إنما تتحقق

---

(١) «الفَتاوَى» (١٠/ ٤٨).
(٢) «الفَتاوَى» (١٠/ ٦١).

باتباع أمره واجتناب نهيه، فعند اتباع الأمر واجتناب النهي، تتبين حقيقة العبودية والمحبة، ولهذا جعل تعالى اتباع رسوله علمًا عليها، وشاهدًا لمن ادعاها، فقال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١]. فجعل اتباع رسوله مشروطًا بمحبتهم لله، وشرطًا لمحبة الله لهم»[١].

وقال أيضًا رَحِمَهُ اللهُ: «**والعبادة تجمع أصلين**: غاية الحب بغاية الذل والخضوع، والعرب تقول: طريق معبَّد ـ أي: مذلّل ـ والتعبد: التذلل والخضوع؛ فمن أحببته ولم تكن خاضعًا له لم تكن عابدًا له، ومن خضعت له بلا محبة لم تكن عابدًا له حتى تكون محبًّا خاضعًا»[٢].

وقال أيضًا رَحِمَهُ اللهُ: «لا تُحدُّ المحبةُ بحدٍّ أوضح منها؛ فالحدود لا تزيدها إلّا خفاءً وجفاءً، فحدُّها وُجُودُها، ولا توصف المحبة بوصفٍ أظهرَ من المحبة»[٣].

فيه فوائد

الأولى: منزلة محبة الله، ومحبة النبي ﷺ في الكتاب والسُّنَّة.

الثانية: اتباع النبي ﷺ علامة على محبة العبد لله، وشرط في محبة الله للعبد.

الثالثة: شدة محبة المؤمنين لربهم، وإفرادهم محبة العبودية له.

الرابعة: فضل محبة الله، وأنها تقوم بالعبد وإن قلّ عمله.

الخامسة: فضل المحبة في الله، وأن المرء مع من أحب[٤].

---

(١) «مدارج السالكين» (١/ ٩٩).
(٢) «مدارج السالكين» (١/ ٧٤).
(٣) «مدارج السالكين» (٣/ ٩).
(٤) قال الحسن البصري رَحِمَهُ اللهُ: «ابن آدم لا تغتر بقول من يقول: (المرء مع من أحب)، إنه من أحب قومًا اتبع آثارهم، ولن تلحق بالأبرار حتى تتبع آثارهم، وتأخذ =

السادسة: المحبة تستلزم الامتثال، والطاعة، واجتناب النهي.

السابعة: العبادة لا تقوم إلّا على ركنين وهما: غاية الحب، وغاية الذل.

الثامنة: صلة الخوف والرجاء بالمحبة.

التاسعة: معرفة المحبة الشركية، وهي المحبة مع الله.

العاشرة: بيان المحبة التي يجب أن تكون لله، وأن صرفها لغير الله شرك.

الحادية عشرة: معرفة الفرق بين المحبة التي تُنقص الإيمان، والمحبة التي تنقضه.

الثانية عشرة: المحبة لا تحد بتعريف جامع؛ فالحدود لا تزيدها إلّا غموضًا. وحدّها وجودها.

الثالثة عشرة: محبة الله لها شروط، وعلامات يُعرف بها أهلها.

❁ ❁ ❁

= بهديهم، وتقتدي بسُنّتهم وتصبح وتمسي وأنت على منهاجهم، حريصًا على أن تكون منهم، فتسلك سبيلهم، وتأخذ طريقهم وإن كنت مقصرًا في العمل، فإنما ملاك الأمر أن تكون على استقامة. أما رأيت اليهود والنصارى وأهل الأهواء المردية يحبون أنبياءهم وليسوا معهم؟؛ لأنهم خالفوهم في القول والعمل، وسلكوا غير طريقهم، فصار موردهم النار، نعوذ بالله من ذلك». ذكره ابن رجب في «استنشاق نسيم الأنس» (ص٨٧).

١١

باب ما جاء في الخوف من الله تعالى

قال تعالى: ﴿وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ۝٤٠﴾ [البقرة: ٤٠].

وقال تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥ﴾ [آل عمران: ٢٨].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنۡ خَشۡيَةِ رَبِّهِم مُّشۡفِقُونَ ۝٥٧ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ يُؤۡمِنُونَ ۝٥٨ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمۡ لَا يُشۡرِكُونَ ۝٥٩ وَٱلَّذِينَ يُؤۡتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمۡ وَجِلَةٌ أَنَّهُمۡ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ رَٰجِعُونَ ۝٦٠ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَهُمۡ لَهَا سَٰبِقُونَ ۝٦١﴾ [المؤمنون: ٥٧ ـ ٦١].

وقالت عائشة رضي الله عنها: يا رسول الله، أَهُم الذين يَشربون الخمر ويَسرقون؟ قال: «**لَا يَا بِنْتَ الصِّدِّيقِ، وَلَكِنَّهُمُ الَّذِينَ يَصُومُونَ وَيُصَلُّونَ وَيَتَصَدَّقُونَ، وَهُمْ يَخَافُونَ أَلَّا يُقْبَلَ مِنْهُمْ، أُولَئِكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْخيرَاتِ**»(١).

وعن أنس رضي الله عنه قال: خَطبَنا رسول الله ﷺ خُطْبة ما سمعت مثلها قط، فقال: «**لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ، لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا**». فغطى أصحاب رسول الله ﷺ وجوههم، ولهم خَنِينٌ(٢).

وعن عدي بن حاتم رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا سَيُكَلِّمُهُ رَبُّهُ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ تَرْجُمَانٌ، فَيَنْظُرُ أَيْمَنَ مِنْهُ فَلَا يَرَى إِلَّا مَا قَدَّمَ، وَيَنْظُرُ أَشْأَمَ مِنْهُ فَلَا يَرَى إِلَّا مَا قَدَّمَ، وَيَنظُرُ بَيْنَ يَدَيهِ فَلَا يَرَى إِلَّا النَّار تِلقَاءَ وَجْهِهِ، فَاتَّقُوا النَّارَ وَلَو بِشِقِّ تَمْرَةٍ**»(٣).

---

(١) رواه الترمذي (٥/ ٣١٧٥).
(٢) رواه البخاري (٤/ ٤٣٤٥).
(٣) رواه البخاري (٦/ ٧٠٧٤).

وعن عامر بن ربيعة رَحِمَهُ اللَّهُ قال: سمعت عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وأخذ تِبنة فقال: «وَدِدْتُ أَنِّي هَذِهِ، وَوَدِدْتُ أَنَّ أُمِّي لَمْ تَلِدْنِي، وَوَدِدْتُ أَنِّي كُنْتُ نَسْيًا مَنْسِيًّا»(١).

وقال عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لَوْ تَعْلَمُونَ ذُنُوبِي، مَا وَطِئَ عَقِبِي اثْنَانِ، وَلَحَثَيْتُمْ التُّرَابَ عَلَى رَأْسِي، وَلَوَدِدْتُ أَنَّ اللهَ غَفَرَ لِي ذَنْبًا مِنْ ذُنُوبِي، وَأَنِّي دُعِيتُ عَبْدَ اللهِ بْنَ رَوْثَةَ»(٢).

وعن مالك بن دينار رَحِمَهُ اللَّهُ قال: «سمعتُ ابنة الرَّبيع تقول للرَّبيع: يا أبت، لِمَ لا تنام، والناس ينامون؟ فقال: إن النار لا تدع أباك أن ينام»(٣).

وعن الحسن البصري رَحِمَهُ اللَّهُ قال: «المؤمن من يعلم أن ما قال الله عَزَّ وَجَلَّ كما قال، والمؤمن أحسن الناس عملًا، وأشدُّ الناس خوفًا، لو أنفق جبلًا من مال ما أَمِن دون أن يُعاين، لا يزداد صلاحًا وبرًّا وعبادة، إلّا ازداد فَرَقًا، يقول: لا أَنجو، والمنافق يقول: سواد الناس كثير، وسيُغفر لي، ولا بَأس عليّ، فَيُسيء العمل، ويَتمنى على الله تعالى»(٤).

وقال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: «والخشية أبدًا متضمّنة للرجاء، ولولا ذلك لكانت قنوطًا؛ كما أن الرجاء يستلزم الخوف، ولولا ذلك لكان أمنًا؛ فأهل الخوف لله والرجاء له هم أهل العلم الذين مدحهم الله»(٥).

وقال ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ: «ونقصان الخوف من الله إنما هو لنقصان معرفة العبد به؛ فأَعرف الناس أخشاهم لله.

ومن عرف الله اشتد حياؤه منه وخوفه له وحبه له، وكلما ازداد معرفة ازداد حياءً وخوفًا وحبًّا.

---

(١) «الزهد»، لأبي داود (١/ ٤٩٩).
(٢) «سير أعلام النبلاء» (١/ ٤٩٥).
(٣) «حلية الأولياء» (٢/ ١١٤).
(٤) «حلية الأولياء» (٢/ ١٥٣).
(٥) «الفتاوى» (٧/ ٢١).

فالخوف: من أَجلّ منازل الطريق، وخوف الخاصة أَعظم من خوف العامة، وهم إليه أحوج، وهو بهم أَليق، ولهم ألزم.

فإن العبد إما أن يكون مستقيمًا أو مائلًا عن الاستقامة، فإن كان مائلًا عن الاستقامة فخوفه من العقوبة على ميله.

ولا يصح الإيمان إلا بهذا الخوف.

وهو ينشأ من ثلاثة أُمور:

أحدها: معرفته بالجناية وقبحها.

والثاني: تصديق الوعيد، وأن الله رتب على المعصية عقوبتها.

والثالث: أنه لا يعلم؛ لعله يُمنع من التوبة، ويحال بينه وبينها إذا ارتكب الذنب.

فبهذه الأمور الثلاثة يتم له الخوف، وبحسب قوتها وضعفها تكون قوة الخوف وضعفه، فإن الحامل على الذنب إما أن يكون عدم علمه بقبحه، وإما عدم علمه بسوءِ عاقبته، وإما أن يجتمع له الأمران، لكن يحمله عليه اتكاله على التوبة، وهو الغالب من ذنوب أهل الإيمان، فإذا علم قبح الذنب وعلم سوءَ مغبته، وخاف ألا يفتح له باب التوبة بل يمنعها ويحال بينه وبينها، اشتد خوفه. هذا قبل الذنب، فإذا عمله كان خوفه أشد.

وبالجملة: فمن استقر في قلبه ذكر الدار الآخرة وجزائها، وذكر المعصية والتوعد عليها، وعدم الوثوق بإتيانه بالتوبة النصوح، هاج في قلبه من الخوف ما لا يملكه ولا يفارقه حتى ينجو. وأما إن كان مستقيمًا مع الله، فخوفه يكون مع جريان الأنفاس، لعلمه بأن الله مقلب القلوب، وما من قلب إلا وهو بين إصبعين من أصابع الرحمٰن ﷻ، فإن شاءَ أن يقيمه أقامه، وإن شاءَ أن يزيغه أزاغه، كما ثبت عن النبي ﷺ، وكانت

أكثر يمينه: «**لَا وَمُقَلِّبِ الْقُلُوبِ، لَا وَمُقَلِّبِ الْقُلُوبِ**». وقال بعض السَّلَف: القلب أشد تقلبًا من القِدْر إذا استجمعت غليانًا»(١).

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الخوف المحمود الصادق ما حال بين صاحبه ومحارم الله عَزَّ وَجَلَّ، فإذا تجاوز ذلك، خيف منه اليأس والقنوط»(٢).

وقال ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والقدر الواجب من الخوف، ما حمل على أداء الفرائض واجتناب المحارم، فإن زاد على ذلك بحيث صار باعثًا للنفوس على التشمير في نوافل الطاعات والانكفاف عن دقائق المكروهات، والتبسُّط في فضول المباحات، كان ذلك فضلًا محمودًا»(٣).

والخوف شعور يعتلي القلب، يدفع بالعبد إلى الحذر مما يخافه.

فيه فوائد

الأولى: منزلة الخوف من الله في الكتاب والسُّنَّة.

الثانية: حقيقة الخوف المحمود، ومفهومه، وحكمه.

الثالثة: الخوف من الله سِمة الأنبياء والصالحين.

الرابعة: شدّة خوف الصالحين من الله تعالى مع أعمالهم العظيمة.

الخامسة: عدم اغترار السَّلَف بأعمالهم الصالحة.

السادسة: ما من عبد، إلّا وسيكلّمه الله ليس بَيْنه وبَيْنه تَرجمان.

السابعة: الخوف لا بدّ أن يكون معه رجاء، حتى لا يؤدي إلى القنوط.

الثامنة: القنوط من رحمة الله، والأمن من مكر الله من كبائر الذنوب، وخلاف الخوف المحمود.

---

(١) «طريق الهجرتين» (١/ ٢٣٨).

(٢) «مدارج السالكين» (١/ ٥١٤).

(٣) «التخويف من النار» (٣٤).

التاسعة: معرفة الفَرق بين الخوف المحمود، والخوف المحرم، والخوف الواجب، والخوف المستحب.

العاشرة: خوف التعبّد والضر والنفع من غير الله شرك.

الحادية عشرة: معرفة بعض الأسباب التي تبعث في النفس الخوف من الله.

الثانية عشرة: صلة الخوف بالرجاء.

۞ ۞ ۞

١٢

باب ما جاء في رجاء الله تعالى

قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾ [الزمر: ٥٣].

وقال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ﴾ [الأعراف: ١٥٦].

وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾ [الكهف: ١١٠].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إِنَّ للهِ تَعَالَى مِئَةَ رَحْمَةٍ، أَنْزَلَ مِنْهَا رَحْمَةً وَاحِدَةً بَيْنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالْبَهَائِمِ وَالْهَوَامِّ؛ فَبِهَا يَتَعَاطَفُونَ، وَبِهَا يَتَرَاحَمُونَ، وَبِهَا تَعْطِفُ الوَحْشُ عَلَى وَلَدِهَا. وَأَخَّرَ اللهُ تَعَالَى تِسْعًا وَتِسْعِينَ رَحْمَةً يَرْحَمُ بِهَا عِبَادَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**»(١).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «**لَوْ يَعْلَمُ الْمُؤْمِنُ مَا عِنْدَ اللهِ مِنَ الْعُقُوبَةِ مَا طَمِعَ بِجَنَّتِهِ أَحَدٌ، وَلَوْ يَعْلَمُ الْكَافِرُ مَا عِنْدَ اللهِ مِنَ الرَّحْمَةِ مَا قَنَطَ مِنْ جَنَّتِهِ أَحَدٌ**»(٢).

وعن ثابت بن أنس رضي الله عنه: أن النبي ﷺ دخل على شاب وهو في الموت، فقال: «**كَيْفَ تَجِدُكَ؟**». قال: والله يا رسول الله، إني أرجو الله وإني أخاف ذنوبي. فقال رسول الله ﷺ: «**لَا يَجْتَمِعَانِ فِي قَلْبِ عَبْدٍ فِي مِثْلِ هَذَا الْمَوْطِنِ، إِلَّا أَعْطَاهُ اللهُ مَا يَرْجُو، وَآمَنَهُ مِمَّا يَخَافُ**»(٣).

وقال حماد بن سلمة رحمه الله: «والله لو خُيِّرت بين محاسبة الله لي،

(١) رواه مسلم (٤/ ٢٧٥٢).
(٢) رواه مسلم (٤/ ٢٧٥٥).
(٣) رواه الترمذي (٣/ ٩٨٣).

وبين محاسبة أَبَوَيَّ، لاخترت محاسبة الله؛ وذلك لأن الله أرحم بي من أَبَويَّ»[١].

وقال ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ: «**الرجاء ثلاثة أنواع**: نوعان محمودان، ونوع غرور مذموم:

فالأولان:

- رجاء رجل عمل بطاعة الله على نور من الله؛ فهو راج لثوابه.

- ورجاء رجل أذنب ذنوبًا ثم تاب منها؛ فهو راج لمغفرة الله تعالى وعفوه وإحسانه وجوده وحلمه وكرمه.

والثالث: رجاء رجل متمادٍ في التفريط والخطايا، يرجو رحمة الله بلا عمل؛ فهذا هو الغرور والتمني والرجاء الكاذب»[٢].

وقال أيضًا رَحِمَهُ اللَّهُ: «ومما ينبغي أن يعلم: أن من رجا شيئًا، استلزم رجاؤه ثلاثة أمور: **أحدها**: محبته ما يرجوه. **والثاني**: خوفه من فواته. **والثالث**: سَعْيه في تحصيله بحسب الإمكان»[٣].

وقال أيضًا رَحِمَهُ اللَّهُ: «الرجاء هو النظر إلى سعة رحمة الله»[٤].

فيه فوائد

الأولى: منزلة الرجاء في الكتاب والسُّنَّة.

الثانية: حقيقة الرجاء، وحُكْمه، وأقسامه.

الثالثة: الرجاء المحمود لا بد معه من عمل يصحِّحه.

الرابعة: الفرق بين الرجاء المحمود، والتمنِّي والغرور المذموم.

الخامسة: الرجاء المتضمِّن للذُّلّ والخضوع لا يكون إلا لله عَزَّ وَجَلَّ، وصرفه لغيره شرك.

---

(١) «سير أعلام النبلاء» (٧/ ٤٤٩).

(٢) «مدارج السالكين» (٢/ ٣٦).

(٣) «الداء والدواء» (ص٢٤).

(٤) «مدارج السالكين» (٢/ ٣٦).

السادسة: اليأس من رحمة الله، والأمن من مكر الله من كبائر الذنوب، وخلاف الرجاء المحمود.

السابعة: سَعةُ رحمة الله.

الثامنة: الرجاء لابد أن يصحبه خوف، حتى لا يؤدي إلى الأمن من مكر الله.

التاسعة: صلة الرجاء بالمحبة والخوف.

۞ ۞ ۞

١٣

باب في أهمية الجمع بين أركان التعبّد القلبية المحبة، والخوف، والرجاء

قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحۡذُورٗا ۝٥٧﴾ [الإسراء: ٥٧].

وعن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ دخل على شاب، وهو في الموت، فقال: «**كَيْفَ تَجِدُكَ**». قال: أرجو الله يا رسول الله، وأخاف ذنوبي. فقال رسول الله ﷺ «**لَا يَجْتَمِعَانِ فِي قَلْبِ عَبْدٍ فِي مِثْلِ هَذَا الْمَوْطِنِ، إِلَّا أَعْطَاهُ الله مَا يَرْجُو، وَآمَنَهُ مِمَّا يَخَافُ**»(١).

وقال الإمام أحمد رحمه الله: «ينبغي للمؤمن أن يكون خوفه ورجاؤه واحدًا، فأيهما غلب هلك صاحبه»(٢).

وقال شيخ الإسلام رحمه الله: «قال بعض السَّلَف: مَن عَبد الله بالحب وحده فهو زنديق، ومن عبده بالرجاء وحده فهو مرجئ، ومن عبده بالخوف وحده فهو حروري، ومن عبده بالحب والخوف والرجاء فهو مؤمن موحّد»(٣).

وقال رحمه الله: «فما حُفِظت حدود الله ومحارمه، ووصل الواصلون إليه بمثل خوفه ورجائه ومحبته، فمتى خلا القلب من هذه الثلاث فسد فسادًا لا يرجى صلاحه أبدًا، ومتى ضعف فيه شيء من هذه ضعف إيمانه بحسبه»(٤).

---

(١) رواه ابن ماجه (٤٢٦١)، وصححه الألباني.

(٢) «الآداب الشرعية» (٢/ ٢٤).

(٣) «العبودية» (ص٢٥).

(٤) «الفَتاوَى» (١٥/ ٢١).

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: «وإذا كانت المحبة أصل كل عمل ديني؛ فالخوف والرجاء وغيرهما يستلزم المحبة، ويرجع إليها، فإن الراجي الطامع، إنما يطمع فيما يحبه لا فيما يبغضه، والخائف يَفرّ من الخوف لينال المحبوب»(١).

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: «ولا بد من التنبيه على قاعدة تحرك القلوب إلى الله عَزَّ وَجَلَّ فتعتصم به، فتقل آفاتها أو تذهب عنها بالكلية بحول الله وقوته. فنقول:

اعلم أن محركات القلوب إلى الله عَزَّ وَجَلَّ ثلاثة: المحبة، والخوف، والرجاء. وأقواها: المحبة، وهي مقصودة تُراد لِذَاتها؛ لأنها تُراد في الدنيا والآخرة، بخلاف الخوف؛ فإنه يزول في الآخرة؛ قال الله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ۝٦٢﴾ [يونس: ٦٢]، والخوف المقصود منه الزجر والمنع من الخروج عن الطريق. فالمحبة تُلقي العبد في السير إلى محبوبه، وعلى قدر ضَعْفها وقوتها يكون سيره إليه. والخوف يمنعه أن يخرج عن طريق المحبوب. والرجاء يقوده.

فهذا أصل عظيم يجب على كل عبد أن يتنبه له، فإنه لا تحصل له العبودية بدونه، وكل أحد يجب أن يكون عبدًا لله لا لغيره»(٢).

وقال ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ: «وهذه الثلاثة ـ وهي: الحب والخوف والرجاء ـ، هي التي تبعث على عمارة الوقت بما هو الأولى لصاحبه والأنفع له، وهي أساس السلوك، والسير إلى الله. وقد جمع الله سبحانه الثلاثة في قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحۡذُورٗا ۝٥٧﴾ [الإسراء: ٥٧]. وهذه الثلاثة هي قطب رحى العبودية، وعليها دارت رحى الأعمال. والله أعلم»(٣).

---

(١) «الفَتاوَى» (١٠/ ٦١).
(٢) «الفَتاوَى» (١/ ٩٥).
(٣) «مدارج السالكين» (٣/ ١٣٩).

وقال ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ: «القلب في سيره إلى الله عَزَّ وَجَلَّ بمنزلة الطائر؛ فالمحبة رأسه، والخوف والرجاء جناحاه؛ فمتى سلم الرأس والجناحان فالطائر جيد الطيران، ومتى قطع الرأس مات الطائر، ومتى فقد الجناحان فهو عرضة لكل صائد وكاسر»[١].

وقال ابن رجب رَحِمَهُ اللَّهُ: «أما بعد؛ فإن الله تعالى خلق الخلق وأوجدهم لعبادته الجامعة لخشيته ورجائه ومحبته...

وقد عُلم أن العبادة إِنَّمَا تُبْنى عَلَى ثلاثة أصول: الخوف، والرجاء، والمحبة. وكل منها فرض لازم، والجمع بين الثلاثة حتم واجب؛ فلهذا كان السَّلَف يذمّون من تعبّد بواحد منها وأهمل الآخرَين؛ فإن بدع الخوارج ومن أشبههم إِنَّمَا حدثت من التشديد في الخوف، والإعراض عن المحبة والرجاء؛ وبدع المرجئة نشأت من التعليق بالرجاء وحده، والإعراض عن الخوف؛ وبدع كثير من أهل الإباحة والحلول ممن ينسب إِلَى التعبد، نشأت من إفراط المحبة، والإعراض عن الخوف والرجاء»[٢].

فيه فوائد

الأولى: أهمية الجمع بين أركان التعبد القلبية: المحبة، والخوف، والرجاء.

الثانية: أركان التعبد القلبية هي التي تورث سائر أعمال القلوب، والأعمال الصالحة، والأخلاق الفاضلة.

الثالثة: السير إلى الله يكون بحسب قوة المحبة والخوف والرجاء في القلب.

الرابعة: معرفة آثار المحبة والخوف والرجاء على القلوب والجوارح.

---

(١) «مدارج السالكين» (١/ ٥٥٤). (٢) «مؤلفات ابن رجب» (٣/ ٢٩٢).

الخامسة: معرفة الصلة بين أركان التعبد القلبية: المحبة والخوف والرجاء.

السادسة: معرفة انحراف من تعبّد بأحد أركان التعبّد القلبية، وأهمل ما سواها، ولم يجمع بينها.

السابعة: أثر عقيدة أهل السُّنّة والجماعة في استقامة القلوب والجوارح على طاعة الله، دون إفراط أو تفريط.

الثامنة: عقائد أهل البدع تفسد القلوب والجوارح، ولا تصلحها.

❁ ❁ ❁

١٤

باب ما جاء في الصبر لله تعالى

قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ﴾ [آل عمران: ٢٠٠].

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّـٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ۝١٠﴾ [الزمر: ١٠].

وعن صهيب بن سنان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ؛ إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ لَهُ خيرٌ، وَلَيسَ ذَلِكَ لأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خيرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خيرًا لَهُ**»(١).

وقال النبي ﷺ: «**وَمَنْ يَتَصَبَّرْ يُصَبِّرْهُ اللهُ، وَمَا أُعْطِيَ أَحَدٌ عَطَاءً خيرًا وَأَوْسَعَ مِنَ الصَّبْرِ**»(٢).

وقال بعض السَّلَف: «البلاء يصبر عليه المؤمن والكافر، ولا يصبر على العافية إلّا الصدِّيقون».

وقال الأحنف رحمه الله: «ذهبتْ عيْنِي من أربعين سنة، ما شكوتها إلى أحد»(٣).

وعن عمران القصير رحمه الله قال: «ألا حُرٌّ كريم يصبر أيامًا قلائل»(٤).

وقال شيخ الإسلام رحمه الله: «الدين كلّه: علم بالحقّ، وعمل به. والعمل به لا بد فيه من الصبر؛ بل وطلب علمه يحتاج إلى الصبر»(٥).

وقال ابن القيِّم رحمه الله: «وقال عبد الرحمٰن بن عوف رضي الله عنه: «ابْتُلِينَا بِالضَّرَّاءِ فَصَبَرْنَا، وَابْتُلِينَا بِالسَّرَّاءِ فَلَمْ نَصْبِرْ». ولذلك حذر الله عباده

(١) رواه مسلم (٤/ ٢٩٩٩).
(٢) رواه البخاري (٢/ ١٤٠٠).
(٣) «سير أعلام النبلاء» (٤/ ٩٢).
(٤) «حلية الأولياء» (٦/ ١٧٧).
(٥) «الفتاوى» (١٠/ ٣٩).

من فتنة المال والأزواج والأولاد، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ﴾ [المنافقون: ٩]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ وَأَوۡلَٰدِكُمۡ عَدُوّٗا لَّكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُمۡۚ﴾ [التغابن: ١٤]. وليس المراد من هذه العداوة ما يَفْهمُه كثير من الناس، أنها عداوة البغضاء والمحادّة؛ بل إنما هي عداوة المحبة الصادة للآباء عن الهجرة والجهاد وتعلم العلم والصدقة، وغير ذلك من أمور الدين، وأعمال البر»(١).

وحقيقة الصبر هو الصبر على أقضية الله بعدم التسخُّط، والصبر على أوامره بامتثالها، والصبر عن نواهيه باجتنابها.

فيه فوائد

الأولى: منزلة الصبر في الكتاب والسُّنّة.

الثانية: حقيقة الصبر، وحكمه، وأَقسامه.

الثالثة: عِظَم أجر الصابرين، وهذا عام في أنواعه الثلاثة.

الرابعة: خُلق المُؤمن أَمام الضرّاء والسرّاء.

الخامسة: أمر المُؤمن كلّه خير.

السادسة: من يَتصبَّر يُصبِّرْهُ الله.

السابعة: مكانة الصبر في قلوب السَّلَف.

الثامنة: حرص السَّلَف على عدم الشكوى للمخلوقين.

التاسعة: العبادات تحتاج إلى صبر، ومنها طلب العلم.

العاشرة: شدّة الصبر على السرّاء.

الحادية عشرة: معرفة الفرق بين الصبر المحمود، والصبر المحرم والمذموم.

---

(١) «عدة الصابرين» (ص٥١).

١٥

باب ما جاء في مراقبة الله تعالى وإجلاله

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ۝٥﴾ [آل عمران: ٥].

وقال تعالى: ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي ٱلصُّدُورُ ۝١٩﴾ [غافر: ١٩].

وعن ثوبان رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**لَأَعْلَمَنَّ أَقْوَامًا مِنْ أُمَّتِي يَأْتُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِحَسَنَاتٍ أَمْثَالَ جِبَالِ تِهَامَةَ بَيْضَاءَ، فَيَجْعَلُهَا الله عز وجل هَبَاءً مَنْثُورًا**». قَالَ ثوبان: يا رسول الله، صِفهم لنا، جَلِّهم لنا ألا نكون منهم ونحن لا نعلم. قال: «**أَمَا إِنَّهُمْ إِخْوَانُكُمْ، وَمِنْ جِلْدَتِكُمْ، وَيَأْخُذُونَ مِنَ اللَّيْلِ كَمَا تَأْخُذُونَ، وَلَكِنَّهُمْ أَقْوَامٌ إِذَا خَلَوْا بِمَحَارِمِ اللهِ انْتَهَكُوهَا**»(١).

وعن أنس رضي الله عنه قال: «إِنَّكُمْ لَتَعْمَلُونَ أَعْمَالًا هِيَ أَدَقُّ فِي أَعْيُنِكُمْ مِنَ الشَّعَرِ، كُنَّا نَعُدُّهَا عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ مِنَ الْمُوبِقَاتِ»(٢).

وقال بعض السَّلَف رحمه الله: «من راقب الله في خطرات قلبه، عصمه الله في حركات جوارحه»(٣).

وقال ابن الجوزي رحمه الله: «وقد يُخفي الإنسان ما لا يرضاه الله عز وجل، فيظهره الله سبحانه عليه ولو بعد حين، ويُنطِق الألسنة به، وإن لم يشاهده الناس، وربما أوقع صاحبه في آفة يفضحه بها بين الخلق، فيكون جوابًا لكل ما أخفى من الذنوب، وذلك ليعلم الناس أن هناك من يجازي على الزلل،

(١) رواه ابن ماجه (٢/ ٤٢٤٥)، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» رقم (٥٠٥).

(٢) رواه البخاري (٥/ ٦١٢٧).

(٣) «مدارج السالكين» (٢/ ٦٥).

ولا ينفع من قَدَرِه وقُدْرَته حجاب ولا استتار، ولا يُضاع لديه عمل»(١).

وقال أيضًا رَحِمَهُ اللَّهُ: «إخواني، اسمعوا نصيحة من جرّب وخبر، إنه بقدر إجلالكم لله عَزَّ وَجَلَّ يجلّكم، وبمقدار تعظيم قَدْره واحترامه يعظُم قدْرُكم واحترامكم، ولقد رأيت من أنفق عمره في العلم إلى أن كَبِرت سنّه ثم تعدى الحدود، فهان عند الخلق وكانوا لا يلتفتون إليه مع غزارة علمه وقوة مجاهدته، ولقد رأيت من كان يراقب الله عَزَّ وَجَلَّ في صبْوته مع قصوره بالإضافة إلى ذلك العالِم، فعظّم الله قَدْرَه في القلوب حتى عَلِقته النفوس ووصفته بما يَزيد على ما فيه من الخير»(٢).

وقال ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ: «والمراقبة هي التَّعبُّد باسمه الرقيب، الحفيظ، العليم، السميع، البصير، فمن عقل هذه الأسماء، وتعبَّد بمقتضاها، حصلت له المراقبة»(٣).

وحقيقة المراقبة: دوام معرفة العبد، بأن الله تعالى مُطّلع على ظاهره وباطنه، ناظرٌ إليه، سامع لقوله.

فيه فوائد

الأولى: منزلة المراقبة في الكتاب والسُّنّة.

الثانية: حقيقة المراقبة وثمراتها.

الثالثة: علم الله واطلاعه على عبده في كل حال.

الرابعة: أثر الإيمان بأسماء الله وصفاته على قلب العبد وجوارحه.

الخامسة: أن الله يُجلّ عبده بقدْر إجلال العبد له.

السادسة: معرفة ما يُقوِّي مراقبة الله في القلب.

السابعة: عاقبة من هتك السّتر فيما بيْنه وبين الله، ولم يراقبه.

الثامنة: الوعيد الشديد لمن لم يراقب الله في أقواله وأحواله.

---

(١) «صيد الخاطر» (ص٣٥).

(٢) «صيد الخاطر» (ص١٤٥).

(٣) «مدراج السالكين» (٢/ ٦٦).

١٦

باب ما جاء في تقوى الله ﷻ

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ١٣١].

وقال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾﴾ [يونس: ٦٢ ـ ٦٤].

وعن العرباض بن سارية رضي الله عنه قال: وعظنا رسول الله ﷺ موعظة وَجِلَت منها القلوب، وذَرَفَت منها العيون. فقلنا: يا رسول الله، كأنها موعظة مُودّع فأوصنا. قال: «**أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى الله**»(١).

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: «إِنَّ لِلْحَسَنَةِ ضِيَاءً فِي الْوَجْهِ، وَنُورًا فِي الْقَلْبِ، وَقُوَّةً فِي الْبَدَنِ، وَسَعَةً فِي الرِّزْقِ، وَمَحَبَّةً فِي قُلُوبِ الْخَلْقِ. وَإِنَّ لِلسَّيِّئَةِ سَوَادًا فِي الْوَجْهِ، وَظُلْمَةً فِي الْقَلْبِ، وَوَهْنًا فِي الْبَدَنِ، وَنَقْصًا فِي الرِّزْقِ، وَبُغْضًا فِي قُلُوبِ الْخَلْقِ»(٢).

وقال عمر بن عبد العزيز رحمه الله لرجل: «أوصيك بتقوى الله، فإن الواعظين بها كثير، والعاملين بها قليل»(٣).

وعن يزيد بن كُمَيت رحمه الله: أنه سمع رجلًا يقول لأبي حنيفة: «اتقِ الله»؛ فانتفض واصفرّ وأطرق، وقال: «جزاك الله خيرًا، ما أحوج الناس كل وقت إلى من يقول لهم مثل هذا»(٤).

وقال الشافعي رحمه الله: «مَن أحبّ أن يَفتح الله له قلبه ويُنوِّره؛ فعليه

(١) رواه الترمذي (٥/ ٢٦٧٦).
(٢) «الفتاوى» (١٠/ ٦٣٠).
(٣) «حلية الأولياء» (٥/ ٢٦٧).
(٤) «سير أعلام النبلاء» (٦/ ٤٠٠).

بترك الكلام فيما لا يَعنيه، وترك الذنوب، واجتناب المعاصي، ويكون له فيما بيْنه وبين الله خبيئة من عمل؛ فإنه إذا فعل ذلك فَتح الله عليه من العلم ما يَشغله عن غيره، وإن في الموت لأكثر الشغل»(١).

وقال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: «ومن الذي قال: إن التقوى مجرد ترك السيئات؟ بل التقوى ـ كما فسّرها الأولون والآخرون ـ: فعل ما أُمِرْت به، وترك ما نُهيت عنه، كما قال طلق بن حبيب لما وقعت الفتنة، قال: اتقوها بالتقوى. قالوا: وما التقوى؟ قال: أن تعمل بطاعة الله، على نور من الله، ترجو ثواب الله، وأن تترك معصية الله، على نور من الله، تخاف عذاب الله، وقد قال الله تعالى في أكبر سورة في القرآن: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ۝٣﴾ [البقرة: ١ ـ ٣]... إلى آخرها؛ فوصف المتقين بفعل المأمور به من الإيمان، والعمل الصالح من إقام الصلاة وإيتاء الزكاة»(٢).

فيه فوائد

الأولى: منزلة التقوى في الكتاب والسُّنّة.

الثانية: حقيقة التقوى، وبيان حكمها، وفضلها.

الثالثة: التقوى وصية الله للأولين والآخرين، ووصية النبي ﷺ لأُمّته.

الرابعة: أثر الحسنة على قلب العبد وجوارحه.

الخامسة: مكانة التقوى في قلوب السَّلَف.

السادسة: حاجة العباد إلى التذكير بالتقوى.

---

(١) «المجموع شرح المهذب» (١/ ١٣). (٢) «الفتاوَى» (٢٠/ ١٣٢).

السابعة: تعظيم السَّلَف للتذكير بالتقوى، وعدم أَنَفَتهم منها، أو الإنكار على المُذكِّر بها.

الثامنة: حرمان المعرضين عن التقوى من الفوز العظيم.

التاسعة: خطأ من قَصَر التقوى على ترك السيئات.

العاشرة: التقوى النافعة هي التي اجتمع فيها في الفعل والترك: العلم، والخوف، والرجاء.

۞ ۞ ۞

١٧

باب ما جاء في الاستقامة في الأقوال والأعمال والقلوب

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ۝٣٠ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأٓخِرَةِۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِيٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ۝٣١ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ۝٣٢﴾ [فصلت: ٣٠ ـ ٣٢].

وقال تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ۝١٧٥ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ۝١٧٦﴾ [الأعراف: ١٧٥ ـ ١٧٦].

وعن سفيان بن عبد الله رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله، قُلْ لي في الإسلام قولًا لا أسأل عنه أحدًا غيرك. قال: «**قُلْ: آمَنْتُ بِالله، ثُمَّ اسْتَقِمْ**»(١).

وعن أنس رضي الله عنه قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكثر أن يقول: «**يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ، ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ**» فقلت: يا رسول الله، آمنا بك وبما جئت به، فهل تخاف علينا؟ قال: «**نَعَمْ، إِنَّ الْقُلُوبَ بَيْنَ أُصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ اللهِ، يُقَلِّبُهَا كَيْفَ يَشَاءُ**»(٢).

وذُكِرَ معروف الكرْخي عند الإمام أحمد رحمه الله فقيل: قصير العلم. فقال: «أَمْسِك، وهل يُراد من العلم إلّا ما وصل إليه معروف»(٣).

وعن وهب بن منبه رحمه الله قال: «مرَّ رجلٌ عابدٌ على رجل عابدٍ، فقال:

---

(١) رواه مسلم (١/ ٣٨).

(٢) رواه الترمذي (٤/ ٢١٤٠).

(٣) «سير أعلام النبلاء» (٩/ ٣٤٠).

ما لك؟ قال: عجبت من فلان أنه كان قد بلغ من عبادته ومالت به الدنيا، فقال بِعَجل: لا تعجب ممن تميل به الدنيا، ولكن اعجب ممن استقام»(١).

وقال ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ: «فالاستقامة، كلمة جامعة آخذة بمجامع الدين، وهي القيام بين يدي الله، على حقيقة الصدق، والوفاء بالعهد، وتتعلق بالأقوال، والأفعال، والأحوال، والنيات؛ فالاستقامة فيها: وقوعها لله، وبالله، وعلى أمر الله»(٢).

فيه فوائد

الأولى: منزلة الاستقامة في الكتاب والسُّنّة.

الثانية: حقيقة الاستقامة، وبيان حكمها، وفضلها.

الثالثة: سؤال النبي ﷺ ربّه أن يُثبت قلبه على الاستقامة.

الرابعة: عاقبة من نكص عن طريق الاستقامة، وكفر بنعمة الله الدينية ورجع إلى مساوئ الأخلاق والأعمال.

الخامسة: العَجَبُ يكون مِمّن ثبَت واستَقام على الصراط المستقيم، لا ممّن تنكّب عن الصراط المستقيم.

السادسة: حاجة العِباد إلى سؤال الله الثبات على الطاعات، وترك المحرمات.

السابعة: معرفة المقصود من العلم.

الثامنة: الركون إلى الدنيا من أسباب خذلان الله للعبد.

التاسعة: الحذر الشديد من توظيف العلم الشرعي لأغراض دنيوية.

العاشرة: الله تعالى يريد من أهل العلم أن يكونوا علماء ملة لا علماء دولة أو شعب.

الحادية عشرة: الاستقامة في الأقوال والأعمال والقلوب تكون بثلاثة أمور: الإخلاص، والاستعانة، والمتابعة.

---

(١) «حلية الأولياء» (٤/ ٥١).

(٢) «مدارج السالكين» (٢/ ١٠٥).

١٨

باب ما جاء في الخشوع لله تعالى

قال تعالى: ﴿وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ﴾ [الأحزاب: ٣٥].

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾﴾ [الحديد: ١٦].

وعن عثمان بن عفان رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**مَا مِن امْرِئٍ مُسْلِم تَحْضُرُهُ صَلَاةٌ مَكْتُوبَةٌ، فَيُحْسِنُ وُضُوءَهَا وَخُشُوعَهَا وَرُكُوعَهَا، إِلَّا كَانَتْ كَفَّارَةً لِمَا قَبْلَهَا مِنَ الذُّنُوبِ، مَا لَمْ يُؤْتِ كَبِيرَةً، وَذَلِك الدَّهْرَ كُلَّهُ**»(١).

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: «اسْتَعِيذُوا بِاللهِ مِنْ خُشُوعِ النِّفَاقِ»، فقيل له: وما خشوع النفاق؟ فقال: «أَنْ تَرَى الْجَسَدَ خَاشِعًا، وَالْقَلْبَ لَيْسَ بِخَاشِعٍ»(٢).

وعن عائشة رضي الله عنها أنها رأت أناسًا يمشون ويَتماوتون في مِشْيتهم، فسألت عن هؤلاء. فقيل لها: نُسّاك ـ أي: أن هؤلاء عبّاد ـ فقالت: «كَانَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ؟ إِذَا مَشَى أَسْرَعَ، وَإِذَا قَالَ أَسْمَعَ، وَإِذَا ضَرَبَ أَوْجَعَ، وَإِذَا أَطْعَمَ أَشْبَعَ، وَكَانَ هُوَ النَّاسِكَ حَقًّا»(٣).

وكان مسروق رحمه الله يقوم فيصلي كأنه راهب، وكان يقول لأهله: «هاتوا كل حاجة، فاذكروها لي، قبل أن أقوم إلى الصلاة»(٤).

---

(١) رواه مسلم (١/ ٢٢٨).
(٢) «الزهد»؛ للإمام أحمد (١/ ١٤٢).
(٣) «مدارج السالكين» (١/ ٥٢١).
(٤) «حلية الأولياء» (٢/ ٩٦).

وكان الرَّبِيع بن خُثَيْم رَحِمَهُ اللَّهُ: «إذا سجد كأنه ثوب مطروح، فتجيء العصافير فتقع عليه»(١).

وقال ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ: «إن الخشوع معنى يلتئم من التعظيم، والمحبة، والذل والانكسار»(٢).

وقال ابن سعدي رَحِمَهُ اللَّهُ: «والخشوع هو: خضوع القلب وطمأنينته، وسكونه لله تعالى، وانكساره بين يديه، ذلًّا وافتقارًا، وإيمانًا به وبلقائه»(٣).

فيه فوائد

الأولى: منزلة الخشوع في الكتاب والسُّنّة.

الثانية: حقيقة خشوع القلب، وحكمه، وفضله.

الثالثة: خشوع الجوارح فرع عن خشوع القلب.

الرابعة: من أحوال السَّلَف في الصلاة.

الخامسة: صلة أعمال القلوب بعضها ببعض.

السادسة: ذمُّ قسوة القلب.

السابعة: معرفة المراد بخشوع النفاق.

الثامنة: تقويم السَّلَف للمخالفات الشرعية في تزكية النفوس وأعمال القلوب.

التاسعة: معرفة الخشوع الذي يجب أن يكون لله لا لغيره.

❁ ❁ ❁

(١) «حلية الأولياء» (٢/ ١١٤).

(٢) «مدارج السالكين» (١/ ٥٢٢).

(٣) «تفسيره» (ص٥١).

١٩

باب ما جاء في اليقين في أخبار الله وأحكامه

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٤ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٥﴾ [البقرة: ٣ ـ ٥].

وعن أبي بكر الصديق رضي الله عنه مرفوعًا: «**سَلُوا اللهَ الْيَقِينَ وَالْمُعَافَاةَ، فَمَا أُوتِيَ أَحَدٌ بَعْدَ الْيَقِينِ أَفْضَلَ مِنَ الْعَافِيَةِ**»(١).

وعن ابن عُمَرَ رضي الله عنه قَالَ: قَلَّمَا كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَقُومُ مِنْ مَجْلِسٍ حَتَّى يَدْعُوَ بِهَؤُلَاءِ الدَّعَوَاتِ لأَصْحَابِهِ: «**اللَّهُمَّ اقْسِمْ لَنَا مِنْ خَشْيَتِكَ مَا يَحُولُ بَيْنَنَا وَبَيْنَ مَعَاصِيكَ، وَمِنْ طَاعَتِكَ مَا تُبَلِّغُنَا بِهِ جَنَّتَكَ، وَمِنَ الْيَقِينِ مَا تُهَوِّنُ بِهِ عَلَيْنَا مُصِيبَاتِ الدُّنْيَا...**»(٢).

وعن ابن مسعود رضي الله عنه: «الْيَقِينُ: الْإِيمَانُ كُلُّهُ»(٣).

وعن سفيان الثوري رحمه الله قال: «لو أن اليقين ثبت في القلب، لطار فرحًا أو خوفًا من النار»(٤).

وقال شيخ الإسلام رحمه الله: «اليقين يتضمن: اليقين في القيام بأمر الله، وما وعد الله أهل طاعته، ويتضمن: اليقين بقدر الله وخلقه وتدبيره»(٥).

وقال رحمه الله: «ومنازل اليقين: ما لا تكاد تحيط به العبارة، ولا يعرفه

---

(١) رواه أحمد (١/ ٣٨).
(٢) رواه الترمذي (٣٥٠٢).
(٣) رواه البخاري في أول كتاب «الإيمان».
(٤) «سير أعلام النبلاء» (٧/ ٢٦٠).
(٥) «الفتاوى» (١/ ٥١).

حقّ المعرفة إلا من أدركه وناله»[١].

وقال ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ: «اليقين من الإيمان بمنزلة الروح من الجسد، وبه تفاضل العارفون، وفيه تنافس المتنافسون، وإليه شمَّر العاملون، وهو مع المحبة ركنان للإيمان، وعليهما ينبني وبهما قِوامه، وهما يمدّان سائر الأعمال القلبية والبدنية، وعنهما تصدر، وبضعفهما يكون ضعف الأعمال، وبقوتهما تقوى الأعمال؛ وجميع منازل السائرين إنما تفتتح بالمحبة واليقين، وهما يثمران كل عمل صالح، وعلم نافع، وهدي مستقيم»[٢].

وقال أيضًا رَحِمَهُ اللَّهُ: «واليقين: استقرار الإيمان في القلب علمًا أو عملًا»[٣].

وعلاماته: النظر إلى الله في كل شيء، والرجوع إليه في كل أمر، والاستعانة به في كل حال.

فيه فوائد

الأولى: منزلة اليقين في الكتاب والسُّنّة.

الثانية: حقيقة اليقين وحكمه، وعلاماته ودرجاته.

الثالثة: اليقين إذا رسخ في القلب أثَّر في القلب والجوارح.

الرابعة: أعمال القلوب لها أركان عنها تتفرع بقية الأعمال.

الخامسة: صلة أعمال القلوب بعضها ببعض.

السادسة: القرآن الكريم مدح أهل اليقين، وحصر الهداية والفلاح فيهم، وذمّ أهل الشك والريب.

---

(١) «الفَتاوَى» (١١/ ٧٤).

(٢) «مدارج السالكين» (٢/ ٣٩٧).

(٣) «الفوائد» (ص٢٥٦).

٢٠

باب ما جاء في التوكل على الله تعالى

قال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [المائدة: ٢٣].

وقال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ﴾ [الطلاق: ٣].

وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾﴾ [آل عمران: ١٧٣].

وعن عمر رضي الله عنه مرفوعًا: «**لَوْ أَنَّكُمْ تَتَوَكَّلُونَ عَلَى اللهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ لَرَزَقَكُمْ كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرَ تَغْدُو خِمَاصًا وَتَرُوحُ بِطَانًا**»[١].

وقال سعيد بن جبير رحمه الله: «التوكل على الله جماع الإيمان». وكان يدعو: «اللَّهُمَّ إني أسألك صدق التوكل عليك، وحسن الظن بك»[٢].

وقيل لحاتم الأصم رحمه الله: على ما بنيتَ أَمرك في التوكل؟ قال: «على خصال أربعة: عَلِمت أن رِزْقي لا يأكله غيري؛ فاطمأنت به نفسي. وعلمت أن عملي لا يعمله غيري؛ فأنا مشغول به. وعلمت أن الموت يأتي بغتة؛ فأنا أُبادره. وعلمت أني لا أَخلو من عين الله؛ فأنا مستحي منه»[٣].

وقال ابن القيِّم رحمه الله: «**التوكل على الله نوعان: أحدهما**: توكل عليه في جلب حوائج العبد وحظوظه الدنيوية، أو دفع مكروهاته ومصائبه الدنيوية، **والثاني**: التوكل عليه في حصول ما يحبّه هو ويرضاه من الإيمان واليقين والجهاد والدعوة إليه.

وبين النوعين من الفضل ما لا يحصيه إلّا الله، فمتى توكل عليه

---

(١) رواه الترمذي (٤/ ٢٣٤٤).
(٢) «سير أعلام النبلاء» (٤/ ٣٢٥).
(٣) «سير أعلام النبلاء» (١١/ ٤٨٥).

العبد في النوع الثاني حق توكله، كفاه النوع الأول تمام الكفاية. ومتى توكل عليه في النوع الأول دون الثاني، كفاه أيضًا، لكن لا يكون له عاقبة المتوكل عليه فيما يحبه ويرضاه. فأعظم التوكل عليه، التوكل في الهداية، وتجريد التوحيد، ومتابعة الرسول، وجهاد أهل الباطل. فهذا توكل الرسل وخاصة أتباعهم»[(١)].

وقال ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ: «فأفضل التوكل التوكل في الواجب ـ أعني واجب الحق، وواجب الخلق، وواجب النفس ـ وأوسعه وأنفعه: التوكل في التأثير في الخارج في مصلحة دينية، أو في دفع مفسدة دينية، وهو توكل الأنبياء في إقامة دين الله، ودفع فساد المفسدين في الأرض، وهذا توكل ورثتهم.

ثم الناس بعد في التوكل على حسب هممهم ومقاصدهم؛ فمن متوكل على الله في حصول الملك، ومن متوكل في حصول رغيف. ومن صدق توكله على الله في حصول شيء ناله»[(٢)].

وقال أيضًا رَحِمَهُ اللَّهُ: «وحقيقة التوكل: القيام بالأسباب، والاعتماد بالقلب على المسبب»[(٣)].

وقال ابن سعدي رَحِمَهُ اللَّهُ: «وحقيقة التوكل على الله: أن يعلم العبد أن الأمر كله لله، وأنه ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، وأنه هو النافع الضار المعطي المانع، وأنه لا حول ولا قوة إلا بالله. فبعد هذا العلم يعتمد بقلبه على ربه في جلب مصالح دينه ودنياه، وفي دفع المضار، ويثق غاية الوثوق بربه في حصول مطلوبه، وهو مع هذا باذل جهده في فعل الأسباب النافعة.

فمتى استدام العبد هذا العلم وهذا الاعتماد والثقة فهو المتوكل

---

(١) «الفوائد» (ص٨٦).
(٢) «مدارج السالكين» (٢/ ١١٤).
(٣) «سير أعلام النبلاء» (٣/ ٤٩٩).

على الله حقيقة، وليبشر بكفاية الله له ووعده للمتوكلين، ومتى علق ذلك بغير الله فهو مشرك، ومن توكل على غير الله، وتعلق به، وكل إليه وخاب أمله»(١).

فيه فوائد

الأولى: منزلة التوكل في الكتاب والسُّنّة.

الثانية: حقيقة التوكل، وحكمه، ومجالاته.

الثالثة: فضل التوكل، وعِظَم ثمراته.

الرابعة: التوكل لا يكون صحيحًا إلّا مع بذل الأسباب.

الخامسة: التوكل عقيدة وعمل.

السادسة: معرفة توكل خاصة الرسل وورثتهم.

السابعة: حاجة العِباد إلى التوكل على الله في كل أحوالهم، وعدم استغنائهم عنه.

الثامنة: معرفة قوله ﷺ: «**حَقَّ تَوَكُّلِهِ**»، وأنها اعتقاد، واعتماد، وبذل للأسباب الشرعية.

التاسعة: أثر التوكل في ثبات العبد عند حلول الشدائد والفتن والمتغيرات.

العاشرة: معرفة حال المتوكل على الله، والمتوكل على غيره.

الحادية عشرة: التوكل على غير الله شرك.

۞ ۞ ۞

---

(١) «القول السديد» (١٣٤).

٢١

باب ما جاء في التوبة إلى الله تعالى

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةً نَّصُوحًا﴾ [التحريم: ٨].

وقال تعالى: ﴿وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ١١﴾ [الحجرات: ١١].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**للهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوبَةِ عَبْدِهِ حِينَ يتوبُ إِلَيْهِ مِنْ أَحَدِكُمْ كَانَ عَلَى رَاحِلَتِهِ بِأَرْضٍ فَلَاةٍ، فَانْفَلَتَتْ مِنْهُ، وَعَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ فَأَيِسَ مِنْهَا، فَأَتَى شَجَرَةً فاضطَجَعَ فِي ظِلِّهَا وَقَدْ أَيِسَ مِنْ رَاحِلَتِهِ، فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِك إِذْ هُوَ بِهَا قَائِمَةً عِنْدَهُ، فَأَخَذَ بِخِطَامِهَا، ثُمَّ قَالَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ: اللَّهُمَّ أَنْتَ عَبْدِي وَأَنَا رَبُّك! أَخْطَأَ مِنْ شِدَّةِ الفَرَحِ**»[(١)].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «**وَاللهِ إِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ فِي الْيَوْمِ أَكْثَرَ مِنْ سَبْعِينَ مَرَّةً**»[(٢)].

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: «**النَّدَمُ تَوْبَةٌ**»[(٣)].

وعن طلق بن حبيب رحمه الله قال: «إنّ حقوق الله أعظم من أن يقوم بها العباد، وإنْ نِعَم الله أكثر من أَن تحصى، ولكن أَصْبِحوا تائبين وأَمْسُوا تائبين»[(٤)].

وعن الحسن البصري رحمه الله قال: «ابن ادم! ترك الخطيئة أَهون عليك من معالجة التوبة، وما يُؤَمِّنك أن تكون أَصبت كبيرة أُغلق دونها

(١) رواه مسلم (٤/ ٢٧٤٧).
(٢) رواه البخاري (٥/ ٥٩٤٨).
(٣) رواه ابن ماجه (٢/ ٤٢٥٢).
(٤) «سير أعلام النبلاء» (٤/ ٦٠٢).

باب التوبة، فأنت في غير معمل»[١].

وعن سعيد الجريري رَحِمَهُ اللَّهُ قال: «قلت للحسن رَحِمَهُ اللَّهُ: يا أبا سعيد، الرجل يُذنب ثم يتوب، ثم يُذنب ثم يتوب، حتى متى؟ قال: ما أعلم هذا إلا أخلاق المؤمنين»[٢].

وقال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: «فالتوبة المشروعة هي الرجوع إلى الله وإلى فعل ما أمر به وترك ما نهى عنه، وليست التوبة من فعل السيئات فقط كما يظن كثير من الجهال، لا يتصورون التوبة إلا عما يفعله العبد من القبائح كالفواحش والمظالم؛ بل التوبة من ترك الحسنات المأمور بها أهم من التوبة من فعل السيئات المنهي عنها، فأكثر الخلق يتركون كثيرًا مما أمرهم الله به من أقوال القلوب وأعمالها وأقوال البدن وأعماله، وقد لا يعلمون أن ذلك مما أُمروا به، أو يعلمون الحق ولا يتبعونه، فيكونون إما ضالين بعدم العلم النافع، وإما مغضّوبًا عليهم بمعاندة الحق بعد معرفته، وقد أمر الله عباده المؤمنين أن يدعوه في كل صلاة بقوله: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾ [الفاتحة: ٦ ـ ٧]»[٣].

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: «التوبة هي مقام يستصحبه العبد من أول ما يدخل فيه إلى آخر عمره، ولا بد منه لجميع الخلق، فجميع الخلق عليهم أن يتوبوا، وأن يستديموا التوبة»[٤][٥].

---

(١) «سير أعلام النبلاء» (٤/٥٧٨).
(٢) «حلية الأولياء» (٦/٢٠١).
(٣) «جامع الرسائل» (١/٢٢٨).
(٤) «الفتاوى» (١١/٦٨٨).
(٥) قال العلماء: التوبة واجبة من كل ذنب، فإن كانت المعصية بين العبد وبين الله تعالى لا تتعلق بحق آدمي، فلها ثلاثة شروط: **أحدها**: أن يقلع عن المعصية، **الثاني**: أن يندم على فعلها، **والثالث**: أن يعزم ألا يعود إليها أبدًا.
قال النووي في رياض الصالحين: «فإن فقد أحد الثلاثة لم تصح التوبة. وينبغي على العبد الحذر من ثلاثة أمور: **أولًا**: خوف القدوم على الله قبل التوبة، =

وقال ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ: «التوبة هي الرجوع مما يَكْرهه الله ظاهرًا وباطنًا إلى ما يحبّه ظاهرًا وباطنًا، ويدخل في مسماها: الإسلام والإيمان والإحسان، وتتناول جميع المقامات، ولهذا كانت غاية كل مؤمن، وبداية الأمر وخاتِمته كما تقدم، وهي الغاية التي وُجِد لأجلها الخلق والأمر، والتوحيد جزء منها؛ بل هو جزؤها الأعظم الذي عليه بناؤها، وأكثر الناس لا يعرفون قدر التوبة ولا حقيقتها، فضلًا عن القيام بها علمًا وعملًا وحالًا، ولم يجعل الله تعالى محبته للتوابين إلّا وهم خواص الخلق لديه»[1].

فيه فوائد

الأولى: منزلة التوبة في الكتاب والسُّنّة.

الثانية: حقيقة التوبة، وحكمها، وفضلها.

الثالثة: فرح الله بتوبة عبده إليه.

الرابعة: حاجة العبد للتوبة والاستغفار مهما بلغ من العلم والتقوى.

الخامسة: الناس على قسمين: تائب لله، وظالم لنفسه، فلينظر العبد لحاله من أي القسمين هو.

السادسة: الندم توبة.

السابعة: التوبة تارةً تكون من التقصير في الفرائض، وتارةً تكون من ارتكاب الذنوب.

الثامنة: أهمية ملازمة الاستغفار والتوبة في الحياة.

= **ثانيًا**: عدم الندم على ما فات من مخالفة أمر الله، **ثالثًا**: عدم التّشمير والجد في استدراك ما فات من تفريط وتقصير».

(١) «مدارج السالكين» (١/ ٣٠٦).

التاسعة: التوبة النافعة في النجاة من وعيد الله هي التوبة النصوح.

العاشرة: المؤمن لا يصر على المعاصي؛ بل يستغفر ويتوب.

الحادية عشرة: ترك الذنب أَهون من معالجة التوبة.

الثانية عشرة: الخوف من الموت قبل التوبة.

الثالثة عشرة: الوعيد الشديد للمعرضين عن التوبة.

۞ ۞ ۞

الفصل الرابع

أهمية العبودية، وبيان مفهومها، وأركانها، وأنوعها

١

باب مكانة العبادة في الإسلام والأمر بها

قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ [الذاريات: ٥٦].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ...﴾ [البقرة: ٢١].

وقال تعالى: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣].

وقال تعالى: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ۝٤٦﴾ [فصلت: ٤٦].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: إن الله تعالى قال: **«مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُهُ عَلَيْهِ، وَلَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ التي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ التي يَمْشِي بِهَا، وَلَئِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ»**[1].

وعن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله! أخبرني بعمل يدخلني الجنة ويباعدني من النار. قال: **«لَقَدْ سَأَلْتَ عَنْ عَظِيمٍ، وَإِنَّهُ لَيَسِيرٌ عَلَى مَنْ يَسَّرَهُ اللهُ عَلَيْهِ: تَعْبُدُ اللهَ لَا تُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، وَتُقِيمُ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِي الزَّكَاةَ، وَتَصُومُ رَمَضَانَ، وَتَحُجُّ الْبَيْتَ. ثُمَّ قَالَ: أَلَا أَدُلُّكَ عَلَى أَبْوَابِ الْخَيْرِ؟ الصَّوْمُ جُنَّةٌ، وَالصَّدَقَةُ تُطْفِئُ الْخَطِيئَةَ؛ كَمَا يُطْفِئُ الْمَاءُ النَّارَ، وَصَلَاةُ الرَّجُلِ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ»**. ثُمَّ تَلَا: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ...﴾ حَتَّى بَلَغَ ﴿يَعْمَلُونَ ۝١٧﴾. ثُمَّ قَالَ: **«أَلَا أُخْبِرُكَ بِرَأْسِ الْأَمْرِ**

(١) رواه البخاري (٦٥٠٢).

وَعَمُودِهِ وَذُرْوَةِ سَنَامِهِ؟» قُلْتُ: بَلَى يَا رَسُولَ الله. قَالَ: «**رَأْسُ الْأَمْرِ الْإِسْلَامُ، وَعَمُودُهُ الصَّلَاةُ، وَذُرْوَةُ سَنَامِهِ الْجِهَادُ**». ثُمَّ قَالَ: «**أَلَا أُخْبِرُكَ بِمِلَاكِ ذَلِكَ كُلِّهِ؟**» فَقُلْتُ: بَلَى يَا رَسُولَ الله! **فَأَخَذَ بِلِسَانِهِ** وَقَالَ: «**كُفَّ عَلَيْكَ هَذَا**». قُلْتُ: يَا نَبِيَّ الله، وَإِنَّا لَمُؤَاخَذُونَ بِمَا نَتَكَلَّمُ بِهِ؟ فَقَالَ: «**ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ، وَهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ عَلَى وُجُوهِهِمْ** ـ أَوْ قَالَ: **عَلَى مَنَاخِرِهِمْ** ـ **إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ**»(١).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «**سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ... وَشَابٌّ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ رَبِّهِ**»(٢).

وعن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال: صَلَّيْتُ مَعَ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم ذَاتَ لَيْلَةٍ فَافْتَتَحَ الْبَقَرَةَ، فَقُلْتُ: يَرْكَعُ عِنْدَ الْمِئَةِ؛ ثُمَّ مَضَى، فَقُلْتُ: يُصَلِّي بِهَا فِي رَكْعَةٍ؛ فَمَضَى؛ فَقُلْتُ: يَرْكَعُ بِهَا؛ ثُمَّ افْتَتَحَ النِّسَاءَ فَقَرَأَهَا، ثُمَّ افْتَتَحَ آلَ عِمْرَانَ فَقَرَأَهَا، يَقْرَأُ مُتَرَسِّلًا، إِذَا مَرَّ بِآيَةٍ فِيهَا تَسْبِيحٌ سَبَّحَ، وَإِذَا مَرَّ بِسُؤَالٍ سَأَلَ، وَإِذَا مَرّ بِتَعَوُّذٍ تَعَوَّذَ؛ ثُمَّ رَكَعَ، فَجَعَلَ يَقُولُ: «**سُبْحَانَ رَبِّيَ الْعَظِيمِ**»، فَكَانَ رُكُوعُهُ نَحْوًا مِنْ قِيَامِهِ؛ ثُمَّ قَالَ: «**سَمِعَ الله لِمَنْ حَمِدَهُ، رَبَّنَا لَكَ الْحَمْدُ**»، ثُمَّ قَامَ طَوِيلًا قَرِيبًا مِمَّا رَكَعَ؛ ثُمَّ سَجَدَ، فَقَالَ: «**سُبْحَانَ رَبِّيَ الْأَعْلَى**»، فَكَانَ سُجُودُهُ قَرِيبًا مِنْ قِيَامِهِ(٣).

وعن معقل بن يسار رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**الْعِبَادَةُ فِي الْهَرْجِ كَهِجْرَةٍ إِلَيَّ**»(٤).

وقال أبو الأحوص رحمه الله: قال لنا أبو إسحاق السبيعي: «يا معشر الشباب، اغتنموا ـ يعني: قوتكم وشبابكم ـ؛ قلما مرَّت بي ليلة إلّا وأنا

(١) رواه الترمذي (٢٦١٦).
(٢) رواه البخاري (١/ ٦٢٩).
(٣) رواه مسلم (١/ ٧٧٢).
(٤) رواه مسلم (٤/ ٢٩٤٨).

أقرأ فيها ألف آية، وإني لأقرأ البقرة في ركعة، وإني لأصوم الأشهر الحرم، وثلاثة أيام من كل شهر، والاثنين والخميس»(١).

وقال يوسف بن الحسين رَحِمَهُ اللَّهُ: «في الدنيا طُغْيانان: طغيان العلم، وطغيان المال. والذي ينجيك من طغيان العلم العبادة، والذي ينجيك من طغيان المال الزهد فيه»(٢).

وعن سليمان بن المغيرة رَحِمَهُ اللَّهُ قال: «سمعت ثابتًا البناني يقول: لا يُسمَّى عابدٌ أبدًا عابدًا، وإن كان فيه كلُّ خصلة خير، حتى تكون فيه هاتان الخصلتان: الصوم والصلاة؛ لأنهما من لَحْمه ودَمِه»(٣).

وعن سعيد بن جبير رَحِمَهُ اللَّهُ قال: «لقيني مسروق، فقال: يا سعيد، ما بقي شيء يُرغَب فيه، إلّا أن نُعَفِّر وجوهنا في التراب»(٤).

وعن عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ اللَّهُ، قال: «ألا إن أفضل العبادة: أداء الفرائض، واجتناب المحارم»(٥).

وعن عون بن عبد الله رَحِمَهُ اللَّهُ، قال في قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾ [القصص: ٧٧]؛ قال: «إن ناسًا يضعونها على غير موضعها: إنما هي: أقبل على طاعة ربك وعبادته»(٦).

وعن عبد الرحمٰن بن مهدي رَحِمَهُ اللَّهُ قال: «لو قيل لحماد بن سلمة: إنك تموت غدًا، ما قَدَر أن يزيد في العمل شيئًا»(٧).

وقال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: «فكمال المخلوق في تحقيق عبوديته لله، وكلما ازداد العبد تحقيقًا للعبودية، ازداد كماله، وعلت درجته، ومن توهم أن المخلوق يخرج عن العبودية بوجه من الوجوه أو أن الخروج عنها

---

(١) «سير أعلام النبلاء» (٥/ ٣٩٧).
(٢) «اقتضاء العلم العمل» (١/ ٥).
(٣) «حلية الأولياء» (٢/ ٣١٩).
(٤) «حلية الأولياء» (٢/ ٩٦).
(٥) «حلية الأولياء» (٥/ ٢٩٦).
(٦) «حلية الأولياء» (٤/ ٢٤٧).
(٧) «حلية الأولياء» (٦/ ٢٥٠).

أكمل فهو من أجهل الخلق وأضلهم»[(١)].

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: «من أراد السعادة الأبدية، فليلزم عتبة العبودية»[(٢)].

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: « العبادة هي اسم جامع لكل ما يُحبّه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة»[(٣)].

وقال ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ: «والتوكل نصف الدين، والنصف الثاني الإنابة، فإن الدين استعانة وعبادة، فالتوكل هو الاستعانة، والإنابة هي العبادة»[(٤)].

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: «فَلَا يكون العبد متحققًا بـ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ إلا بأصلين عظيمين: أحدهما: متابعة الرسول ﷺ. والثاني: الإخلاص للمعبود، فهذا تحقيق ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾»[(٥)].

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: «والعبادة تجمع أصلين: غاية الحب بغاية الذل والخضوع، والعرب تقول: طريق معبد؛ أي: مذلّل، والتعبد: التذلل والخضوع؛ فمن أحببته ولم تكن خاضعًا له، لم تكن عابدًا له؛ ومن خضعت له بلا محبة، لم تكن عابدًا له حتى تكون محبًّا خاضعًا. ومن هاهنا كان المنكرون محبة العباد لربهم منكرين حقيقة العبودية»[(٦)].

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: «**فصل: وبنى** ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ [الفاتحة: ٥] **على أربع قواعد**: التحقق بما يحبه الله ورسوله، ويرضاه من: قول اللسان والقلب، وعمل القلب والجوارح.

فالعبودية: اسم جامع لهذه المراتب الأربع؛ فأصحاب ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ [الفاتحة: ٥] حقًّا هم أصحابها.

فقول القلب: هو اعتقاد ما أخبر الله سبحانه به عن نفسه، وعن أسمائه وصفاته وأفعاله وملائكته ولقائه على لسان رسله.

---

(١) «الفَتاوَى» (١٠/ ١٧٦).
(٢) «مدارج السالكين» (١/ ٤٢٩).
(٣) «الفَتاوَى» (١٠/ ١٤٩).
(٤) «مدارج السالكين» (٢/ ١٣٢).
(٥) «مدارج السالكين» (١/ ٨٣).
(٦) «مدارج السالكين» (١/ ٩٥).

وقول اللسان: الإخبار عنه بذلك، والدعوة إليه، والذّبّ عنه، وتبيين بطلان البدع المخالفة له، والقيام بذكره، وتبليغ أوامره.

وعمل القلب: كالمحبة له، والتوكل عليه، والإنابة إليه، والخوف منه والرجاء له، وإخلاص الدين له، والصبر على أوامره، وعن نواهيه، وعلى أقداره، والرضى به وعنه، والموالاة فيه، والمعاداة فيه، والذل له والخضوع، والإخبات إليه، والطمأنينة به، وغير ذلك من أعمال القلوب التي فَرْضُها أفرض من أعمال الجوارح، ومستحبها أحب إلى الله من مستحبها، وعمل الجوارح بدونها إما عديم المنفعة أو قليل المنفعة.

وأعمال الجوارح: كالصلاة والجهاد، ونقل الأقدام إلى الجمعة والجماعات، ومساعدة العاجز، والإحسان إلى الخلق، ونحو ذلك.

فـ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾: التزام لأحكام هذه الأربعة، وإقرار بها، ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾: طلب للإعانة عليها والتوفيق لها، و﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦﴾: متضمِّن للتعريف بالأمرين على التفصيل، وإلهام القيام بهما، وسلوك طريق السالكين إلى الله بها...» ثم قال: «وجميع الرسل إنما دعوا إلى ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾؛ فإنهم كلهم دعوا إلى توحيد الله وإخلاص عبادته، من أولهم إلى آخرهم»[(١)].

فيه فوائد

الأولى: منزلة العبودية في الكتاب والسُّنّة.

الثانية: مفهوم العبادة، وتعلّقها بالقلوب، والأقوال، والأعمال، فعلًا وتركًا[(٢)].

---

(١) «مدارج السالكين» (١/ ١٢٠).

(٢) سبق ذكر بيان شروط العبادة وأركانها، بما يغني عن إعادتها في هذا الباب.

الثالثة: حديث معاذ أصل في الأمر بالعبودية، وأنواعها، وتفاوت درجات الناس فيها إلى مُقتصدين ومُقَرَّبين.

الرابعة: فرائض العبادات واجبة على كلِّ مسلم مكلّف إلى الممات، بخلاف نوافلها.

الخامسة: أفضل العبادة أداء الفرائض، وترك المحرمات، ثم الزيادة عليهما بفعل النوافل وترك المكروهات وفضول المباحات.

السادسة: من فضائل العبادة دخول الجنّة، والنجاة من النار، والتطَهُّر من مساوئ الأخلاق والأعمال.

السابعة: العبادة تتأكد ويتفاضل ثوابها في زمن الفتن.

الثامنة: العبادة طريق إلى السعادة الأبدية.

التاسعة: صفة عبادة النبي ﷺ في قيام الليل.

العاشرة: معرفة أحوال السَّلَف في العبادة.

الحادية عشرة: حاجة العبد للعبودية مهما بلغ من العلم والتقوى.

الثانية عشرة: العبادة تُذهب طغيان العلم.

الثالثة عشرة: أثر العبادة في حياة طالب العلم.

الرابعة عشرة: العبد لا يكمل إسلامه، ويتم إيمانه، إلا إذا حقق العبودية الخالصة لله تعالى إلى الممات.

الخامسة عشرة: معرفة ما يدخل في حدِّ العبادة، وما لا يدخل فيها.

السادسة عشرة: الترك الذي يُثاب عليه العبد هو الترك الوجودي لا العدمي.

السابعة عشرة: معرفة المخالفات العلمية والعملية في العبادة.

الثامنة عشرة: معرفة انحراف الذين يتركون بعض الواجبات الشرعية، أو يفعلون بعض المحرمات تديُّنًا.

التاسعة عشرة: الدين كلّه قائم على أمرين، وهما: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾.

٢

باب في أفضل نوافل العبادة

قال تعالى: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ۝٤﴾ [الليل: ٤].

وقال النبي ﷺ: «**فَضْلُ الْعِلْمِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ فَضْلِ الْعِبَادَةِ، وَخَيْرُ دِينِكُمُ الْوَرَعُ**»(١).

وقال الإمام مالك رحمه الله: «إن الله قَسَم الأعمال كما قَسَم الأرزاق، فَرُبّ رجل فُتِح له في الصلاة، ولم يُفتَح له في الصوم، وآخر فُتِح له في الصدقة، ولم يُفتَح له في الصوم، وآخر فُتح له في الجهاد، فنشر العلم من أفضل أعمال البر، وقد رضيت بما فُتِح لي فيه، وما أَظن ما أنا فيه بدون ما أنت فيه، وأَرجو أن يكون كِلانا على خير وبر»(٢).

وقال ابن القيِّم رحمه الله: «الصنف الرابع: قالوا: إن أفضل العبادة العمل على مرضاة الربّ في كل وقت بما هو مقتضى ذلك الوقت ووظيفته»(٣).

فيه فوائد

الأولى: تنوُّع نوافل العبادات في الشرع.

الثانية: مراعاة الشرع لاختلاف أحوال الناس في نوافل العبادات.

الثالثة: أفضل أبواب الخير والنوافل: الاشتغال بالعلم الشرعي تعلّمًا وتعليمًا.

---

(١) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (١/ ٣١٤)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٢/ ٤٢١٤).

(٢) «سير أعلام النبلاء» (٨/ ١١٤).

(٣) «مدارج السالكين» (١/ ٨٨). وقد ذكر اختلاف العلماء في أفضل أنواع العبادة، فارجع إليه إن أردت المزيد. وانظر أيضًا: «طريق الهجرتين» (١/ ٢٨٠).

الرابعة: أهل السُّنّة والجماعة يُكمِّل بعضهم بعضًا في أبواب الخير، ونوافل العبادات.

الخامسة: خطأ الإنكار على من فُتح له في باب من أبواب الخير، ولم يهمل ما يجب عليه شرعًا كالدعوة إلى التوحيد والسُّنّة، والتحذير من الشرك والبدعة.

السادسة: معرفة القَدْر الذي يشترك فيه المسلمون جميعًا باعتبار العمل، ولا يُعذر أحد بتركه، وهو القيام بالواجبات، والترك للمحرمات والقَدْر الذي يتفاضلون فيه.

❁ ❁ ❁

٣

باب في أنّ العبودية لله تُحرِّر من عبودية ما سواه

قال تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ۝٥٨﴾ [التوبة: ٥٨].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ: قال: «**تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ، وَعَبْدُ الدِّرْهَمِ، وَعَبْدُ الخَمِيصَةِ؛ إِنْ أُعْطِيَ رَضِيَ، وَإِنْ لَمْ يُعْطَ سَخِطَ؛ تَعِسَ وَانْتَكَسَ، وَإِذَا شِيكَ فَلَا انْتَقَشَ. طُوبَى لِعَبْدٍ آخِذٍ بِعِنَانِ فَرَسِهِ فِي سَبِيلِ اللهِ، أَشْعَثَ رَأْسُهُ، مُغْبَرَّةٍ قَدَمَاهُ، إِنْ كَانَ فِي الحِرَاسَةِ، كَانَ فِي الحِرَاسَةِ، وَإِنْ كَانَ فِي السَّاقَةِ كَانَ فِي السَّاقَةِ، إِنِ اسْتَأْذَنَ لَمْ يُؤْذَنْ لَهُ، وَإِنْ شَفَعَ لَمْ يُشَفَّعْ**»(١).

وقال شيخ الإسلام رحمه الله: «فمن لم يكُنِ الله معبودَه، ومُنتهى حبِّه وإرادته؛ بل استكبر عن ذلك، فلا بد أن يكون له مراد محبوب يَسْتَعْبِدُه غير الله فيكون عبدًا لذلك المراد المحبوب: إمّا المال، وإما الجاه، وإما الصُّور، وإمّا ما يتخذُه إلهًا من دون الله»(٢).

وقال أيضًا رحمه الله: «فأما من استعبد قلبَه صورةٌ محرّمةٌ ـ امرأةٌ أو صبيٌّ، فهذا هو العذاب الذي لا يُدانيه عذاب، وهؤلاء عُشّاق الصور والنِّساء من أعظم الناس عذابًا، وأقلّهم ثوابًا، فإن العاشق لصورة، إذا بقي قلبه متعلِّقًا بها مُسْتعبَدًا لها، اجتمع له من أنواع الشر والفساد ما لا يُحصيه إلّا ربّ العِباد، ولو سَلِم من فعل الفاحشة الكبرى»(٣).

---

(١) رواه البخاري (٣/ ٢٧٣٠).
(٢) «العبودية» (ص٢١).
(٣) «العبودية» (ص١٦).

فيه فوائد

الأولى: فضل العبودية لله، وعِظم ثمراتها.

الثانية: العبودية لله تُحرِّر من عبودية ما سواه.

الثالثة: الناس على قسمين: عبد مخلص لله، وعبد لغير الله.

الرابعة: العبودية لله تُحرِّر العبد من رقِّ الشهوات، والذلّ لغير الله.

الخامسة: بيان أحوال من عَلِق قلبه بغير الله؛ سواء بالمال أو الرياسة أو الصور أو غيرهما.

۞ ۞ ۞

٤

باب ما جاء في المسارعة إلى الخيرات

قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [الأنبياء: ٩٠].

وقال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الجاثية: ٢١].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «**بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ سَبْعًا: هَلْ تَنْتَظِرُونَ إِلَّا فَقْرًا مُنْسِيًا، أَوْ غِنًى مُطْغِيًا، أَوْ مَرَضًا مُفْسِدًا، أَوْهَرَمًا مُفَنِّدًا، أَوْ مَوْتًا مُجْهِزًا، أَوِ الدَّجَّالَ فَشَرُّ غَائِبٍ يُنْتَظَرُ، أَوِ السَّاعَةَ فَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ**»[(١)].

وعن زيد بن أرقم، عن أبيه رضي الله عنه قال: سمعت عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: «أَمَرَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ أَنْ نَتَصَدَّقَ، وَوَافَقَ ذَلِكَ مَالٌ عِنْدِي، فَقُلْتُ: الْيَوْمَ أَسْبِقُ أَبَا بَكْرٍ إِنْ سَبَقْتُهُ يَوْمًا. قَالَ: فَجِئْتُ بِنِصْفِ مَالِي، قَالَ: فَقَالَ لِي رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَا أَبْقَيْتَ لِأَهْلِكَ؟**» قَالَ: فَقُلْتُ: مِثْلَهُ. وَأَتَى أَبُو بَكْرٍ بِكُلِّ مَا عِنْدَهُ؛ فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَا أَبْقَيْتَ لِأَهْلِكَ؟**» قَالَ: أَبْقَيْتُ لَهُمُ اللهَ وَرَسُولَهُ. قُلْتُ: لَا أُسَابِقُكَ إِلَى شَيْءٍ أَبَدًا»[(٢)].

وقال خالد بن معدان رحمه الله: «إذا فُتح لأحدكم باب خير، فَلْيُسرع إليه، فإنه لا يدري متى يُغْلق عنه»[(٣)].

---

(١) رواه الترمذي (٤/ ٢٣٠٦).
(٢) رواه الترمذي (٥/ ٣٦٧٥).
(٣) «سير أعلام النبلاء» (٤/ ٥٤٠).

وقال سعيد بن عامر رَحِمَهُ اللَّهُ عن سلام بن أبي مطيع ـ أو غيره ـ قال: «ما كان يونس بأكثرهم صلاة ولا صومًا، ولكن ـ لا والله ـ ما حضر حقّ للهِ إلّا وهو مُتهيئ له»[١].

وقال أبو مسلم الخولاني رَحِمَهُ اللَّهُ: «لو رأيتُ الجنة عِيانًا أو النار عِيانًا، ما كان عندي مستزاد»[٢].

فيه فوائد

الأولى: فضل المسارعة إلى فعل الخيرات.

الثانية: المسارعة إلى الخيرات من هدي الأنبياء والصالحين.

الثالثة: المسارعة إلى الخيرات تتأكد في بعض الأحوال.

الرابعة: الفرق بين من أطاع الله، وسارع في الخيرات، وبين من فرّط أو أعرض عن طاعة الله.

الخامسة: مسارعة السَّلَف إلى فعل الخيرات.

السادسة: ذمّ التسويف.

السابعة: ينبغي للعبد أن يجتهد في فعل الخيرات قبل فواتها، أو حصول المعوقات عنها.

۞ ۞ ۞

(١) «سير أعلام النبلاء» (٦/ ٢٩١).
(٢) «سير أعلام النبلاء» (٤/ ٩).

٥

باب أَحبّ العمل إلى الله أَدْومه وإن قلّ

قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا﴾ [النحل: ٩٢].

وقال النبي ﷺ: «**أَحَبُّ الْأَعْمَالِ إِلَى اللهِ أَدْوَمُهَا، وَإِنْ قَلَّ**»(١).

وعن علقمة: قلت لعائشة رضي الله عنها: هل كان رسول الله ﷺ يختصّ من الأيام شيئًا؟ قالت: «لَا، كَانَ عَمَلُهُ دِيمَةً، وَأَيُّكُمْ يُطِيقُ مَا كَانَ رَسُولُ الله ﷺ يُطِيقُ»(٢).

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**يَا عَبْدَ الله، لَا تَكُنْ مِثْلَ فُلَانٍ، كَانَ يَقُومُ اللَّيْلَ، فَتَرَكَ قِيَامَ اللَّيْلِ**»(٣).

وعن عائشة رضي الله عنها، قالت: «كَانَ رَسُولُ الله ﷺ إِذَا فَاتَتْهُ الصَّلَاةُ مِنَ اللَّيْلِ مِنْ وَجَعٍ أَوْ غَيْرِهِ، صَلَّى مِنَ النَّهَارِ ثِنْتَيْ عَشْرَةَ رَكْعَةً»(٤).

وقال عفّان رحمه الله: «قد رأيت من هو أعْبَدُ من حماد بن سلمة، لكن ما رأيت أشدّ مواظبة على الخير، وقراءة للقرآن، والعمل لله تعالى منه»(٥).

وعن عمران القصير رحمه الله قال: «سمعتُ الحسن ـ وسأله رجل فقال: إني سألت فقيهًا فقال ـ: وهل رأيتَ فقيهًا؟ لا أبا لك، إنما الفقيه: الزاهد في الدنيا، البصير بذنبه، المداوم على عبادة ربه»(٦).

(١) رواه مسلم (١/ ٧٨٣).
(٢) رواه البخاري (٢/ ١٨٨٦).
(٣) رواه البخاري (١/ ١١٠١).
(٤) رواه مسلم (١/ ٧٤٦).
(٥) «سير أعلام النبلاء» (٧/ ٤٤٧).
(٦) «حلية الأولياء» (٢/ ١٤٧).

فيه فوائد

الأولى: أحبُّ العمل إلى الله أَدْومه، وإن قلَّ.

الثانية: فضل المواظبة على نوافل العبادات.

الثالثة: لزوم السَّلَف للطاعة، واستمرارهم عليها.

الرابعة: مشروعية قضاء العبد ما فات من وِرْدِه.

الخامسة: ذمُّ من اجتهد في طاعة، ثم تركها.

❁ ❁ ❁

٦

باب الاقتصاد في العبادة

قال تعالى: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ [الحديد: ٢٧].

وعن أنس رضي الله عنه قال: جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي ﷺ يسألون عن عبادة النبي ﷺ؛ فلما أُخبروا كأنهم تقالُّوها، وقالوا: أين نحن من النبي ﷺ وقد غُفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر. قال أحدهم: أما أنا فأُصلِّي الليل أبدًا. وقال الآخر: وأنا أَصوم الدهر أبدًا ولا أفطر. وقال الآخر: وأنا أَعتزل النساء فلا أَتزوج أبدًا. فجاء رسول الله ﷺ إليهم، فقال: «**أَنْتُمُ الّذِينَ قُلْتُمْ كَذَا وَكَذَا؟ أَمَا وَالله إِنِّي لَأَخْشَاكُمْ للهِ، وَأَتْقَاكُمْ لَهُ؛ لَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأُصَلِّي وَأَرْقُدْ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي**»(١).

وعن أبي جحيفة وهب بن عبد الله قال: آخى النبيّ ﷺ بين سلمان وأبي الدرداء، فزار سلمان أبا الدرداء فرأى أم الدرداء متبذِّلة، فقال: ما شأنك؟ قالت: أخوك أبو الدرداء ليس له حاجة في الدنيا. فجاء أبو الدرداء فصنع له طعامًا، فقال له: كُلْ فإني صائم، قال: ما أنا بآكل حتى تأكل؛ فأكل؛ فلما كان الليل ذهب أبو الدرداء يقوم؛ فقال له: نَمْ! فنام؛ ثم ذهب يقوم؛ فقال: نَمْ! فلما كان من آخر الليل قال سلمان: قُم الآن. فصلّيا جميعًا. فقال له سلمان: إنّ لربِّك عليك حقًّا، وإنّ لنفسك عليك حقًّا، ولأهلك عليك حقًّا؛ فأعط كلّ ذي حقّ حقّه. فأَتى النبيَّ ﷺ فذكر ذلك له؛ فقال النبي ﷺ: «**صَدَقَ سَلْمَانُ**»(٢).

---

(١) رواه البخاري (٥/ ٤٧٧٦).

(٢) رواه البخاري (٢/ ١٨٦٧).

وعن أنس رضي الله عنه قال: «دَخَلَ النَّبِيُّ ﷺ الْمَسْجِدَ، فَإِذَا حَبْلٌ مَمْدُودٌ بَيْنَ السَّارِيَتَيْنِ؛ فَقَالَ: «**مَا هَذَا الْحَبْلُ؟**» قَالُوا: هَذَا حَبْلٌ لِزَيْنَبَ، فَإِذَا فَتَرَتْ تَعَلَّقَتْ بِهِ. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**حُلُّوهُ، لِيُصَلِّ أَحَدُكُمْ نَشَاطَهُ، فَإِذَا فَتَرَ فَلْيَرْقُدْ**»[(١)].

وقال ابن رجب رحمه الله: «فأما العبادات فما كان منها خارجًا عن حكم الله ورسوله بالكلية، فهو مردود على عامله، وعامله يدخل تحت قوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾﴾ [الشورى: ٢١]. فمن تقرَّب إلى الله بعمل لم يجعله الله ورسوله قربة إلى الله، فعمله باطل مردود عليه، وهو شبيه بحال الذين كانت صلاتهم عند البيت مُكَاءً وتصدية، وهذا كمن تقرّب إلى الله تعالى بسماع الملاهي أو بالرقص...»[(٢)].

فيه فوائد

الأولى: فضل التعبُّد على السنّة والاتباع.

الثانية: السُّنّة هي الميزان في العبادة وتزكية النفوس.

الثالثة: السُّنّة وسط في العبودية بين الغلو والجفاء.

الرابعة: السُّنّة إعطاء كُلّ ذي حقّ حقّه، وعدم تغليب بعض الحقوق على بعض.

الخامسة: النهي عن دعوة الناس إلى غير هدى النبي ﷺ.

السادسة: كل عبادة لم تكن على منهاج النبوة فهي مردودة.

---

(١) رواه البخاري (١/ ١٠٩٩).

(٢) «جامع العلوم والحكم» (ص٦٠).

٧

باب أهمية التعبّد بأسماء الله وصفاته

قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لله تِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ اسْمًا مِائَةٌ إِلَّا وَاحِدَةً، لَا يَحْفَظُهَا أَحَدٌ إِلَّا دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَهُوَ وَتْرٌ يُحِبُّ الْوَتْرَ**». وفي رواية: «**مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ**»(١).

وقال قوام السُّنَّة الأصبهاني رحمه الله: وقال بعض العلماء: «أول فرض فرضه الله على خلقه: معرفته، فإذا عرفه الناس عبدوه، قال الله تعالى: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [محمد: ١٩]. فينبغي للمسلمين أن يعرفوا أسماء الله وتفسيرها، فيعظموا الله حق عظمته، ولو أراد رجل أن يعامل رجلًا، طلب أن يعرف اسمه وكنيته، واسم أبيه وجده، وسأل عن صغير أمره وكبيره، فالله الذي خلقنا ورزقنا، ونحن نرجو رحمته ونخاف من سخطه أولى أن نعرف أسماءه ونعرف تفسيرها»(٢).

وقال ابن القيِّم رحمه الله في بيان مراتب إحصاء أسماء الله التي من أحصاها دخل الجنة: «المرتبة الأولى: إحصاء ألفاظها وعددها. المرتبة الثانية: فهم معانيها ومدلولها. المرتبة الثالثة: دعاؤه بها، كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠]. وهو مرتبتان: إحداهما: دعاء ثناء وعبادة، والثاني: دعاء طلب ومسألة»(٣).

وقال أيضًا رحمه الله: «لا يستقر للعبد قدم في المعرفة بل ولا في

---

(١) رواه البخاري (٥/ ٦٠٤٧).

(٢) «الحجة في بيان المحجة» (١/ ١٣٤).

(٣) «بدائع الفوائد» (٢/ ٢٧٥).

الإيمان، حتى يؤمن بصفات الربّ جلّ جلاله، ويعرفها معرفة تُخْرج عن حد الجهل بربّه، فالإيمان بالصفات وتعرفها هو أساس الإسلام، وقاعدة الإيمان، وثمرة شجرة الإحسان، فضلًا عن أن يكون من أهل العرفان...»[1].

فيه فوائد

الأولى: أهمية التعبُّد بأسماء الله وصفاته، كما أمر الله.

الثانية: مراتب إحصاء أسماء الله، وفضل من أحصاها.

الثالثة: دعاء الله بأسمائه وصفاته على قسمين: دعاء عبادة، ودعاء مسألة.

الرابعة: العبد لا يمكنه تحقيق العبودية، إلّا بمعرفة الله بأسمائه وصفاته.

الخامسة: الله تعالى أبان في كتابه أسماءه الحسنى وصفاته العلى.

۞ ۞ ۞

(١) «مدارج السالكين» (٣/ ٣٤٧).

٨

باب ما جاء في المحافظة على الصلاة

قال تعالى: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾﴾ [البقرة: ٢٣٨].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**أَلَا أَدُلُّكُمْ عَلَى مَا يَمْحُو الله بِهِ الْخَطَايَا، وَيَرْفَعُ بِهِ الدَّرَجَاتِ؟**» قالوا: بلى يا رسول الله. قال: «**إِسْبَاغُ الْوُضُوءِ عَلَى الْمَكَارِهِ، وَكَثْرَةُ الْـخُطَا إِلَى الْمَسَاجِدِ، وَانْتِظَارُ الصَّلَاةِ بَعْدَ الصَّلَاةِ، فَذَلِكُمُ الرِّبَاطُ، فَذَلِكُمُ الرِّبَاطُ**»(١).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «**إِنَّ أَثْقَلَ الصَّلَاةِ عَلَى الْمُنَافِقِينَ صَلَاةُ الْعِشَاءِ وَصَلَاةُ الْفَجْرِ، وَلَوْ يَعْلَمُونَ مَا فِيهِمَا، لَأَتَوْهُمَا وَلَوْ حَبْوًا**»(٢).

وعن ابن مسعود رضي الله عنه: قال: «مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَلْقَى اللهَ تَعَالَى غَدًا مُسْلِمًا، فَلْيُحَافِظْ عَلَى هَؤُلَاءِ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ حَيْثُ يُنَادَى بِهِنَّ، فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى شَرَعَ لِنَبِيِّكُمْ ﷺ سُنَنَ الْهُدَى، وَإِنَّهُنَّ مِنْ سُنَنِ الْهُدَى، وَلَوْ أَنَّكُمْ صَلَّيْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ كَمَا يُصَلِّي هَذَا الْـمُتَخَلِّفُ فِي بَيْتِهِ، لَتَرَكْتُمْ سُنَّةَ نَبِيِّكُمْ ﷺ وَلَوْ تَرَكْتُمْ سُنَّةَ نَبِيِّكُمْ لَضَلَلْتُمْ، وَلَقَدْ رَأَيْتُنَا وَمَا يَتَخَلَّفُ عَنْهَا إِلَّا مُنَافِقٌ مَعْلُومُ النِّفَاقِ، وَلَقَدْ كَانَ الرَّجُلُ يُؤْتَى بِهِ يُهَادَى بَيْنَ الرَّجُلَيْنِ، حَتَّى يُقَامَ فِي الصَّفِّ»(٣).

وعن أبي العالية رحمه الله قال: «كنت أرحل إلى الرجل مسيرة أيام

---

(١) رواه مسلم (١/ ٢٥١).
(٢) رواه البخاري (١/ ٦٢٦).
(٣) رواه مسلم (١/ ٦٥٤).

لأسمع منه، فأتفقد صلاته، فإن وجدته يحسنها، أقمت عليه، وإن أجده يضيعها، رحلت ولم أسمع منه، وقلت: هو لما سواها أَضْيَعُ»[(١)].

وعن ابن المسيب رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: «ما فاتتني الصلاة في جماعة منذ أربعين سنةً»[(٢)].

وعن إبراهيم النخعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: «إذا رأيت الرجل يتهاون في التكبيرة الأولى، فاغسل يدك منه»[(٣)].

وعن يونس بن عبيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: «خصلتان إذا صلحتا من العبد، صلح ما سواهما من أمره: صلاته، ولسانه»[(٤)].

وعن وكيع بن الجراح رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: «من لم يأخذ أُهْبة الصلاة قبل وقتها، لم يكن وقَّرَها»[(٥)].

وعن ابن المبارك رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: «سألت سفيان الثوري: عن الرجل يصلي، أي شيء ينوي بصلاته؟ قال: ينوي أن يناجي ربه»[(٦)].

وعن الحسن رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: «تفقّدوا الحلاوة في ثلاث: في الصلاة، وفي القرآن، وفي الذِّكْر، فإن وجدتموها، فامْضُوا وأبشروا، فإن لم تجدوها، فاعلم أن بابك مغلق»[(٧)].

فيه فوائد

الأولى: مكانة الصلاة في الكتاب والسُّنّة، والأمر بالمحافظة عليها.

الثانية: الصلاة من أكبر الأعمال التي تزكو بها النفس، وتتطهّر بها من مساوئ الأخلاق والأعمال.

---

(١) «سير أعلام النبلاء» (٤/ ٢٠٩).
(٢) «سير أعلام النبلاء» (٤/ ٢٢١).
(٣) «حلية الأولياء» (٤/ ٢١٥).
(٤) «حلية الأولياء» (٣/ ٢٠).
(٥) «حلية الأولياء» (٨/ ٣٨٠).
(٦) «حلية الأولياء» (٧/ ٦٠).
(٧) «حلية الأولياء» (٦/ ١٧١).

الثالثة: مكانة الصلاة عمومًا، وصلاة الجماعة خصوصًا في قلوب السَّلَف.

الرابعة: محافظة السَّلَف على إدراك تكبيرة الإحرام.

الخامسة: توقير السَّلَف للصلاة.

السادسة: تلذُّذُ السَّلَف في الصلاة.

السابعة: المواظبة على صلاتَيِ الفجر والعشاء دليل على البراءة من النفاق.

الثامنة: من لم يُوقّر الصلاة ويحافظ عليها، فقد دنّس نفسه.

٩

باب ما جاء في قيام الليل

قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴿٦٤﴾﴾ [الفرقان: ٦٤].

وقال تعالى: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾ [السجدة: ١٦ ـ ١٧].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «**أَفْضَلُ الصِّيَام بَعْدَ رَمَضَانَ شَهْرُ الله الْمُحَرَّمُ، وَأَفْضَلُ الصَّلَاةِ بَعْدَ الْفَرِيضَةِ صَلَاةُ اللَّيْلِ**»(١).

وعن أبي أمامة رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**عَلَيْكُمْ بِقِيَامِ اللَّيْلِ، فَإِنَّهُ دَأَبُ الصَّالِحِينَ قَبْلَكُمْ، وَهُوَ قُرْبَةٌ إِلَى رَبِّكُمْ، وَمُكَفِّرٌ لِلسَّيِّئَاتِ، وَمَنْهَاةٌ لِلْآثَامِ**»(٢).

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ قال له: «**أَحَبُّ الصَّلَاةِ إِلَى الله صَلَاةُ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَأَحَبُّ الصِّيَامِ إِلَى الله صِيَامُ دَاوُدَ، وَكَانَ يَنَامُ نِصْفَ اللَّيْلِ وَيَقُومُ ثُلُثَهُ، وَيَنَامُ سُدُسَهُ، وَيَصُومُ يَوْمًا، وَيُفْطِرُ يَوْمًا**»(٣).

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ قَامَ بِعَشْرِ آيَاتٍ لَمْ يُكْتَبْ مِنَ الْغَافِلِينَ، وَمَنْ قَامَ بِمِائَةِ آيَةٍ كُتِبَ مِنَ الْقَانِتِينَ، وَمَنْ قَامَ بِأَلْفِ آيَةٍ كُتِبَ مِنَ الْمُقَنْطِرِينَ**»(٤).

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: «وَكَانَ نَبِيُّ الله ﷺ إِذَا صَلَّى صَلَاةً أَحَبَّ

(١) رواه مسلم (٢/ ١١٦٣).
(٢) رواه الترمذي (٥/ ٣٥٤٩).
(٣) رواه البخاري (١/ ١٠٧٩).
(٤) رواه أبو داود (١/ ١٣٩٨).

أَنْ يُدَاوِمَ عَلَيْهَا، وَكَانَ إِذَا غَلَبَهُ نَوْمٌ، أَوْ وَجَعٌ عَنْ قِيَامِ اللَّيْلِ صَلَّى مِنَ النَّهَارِ ثِنْتَيْ عَشْرَةَ رَكْعَةً»(١).

وعن عمر بن الخطاب؟ قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ نَامَ عَنْ حِزْبِهِ أَوْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ، فَقَرَأَهُ فِيمَا بَيْنَ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَصَلَاةِ الظُّهْرِ، كُتِبَ لَهُ كَأَنَّمَا قَرَأَهُ مِنَ اللَّيْلِ**»(٢).

وعن ابن أبي مليكة رضي الله عنه قال: صحبتُ ابن عباس رضي الله عنه من مكة إلى المدينة، فكان إذا نزل، قام شطر الليل. فسأله أيوب: كيف كانت قراءته؟ قال: «قَرَأَ: ﴿وَجَآءَتۡ سَكۡرَةُ ٱلۡمَوۡتِ بِٱلۡحَقِّۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنۡهُ تَحِيدُ ۝١٩﴾ [ص: ١٩]، فَجَعَلَ يُرَتِّلُ، وَيُكْثِرُ فِي ذَلِكَ النَّشِيجِ»(٣).

وعن سفيان رحمه الله قال: «بلغنا أن أمّ الرَّبِيع بن خُثَيْم كانت تنادي ابنها الرّبيع، فتقول: يا بُني، يا رَبيع، ألا تَنام؟ فيقول: يا أمَّاه، من جنَّ عليه الليل، وهو يخاف البيات، حُقّ له ألا ينام. قال: فلما بلغ، ورأت ما يلقى من البكاء والسهر، نادته، فقالت: يا بني، لعلك قتلت قتيلًا. فقال: نعم يا والدة، قد قتلت قتيلًا. قالت: ومَن هذا القتيل يا بني، حتى يُتَحمَّل على أهله، فيعفُون؟ والله، لو يعلمون ما تلقى من البكاء والسهر بعد، لقد رحموك، فيقول: يا والدة، هي نفسي»(٤).

وقال مجاهد رحمه الله: «ما المجتهد فيكم اليوم، إلّا كاللاعب فيهم»(٥).

وقال الأوزاعي رحمه الله: «من أطال قيام الليل، هَوَّن الله عليه وقوفَ يوم القيامة»(٦).

وعن أنس بن سيرين رحمه الله عن امرأة مسروق، قالت: «كان مسروق

---

(١) رواه مسلم (١/ ٧٤٦).
(٢) رواه مسلم (١/ ٧٤٧).
(٣) «سير أعلام النبلاء» (٣/ ٣٤٢).
(٤) «حلية الأولياء» (٢/ ١١٤).
(٥) «الزهد» لابن المبارك (١/ ٥٩).
(٦) «سير أعلام النبلاء» (٧/ ١١٩).

يصلي حتى تَوَرَّم قدماه، فربما جلست أبكي مما أراه يصنع بنفسه»[١].

وعن إبراهيم بن محمد بن سفيان رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: «سمعتُ عاصم بن عصام البيهقي يقول: بِتُّ ليلة عند أحمد بن حنبل، فجاء بماء فوضعه، فلما أصبح نظر إلى الماء بحاله، فقال: سبحان الله! رجل يطلب العلم لا يكون له وردٌ بالليل»[٢].

وعن الفضيل بن عياض رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: «كان يقال: من أخلاق الأنبياء، والأصفياء الأخيار، الطاهرة قلوبهم ـ خلائق ثلاثة: الحِلْم، والأَناةُ، وحظ من قيام الليل»[٣].

فيه فوائد

الأولى: منزلة قيام الليل في الكتاب والسُّنّة.

الثانية: أفضل الصلاة بعد الفريضة صلاة الليل.

الثالثة: الهدي الكامل في قيام الليل هو هدي داود عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.

الرابعة: أهمية المواظبة على قيام الليل، وقضائه إذا فات.

الخامسة: فضل من قام بعشر آيات، ومائة آية، وألف آية.

السادسة: معرفة أحوال السَّلَف في قيام الليل، وتلذّذهم به.

السابعة: قيام الليل يتأكد على طلبة العلم.

الثامنة: المواظبة على نوافل الطاعات من هدي النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

❁ ❁ ❁

---

(١) «سير أعلام النبلاء» (٤/ ٦٥).

(٢) «سير أعلام النبلاء» (١١/ ٢٩٨).

(٣) «حلية الأولياء» (٨/ ٩٥).

١٠

باب ما جاء في الصيام

قال تعالى: ﴿وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ...﴾ الآية [الأحزاب: ٣٥].

وعن عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: أن رسول الله ﷺ قال: «**الصِّيَامُ وَالْقُرْآنُ يَشْفَعَانِ لِلْعَبْدِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، يَقُولُ الصِّيَامُ: أَيْ رَبِّ، إِنِّي مَنَعْتُهُ الطَّعَامَ وَالشَّهَوَاتِ بِالنَّهَارِ، فَشَفِّعْنِي فِيهِ، وَيَقُولُ الْقُرْآنُ: رَبِّ مَنَعْتُهُ النَّوْمَ بِاللَّيْلِ، فَشَفِّعْنِي فِيهِ. قَالَ: فَيُشَفَّعَانِ**»(١).

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: «أَوْصَانِي خَلِيلِي بِثَلَاثٍ لَا أَدَعُهُنَّ حَتَّى أَمُوتَ: صَوْمِ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ مِنْ كُلِّ شَهْرٍ، وَصَلَاةِ الضُّحَى، وَنَوْمٍ عَلَى وِتْرٍ»(٢).

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: أُخْبِرَ النَّبِيُّ ﷺ أَنِّي أَقُولُ: وَاللهِ لَأَصُومَنَّ النَّهَارَ، وَلَأَقُومَنَّ اللَّيْلَ مَا عِشْتُ. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَنْتَ الَّذِي تَقُولُ ذَلِكَ؟**» فَقُلْتُ لَهُ: قَدْ قُلْتُهُ بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي يَا رَسُولَ اللهِ. قَالَ: «**فَإِنَّكَ لَا تَسْتَطِيعُ ذَلِكَ؛ فَصُمْ وَأَفْطِرْ، وَنَمْ وَقُمْ، وَصُمْ مِنَ الشَّهْرِ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ، فَإِنَّ الْحَسَنَةَ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا، وَذَلِكَ مِثْلُ صِيَامِ الدَّهْرِ**». قُلْتُ: فَإِنِّي أُطِيقُ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ. قَالَ: «**فَصُمْ يَوْمًا، وَأَفْطِرْ يَوْمَيْنِ**». قُلْتُ: فَإِنِّي أُطِيقُ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ. قَالَ: «**فَصُمْ يَوْمًا، وَأَفْطِرْ يَوْمًا؛ فَذَلِكَ صِيَامُ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَهُوَ أَعْدَلُ الصِّيَامِ**». وفي رواية:

---

(١) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (١/ ٢٠٣٦)، وأحمد (٢/ ١٧٤)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٣٨٨٢).

(٢) رواه البخاري (١/ ١١٢٤).

«**هُوَ أَفْضَلُ الصِّيَامِ**». فقلْتُ: فَإِنِّي أُطِيقُ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ. فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**لَا أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ**». وَلأَنْ أَكُونَ قَبِلْتُ الثَّلَاثَةَ الْأَيَّامَ التي قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَهْلِي وَمَالِي. وفي رواية: «**لَا صَامَ مَنْ صَامَ الْأَبَدَ**»[1].

وقال السّري بن يحيى رَحِمَهُ اللهُ: «كان الحسن يصوم البيض، وأشهر الحرم، والاثنين والخميس»[2].

وعن علقمة رَحِمَهُ اللهُ قال: «أُتي عبد الله بن مسعود بشراب، فقال: أَعط علقمة، أَعط مسروقًا، فكلهم قال: إني صائم. فقال: ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَـٰرُ ۝٣٧﴾ [النور: ٣٧]»[3].

فيه فوائد

الأولى: منزلة الصيام في الكتاب والسُّنّة.

الثانية: عِظَم أجر الصيام، والثناء على أهله.

الثالثة: صيام داود أكمل الصيام.

الرابعة: تأكُّد صيام ثلاثة أيام من كل شهر.

الخامسة: معرفة أحوال السَّلَف مع الصيام.

السادسة: مواظبة السَّلَف على نوافل العبادات.

السابعة: هدي النبي ﷺ في العبادة مبني على اليسر والسهولة.

---

(١) رواه البخاري (٢/ ٣٢٣٦).
(٢) «سير أعلام النبلاء» (٤/ ٥٧٨).
(٣) «سير أعلام النبلاء» (٤/ ٧٥).

١١

باب ما جاء في ذكر الله والإكثار منه

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾﴾ [الأحزاب: ٤١].

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**أَلَا أُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرِ أَعْمَالِكُمْ، وَأَزْكَاهَا عِنْدَ مَلِيكِكُمْ، وَأَرْفَعِهَا فِي دَرَجَاتِكُمْ، وَخَيْرٍ لَكُمْ مِنْ إِنْفَاقِ الذَّهَبِ وَالْوَرِقِ، وَخَيْرٍ لَكُمْ مِنْ أَنْ تَلْقَوْا عَدُوَّكُمْ فَتَضْرِبُوا أَعْنَاقَهُمْ وَيَضْرِبُوا أَعْنَاقَكُمْ؟**» قالوا: بلى يا رسول الله. قال: «**ذِكْرُ اللهِ**»(١).

وقال رسول الله ﷺ: «**وَآمُرُكُمْ أَنْ تَذْكُرُوا اللهَ؛ فَإِنَّ مَثَلَ ذَلِكَ كَمَثَلِ رَجُلٍ خَرَجَ العَدُوُّ فِي أَثَرِهِ سِرَاعًا، حَتَّى إِذَا أَتَى عَلَى حِصْنٍ حَصِينٍ، فَأَحْرَزَ نَفْسَهُ مِنْهُمْ، كَذَلِكَ العَبْدُ لَا يُحْرِزُ نَفْسَهُ مِنَ الشَّيْطَانِ إِلَّا بِذِكْرِ اللهِ**»(٢).

وقال معاذ رضي الله عنه: «مَا عَمِلَ ابْنُ آدَمَ عَمَلًا أَنْجَى لَهُ مِنْ عَذَابِ اللهِ مِنْ ذِكْرِ اللهِ»(٣).

وقال الربيع بن أنس رحمه الله: «علامة حبّ الله كثرة ذكره، فإنك لن تحب شيئًا إلّا أكثرتَ ذكره»(٤).

وقال ثابت البُنَاني رحمه الله: «إن أهل ذكر الله ليجلسون إلى ذكر الله، وإنّ عليهم من الآثام كأمثال الجبال، وإنهم ليقومون من ذكر الله عُطْلًا ما عليهم منها شيء»(٥).

وقال مالك بن دينار رحمه الله: «ما تنعَّم المتنعِّمون بمثل ذكر الله عز وجل»(٦).

---

(١) رواه الترمذي (٥/ ٣٣٧٧).
(٢) رواه الحاكم (١/ ١٨٢٥).
(٣) رواه الترمذي (٥/ ٢٨٦٣).
(٤) «تعظيم قدر الصلاة» (٢/ ٦٧٨).
(٥) «حلية الأولياء» (٢/ ٣٢٥).
(٦) «حلية الأولياء» (٢/ ٣٥٨).

وجاء رجل للحسن رَحِمَهُ اللهُ فقال: «إني أشكو إليك قسوة قلبي. قال: أَذِبه بالذِّكْر»(١).

وقال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ في جواب له عن تفاضل الأعمال: «وأما ما سألت عنه من أفضل الأعمال بعد الفرائض، فإنه يختلف باختلاف الناس فيما يقدرون عليه وما يُناسب أوقاتهم، فلا يمكن فيه جواب جامع مُفصّل لكل أحد، لكن مما هو كالإجماع بين العلماء بالله وأمره: أن ملازمة ذكر الله دائمًا هو أفضل ما شغل العبد به نفسه في الجملة، وعلى ذلك دل حديث أبي هريرة الذي رواه مسلم: «**سَبَقَ الْمُفَرِّدُونَ**». قَالُوا: يَا رَسُولَ الله، وَمَنِ الْمُفَرِّدُونَ؟ قَالَ: «**الذَّاكِرُونَ الله كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتُ**». . .

وأقل ذلك أن يلازم العبد الأذكار المأثورة عن معلم الخير، وإمام المتقين ﷺ؛ كالأذكار المؤقتة في أول النهار وآخره»(٢).

وقال رَحِمَهُ اللهُ: «الشرع لم يستحب من الذكر إلّا ما كان كلامًا تامًّا مفيدًا مثل: «لا إلٰه إلّا الله»، ومثل: «الله أكبر»، ومثل: «سبحان الله، والحمد لله»، ومثل: «لا حول ولا قوة إلّا بالله»، ومثل: «تبارك اسم ربك»، «تبارك الذي بيده الملك»، «سبح لله ما في السماوات والأرض»، «تبارك الذي نزّل الفرقان». فأما الأسم المفرد مظهرًا مثل: «الله» (الله»، أو مضمرًا مثل: «هو» «هو»، فهذا ليس بمشروع في كتاب ولا سُنّة، ولا هو مأثور أيضًا عن أحد من سلف الأمة، ولا عن أعيان الأمة الـمُقْتَدَى بهم، وإنما لهج به قوم من ضُلَّال المتأخرين»(٣).

وقال ابن سعدي رَحِمَهُ اللهُ: «وأقلّ ذلك ـ أي: حتى يكون المرء من الذاكرين ـ أن يُلازم الإنسان أوراد الصباح والمساء، وأدبار

---

(١) «الزهد» للإمام أحمد (١/ ٢٦٦).
(٢) «الفَتاوَى» (١٠/ ٦٦٠).
(٣) «الفَتاوَى» (١٠/ ٥٥٦).

الصلوات، وعند العوارض والأسباب، وينبغي مداومة ذلك في جميع الأوقات على جميع الأحوال؛ فإن ذلك عبادة يَسبق بها العامل وهو مستريح»(١).

فيه فوائد

الأولى: منزلة الذكر في القرآن والسُّنّة، وفضله العظيم.

الثانية: الذكر حصن حصين يَتحصَّنُ به المسلم من الشّر والشيطان.

الثالثة: مكانة الذكر في حياة السَّلَف.

الرابعة: الذكر يُلِّين القلب، ويذهب قسوته.

الخامسة: بيان القدر الذي يكون به العبد من الذاكرين.

السادسة: فضل مجالس الذكر(٢).

---

(١) «تيسير الكريم الرحمٰن» (ص٦٦٧).

(٢) قال ابن رجب الحنبلي في «لطائف المعارف» (ص٢٥): «كانت مجالس النبي ﷺ مع أصحابه عامتها مجالس تذكير بالله وترغيب وترهيب؛ إما بتلاوة القرآن، أو بما آتاه الله من الحكمة والموعظة الحسنة، وتعليم ما ينفع في الدين، كما أمره الله تعالى في كتابه أن يذكر ويعظ ويقصّ، وأن يدعو إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنه، وأن يبشر وينذر، وسماه الله مبشرًا ونذيرًا، وداعيًا إلى الله. والتبشير والإنذار: هو الترغيب والترهيب؛ فلذلك كانت تلك المجالس توجب لأصحابه ـ كما ذكره أبو هريرة رضي الله عنه في هذا الحديث ـ رقة القلوب والزهد من الدنيا والرغبة في الآخرة...».

وذكر رحمه الله في (ص١٣ ـ ١٦) أحوال الناس بعد انقضاء مجلس الذكر؛ فقال:

١ ـ فمنهم من يرجع إلى هواه، فلا يتعلق بشيء مما سمعه في مجلس الذكر، ولا يزداد هدى، ولا يرتدع عن رديء. وهؤلاء شرّ الأقسام، ويكون ما سمعوه حجة عليهم، فيزدادوا به عقوبة، وهؤلاء الظالمون لأنفسهم: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَسَمۡعِهِمۡ وَأَبۡصَٰرِهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ ١٠٨﴾ [النحل: ١٠٨]. =

= ٢ ـ ومنهم من ينتفع بما سمعه، وهم على أقسام:

أ ـ فمنهم من يرتدع إلى ما سمعه عن المحرمات، ويوجب له التزام الواجبات. وهؤلاء المقتصدون أصحاب اليمين.

ب ـ ومنهم من يرتقي عن ذلك إلى التشمير في نوافل الطاعات، والتورُّع عن دقائق المكروهات، ويشتاق إلى اتباع آثار من سلف من السادات. وهؤلاء السابقون المقربون.

قال: وينقسم المنتفعون بسماع مجلس الذكر في استحضار ما سمعوه في المجلس والغفلة عنه إلى ثلاثة أقسام:

١ ـ فقسم يرجعون إلى مصالح دنياهم المباحة، فيشتغلون بها، فتذهل بذلك قلوبهم عما كانوا يجدونه في مجلس الذكر من استحضار عظمة الله وجلاله وكبريائه ووعده ووعيده وثوابه وعقابه. وهذا هو الذي شكاه الصحابة إلى النبي ﷺ وخشوا لكمال معرفتهم وشدة خوفهم أن يكون نفاقًا، فأعلمهم النبي ﷺ أنه ليس بنفاق. وفي صحيح مسلم عن حنظلة أنه قال: يا رسول الله، نافق حنظلة! قال: «**وما ذاك؟**» قال: نكون عندك، فتذكرنا بالجنة والنار كأنهما رأي عين، فإذا رجعنا من عندك عافسنا الأزواج والضيعة، ونسينا كثيرًا. فقال: «**لو تدومون على الحال التي تقومون بها من عندي لصافحتكم الملائكة في مجالسكم، وفي طرقكم، ولكن يا حنظلة ساعة وساعة**». وفي رواية له أيضًا: «**لو كانت قلوبكم كما تكون عند الذكر لصافحتكم الملائكة، حتى تسلم عليكم في الطرق**». ومعناه: أن استحضار ذكر الآخرة بالقلب في جميع الأحوال عزيز جدًّا، ولا يقدر كثير من الناس أو أكثرهم عليه، فيكتفى منهم بذكر ذلك أحيانًا، وإن وقعت الغفلة عنه في حال التلبس بمصالح الدنيا المباحة، ولكن المؤمن لا يرضى من نفسه بذلك، بل يلوم نفسه عليه ويحزنه ذلك من نفسه.

٢ ـ وقسم آخرون يستمرون على استحضار حال مجلس سماع الذكر، فلا يزال تَذَكُّر ذلك بقلوبهم ملازمًا لهم. وهؤلاء على قسمين: **أحدهما**: من يشغله ذلك عن مصالح دنياه المباحة، فينقطع عن الخلق، فلا يقوى على مخالطتهم، ولا القيام بوفاء حقوقهم. وكان كثير من السلف على هذه الحال؛ فمنهم من كان لا يضحك، ومنهم من كان يقول: لو فارق ذكر الموت قلبي ساعة لفسد. **والثاني**: من يستحضر ذكر الله وعظمته وثوابه وعقابه بقلبه، ويدخل =

السابعة: الأدعية والأذكار توقيفية.

الثامنة: الذكر الذي يثاب عليه العبد هو الذكر المشروع لا المبتدع.

التاسعة: الشرع لم يستحب من الذكر إلّا ما كان كلامًا تامًّا مفيدًا.

۞ ۞ ۞

= ببدنه في مصالح دنياه من اكتساب الحلال والقيام على العيال، ويخالط الخلق فيما يوصل إليهم به النفع مما هو عبادة في نفسه؛ كتعليم العلم والجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. **وهؤلاء أشرف القسمين، وهم خلفاء الرسل،** وهم الذين قال فيهم علي رضي الله عنه: صحبوا الدنيا بأبدانٍ أرواحها معلقة بالمحل الأعلى. وقد كان حال النبي ﷺ عند الذكر يتغير، ثم يرجع بعد انقضائه إلى مخالطة الناس والقيام بحقوقهم».

١٢

باب ما جاء في العناية بكتاب الله تلاوة وتعلّمًا وتعليمًا

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ يَرۡجُونَ تِجَٰرَةٗ لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمۡ أُجُورَهُمۡ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ غَفُورٞ شَكُورٞ ﴿٣٠﴾﴾ [فاطر: ٢٩ ـ ٣٠].

وعن عبد الله بن أبي أوفى رضي الله عنه: أنه سُئل: هل أوصى رسول الله ﷺ؟ قال: «**أَوْصَى بِكِتَابِ اللهِ عز وجل**»(١).

وعن أبي أمامة رضي الله عنه: قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «**اقْرَءُوا الْقُرْآنَ؛ فَإِنَّهُ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ شَفِيعًا لِأَصْحَابِهِ، اقْرَءُوا الزَّهْرَاوَيْنِ: الْبَقَرَةَ وَسورةَ آلِ عِمْرَانَ، فَإِنَّهُمَا تَأْتِيَانِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَأَنَّهُمَا غَمَامَتَانِ، أَوْ كَأَنَّهُمَا غَيَايَتَانِ، أَوْ كَأَنَّهُمَا فِرْقَانِ مِنْ طَيْرٍ صَوَافَّ، تُحَاجَّانِ عَنْ أَصْحَابِهِمَا، اقْرَءُوا سُورَةَ الْبَقَرَةِ، فَإِنَّ أَخْذَهَا بَرَكَةٌ، وَتَرْكَهَا حَسْرَةٌ، وَلَا تَسْتَطِيعُهَا الْبَطَلَةُ**»(٢).

وعن عثمان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ**»(٣).

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «**إِنَّمَا مَثَلُ صَاحِبِ الْقُرْآنِ كَمَثَلِ صَاحِبِ الْإِبِلِ الْمُعَقَّلَةِ؛ إِنْ عَاهَدَ عَلَيْهَا أَمْسَكَهَا، وَإِنْ أَطْلَقَهَا ذَهَبَتْ**». وفي لفظ لمسلم: «**وَإِذَا قَامَ صَاحِبُ الْقُرْآنِ بِاللَّيْلِ فَقَرَأَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ذَكَرَهُ، وَإِذَا لَمْ يَقُمْ بِهِ نَسِيَهُ**»(٤).

---

(١) رواه البخاري (٣/ ٢٥٨٩).
(٢) رواه مسلم (١/ ٨٠٤).
(٣) رواه البخاري (٤/ ٤٧٣٩).
(٤) رواه البخاري (٤/ ٤٧٤٣).

وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «إِنَّمَا هَذِهِ الْقُلُوبُ أَوْعِيَةٌ، فَاشْغَلُوهَا بِالْقُرْآنِ، وَلَا تَشْغَلُوهَا بِغَيْرِهِ»(١).

وقال رضي الله عنه: «يَنْبَغِي لِحَامِلِ الْقُرْآنِ أَنْ يُعْرَفَ بِلَيْلِهِ إِذَا النَّاسُ نَائِمُونَ، وَبِنَهَارِهِ إِذَا النَّاسُ يُفْطِرُونَ، وَبِحُزْنِهِ إِذَا النَّاسُ يَفْرَحُونَ، وَبِبُكَائِهِ إِذَا النَّاسُ يَضْحَكُونَ، وَبِصَمْتِهِ إِذَا النَّاسُ يَخْلِطُونَ، وَبِخُشُوعِهِ إِذَا النَّاسُ يَخْتَالُونَ»(٢).

وقال الحسن رحمه الله: «يابن آدم، واللهِ إن قرأت القرآن ثم آمنت به، ليطولنَّ في الدنيا حزنك، وليشتدنَّ في الدنيا خوفك، وليكثرنَّ في الدنيا بكاؤك»(٣).

وقال مالك بن دينار رحمه الله: «من لم يأنس بحديث الله عن حديث المخلوقين، فقد قلَّ علمه، وعَمِي قلبه، وضَيّع عمره»(٤).

وقال الحسن بن علي رحمه الله: «إن من كان قبلكم رأوا القرآن رسائل من ربهم، فكانوا يتدبرونها بالليل، ويتفقدونها في النهار»(٥).

فيه فوائد

الأولى: فضل تلاوة القرآن.

الثانية: العناية بالقرآن تعلُّمًا وعملًا وتعليمًا وصية النبي ﷺ لأمّته.

الثالثة: فضل سورة البقرة وآل عمران.

الرابعة: أهل القرآن العاملون به هم خير الناس.

الخامسة: أهمية تعاهد القرآن تلاوة وحفظًا، وعلمًا وعملًا.

السادسة: أهمية تَميُّز صاحبِ القرآن عن غيره بالعمل بالقرآن.

---

(١) «المصنف» (٧/ ١٠٦).
(٢) «حلية الأولياء» (١/ ١٢٠).
(٣) «سير أعلام النبلاء» (٤/ ٥٧٥).
(٤) «روضة العقلاء» (ص٨٥).
(٥) «التبيان»، للنووي (ص٢٨).

السابعة: معرفة أحوال السَّلَف مع القرآن.

الثامنة: تلذُّذُ السَّلَف بتلاوة القرآن.

التاسعة: معرفة أبرز أسباب تثبيت حفظ القرآن في قلب الحافظ.

العاشرة: البعد عما يزاحم القرآن في القلب.

۞ ۞ ۞

١٣

باب ما جاء في تدبّر القرآن

قال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾ [ص: ٢٩].

وعن حذيفة رضي الله عنه قال: «صَلَّيْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ ذَاتَ لَيْلَةٍ، فَافْتَتَحَ الْبَقَرَةَ، فَقُلْتُ: يَرْكَعُ عِنْدَ الْمِائَةِ، ثُمَّ مَضَى يُصَلِّي، فَقُلْتُ: يُصَلِّي بِهَا فِي رَكْعَةٍ؛ فَمَضَى؛ فَقُلْتُ يَرْكَعُ بِهَا؛ ثُمَّ افْتَتَحَ النِّسَاءَ فَقَرَأَهَا، ثُمَّ افْتَتَحَ آلَ عِمْرَانَ فَقَرَأَهَا، يَقْرَأُ مُتَرَسِّلًا، إِذَا مَرَّ بِآيَةٍ تَسْبِيحٍ سَبَّحَ، وَإِذَا مَرَّ بِسُؤَالٍ سَأَلَهُ، وَإِذَا مَرَّ بِتَعَوُّذٍ تَعَوَّذَ»(١).

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «قَالَ لِي رَسُولُ الله ﷺ: «**اقْرَأْ عَلَيَّ الْقُرْآنَ**». قَالَ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ الله، أَأَقْرَأُ عَلَيْكَ وَعَلَيْكَ أُنْزِلَ؟ فَقَالَ: «**إِنِّي أَشْتَهِي أَنْ أَسْمَعَهُ مِنْ غَيْرِي**». وفي لفظٍ للبخاري: «**فَإِنِّي أُحِبُّ أَنْ أَسْمَعَهُ مِنْ غَيْرِي**». فَقَرَأْتُ عَلَيْهِ (النِّسَاءَ) حَتَّى إِذَا بَلَغْتُ: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾﴾ [النساء: ٤١]. وفي لفظ للبخاري: فقال: «**حَسْبُكَ الْآنَ**». فَرَفَعْتُ رَأْسِي، أَوْ غَمَزَنِي رَجُلٌ فَرَفَعْتُ رَأْسِي، فَرَأَيْتُ دُمُوعَهُ تَسِيلُ، وفي لفظ للبخاري: «فَالْتَفَتُّ إِلَيْهِ، فَإِذَا عَيْنَاهُ تَذْرِفَانِ»(٢).

وعن أبي ذر رضي الله عنه قال: قام النبي ﷺ بآية حتى أصبح يُرَدِّدُها، والآية: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾﴾

---

(١) رواه مسلم (١/ ٧٧٢).

(٢) رواه البخاري (٤/ ٤٣٠٦)، ومسلم (١/ ٨٠٠).

[المائدة: ١١٨][(١)].

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «لَا تَنْثُرُوهُ نَثْرَ الدَّقَلِ، وَلَا تَهُذُّوهُ هَذَّ الشِّعْرِ، قِفُوا عِنْدَ عَجَائِبِهِ، وَحَرِّكُوا بِهِ الْقُلُوبَ، وَلَا يَكُنْ هَمُّ أَحَدِكُمْ آخِرَ السُّورَةِ»[(٢)].

وعن عبد الله بن عروة بن الزبير رحمه الله قال: قلت لجدتي أسماء: كيف كان أصحاب النبي ﷺ إذا سمعوا القرآن؟ قالت: «تَدْمَعُ أَعْيُنُهُمْ، وَتَقْشَعِرُّ جُلُودُهُمْ، كَمَا نَعَتَهُمُ اللهُ»[(٣)].

وعن الحسن رحمه الله قال: «كَانَ أَحَدُهُمْ يَقْرَأُ الْقُرْآنَ، فَيُصْبِحُ يُعْرَفُ ذَلِكَ فِيهِ، وَأَحَدُهُمُ الْيَوْمَ يَقْرَأُ الْقُرْآنَ، فَكَأَنَّمَا يَحْمِلُ بِهِ رِدَاءَ كَتَّانٍ»[(٤)].

وقال ابن القيِّم رحمه الله: «وبالجملة فلا شيء أنفع للقلب من قراءة القرآن بالتدبُّر والتفكر، فإنه جامع لجميع منازل السائرين، وأحوال العاملين، ومقامات العارفين، وهو الذي يورث المحبة والشوق والخوف والرجاء والإنابة والتوكل والرضا والتفويض والشكر والصبر، وسائر الأحوال التي بها حياة القلب وكماله، وكذلك يزجر عن جميع الصفات والأفعال المذمومة، والتي بها فساد القلب وهلاكه، فلو علم الناس ما في قراءة القرآن بالتدبُّر، لاشتغلوا بها عن كل ما سواها»[(٥)].

وقال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: «والتدبُّر هو التأمُّل في الألفاظ للوصول إلى معانيها»[(٦)].

---

(١) رواه النسائي (١/ ١٣٥٠).
(٢) أخرجه الآجري في «أخلاق حملة القرآن» (ص٥).
(٣) «الشعب» (١٩٠٠).
(٤) «حلية الأولياء» (٨/ ١٥٠).
(٥) «مفتاح دار السعادة» (١/ ١٨٧).
(٦) «أصول التفسير» (٢٨).

فيه فوائد

الأولى: الترغيب في تدبُّر القرآن للانتفاع به.

الثانية: هدي النبي ﷺ في تدبر القرآن.

الثالثة: أثر التدبر على نفوس العِباد.

الرابعة: أحوال السَّلَف مع القرآن: تلاوةً وتدبّرًا وعملًا.

الخامسة: مشروعية تكرار الآيات في صلاة الليل للاتعاظ وتحريك القلب.

السادسة: وصايا السَّلَف في تدبر القرآن.

السابعة: أعمال القلوب كلها في القرآن، وهو الذي يورثها ويُنمِّيها.

الثامنة: قراءة آية بتدبر أنفع للقلب من قراءة آيات بدون تدبر.

التاسعة: معرفة صفة بكاء السَّلَف عند تلاوة القرآن.

العاشرة: تأثير تدبر القرآن على حياة السَّلَف العلمية والعملية.

❁ ❁ ❁

١٤

باب ماجاء في البكاء من خشية الله

قال تعالى: ﴿قُلْ ءَامِنُواْ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴿١٠٩﴾﴾ [الإسراء: ١٠٧ ـ ١٠٩].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لَا يَلِجُ النَّارَ رَجُلٌ بَكَى مِنْ خَشْيَةِ الله حَتَّى يَعُودَ اللَّبَنُ فِي الضَّرْعِ، وَلَا يَجْتَمِعُ غُبَارٌ فِي سَبِيلِ الله وَدُخَانُ جَهَنَّمَ**»(١).

وعنه رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ**.... وَفِيهِ: **وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللهَ خَالِيًا، فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ**»(٢).

وعن عبد الله بن الشِّخِّير رضي الله عنه، قال: «أَتَيْتُ رَسُولَ الله ﷺ وَهُوَ يُصَلِّي، وَلِجَوْفِهِ أَزِيزٌ كَأَزِيزِ الْمِرْجَلِ مِنَ الْبُكَاءِ»(٣).

وقال مسروق رحمه الله: «قال لي رجل من أهل مكة: هذا مقام أخيك تميم الداري صلى ليلة حتى أصبح أو كاد، يقرأ آية، ويُردّدها ويبكي: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الجاثية: ٢١]»(٤).

وقال نافع رحمه الله: «كان ابن عمر إذا قرأ: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ بكى حتى يَغلِبه البكاء»(٥).

وعن نُسير بن ذُعلوق رحمه الله قال: «كان الرّبيع بن خُثيم يبكي حتى

(١) رواه الترمذي (٤/ ١٦٣٣).
(٢) رواه البخاري (١/ ٦٢٩).
(٣) رواه النسائي (٣/ ١٢١٤).
(٤) «الزهد»، لابن المبارك (٣١).
(٥) «حلية الأولياء» (١/ ٣٠٥).

تُبلَّ لحِيْتُه من دُموعُه، فيقول: أَدركنا أقوامًا، كنا في جنبهم لصوصًا»[١].

وعن كعب الأحبار رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: «لأن أبكي من خشية الله أَحبُّ إليَّ من أن أتصدق بِوزْنِي ذهبًا»[٢].

وعن سفيان رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: «البكاء عشرة أجزاء: جزء لله، وتسعة لغير الله، فإذا جاء الذي لله في العام مرة، فهو كثير»[٣].

فيه فوائد

الأولى: فضل البكاء من خشية الله.

الثانية: صفة بكاء النبي ﷺ من خشية الله.

الثالثة: ثناء الله تعالى على أهل العلم في البكاء من خشيته.

الرابعة: أحوال السَّلَف في البكاء من خشية الله.

الخامسة: بكاء السَّلَف كان عند تلاوة القرآن وسماعه.

السادسة: بيان أنواع البكاء.

السابعة: ذمُّ قسوة القلب وجفاف العين.

الثامنة: صور من اجتهاد السَّلَف في العبادة.

التاسعة: المتبع للسلف حقًّا هو المقتدي بهم في العقيدة والعمل، لا في أحدهما.

❁ ❁ ❁

(١) «حلية الأولياء» (٢/ ١٠٩).

(٢) «سير أعلام النبلاء» (٥/ ٤٨٨).

(٣) «سير أعلام النبلاء» (٧/ ١١).

١٥

باب ما جاء في الصدقة

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٢٧٤﴾ [البقرة: ٢٧٤].

وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ۝٣٩﴾ [سبأ: ٣٩].

وعن عقبة بن عامر رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «**كُلُّ امْرِئٍ فِي ظِلِّ صَدَقَتِهِ، حَتَّى يُفْصَلَ بَيْنَ النَّاسِ**»(١). قال يزيد ـ أحد رواة الحديث ـ: «وكان أبو الخير ـ راوي الحديث عن عقبة ـ لا يخطئه يوم إلّا تصدق فيه بشيء، ولو كعكة، أو بصلة، أو كذا».

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَا مِنْ يَوْمٍ يُصْبِحُ الْعِبَادُ فِيهِ إِلَّا مَلَكَانِ يَنْزِلَانِ، فَيَقُولُ أَحَدُهُمَا: اللَّهُمَّ أَعْطِ مُنْفِقًا خَلَفًا، وَيَقُولُ الْآخَرُ: اللَّهُمَّ أَعْطِ مُمْسِكًا تَلَفًا**»(٢).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**كُلُّ سُلَامَى مِنَ النَّاسِ عَلَيْهِ صَدَقَةٌ، كُلَّ يَوْمٍ تَطْلُعُ فِيهِ الشَّمْسُ: تَعْدِلُ بَيْنَ اثْنَيْنِ صَدَقَةٌ، وَتُعِينُ الرَّجُلَ فِي دَابَّتِهِ فَتَحْمِلُهُ عَلَيْهَا أَوْ تَرْفَعُ لَهُ عَلَيْهَا مَتَاعَهُ صَدَقَةٌ، وَالْكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ صَدَقَةٌ، وَبِكُلِّ خُطْوَةٍ تَمْشِيهَا إِلَى الصَّلَاةِ صَدَقَةٌ، وَتُمِيطُ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ صَدَقَةٌ**»(٣).

وعن القاسم بن محمد رحمه الله قال: سمعتُ ابن الزبير يقول: «ما رأيتُ امرأةً قط أجودَ من عائشة وأسماء، وَجُودُهما مختلف: أما عائشة،

---

(١) رواه الحاكم (١/ ١٥١٧).
(٢) رواه مسلم (٢/ ١٠١٠).
(٣) رواه البخاري (٣/ ٢٨٢٧).

فكانت تجمع الشيء إلى الشيء، حتى إذا اجتمع عندها وضعته في مواضعه. وأما أسماء فكانت لا تدخر شيئًا لغد»[(١)].

وعن أبي حمزة الثمالي رَحِمَهُ اللَّهُ قال: «كان علي بن الحسين يحمل الخبز بالليل على ظهره، يتّبع به المساكين في الظُّلْمَة، ويقول: إن الصدقة في سواد الليل تطفئ غضب الرب»[(٢)].

وعن محمد بن إسحاق؟ قال: «كان ناس من أهل المدينة يعيشون لا يدرون من أين كان معاشهم، فلما مات علي بن الحسين، فقدوا ذلك الذي كانوا يُؤتَون بالليل»[(٣)].

وقال علي بن الحسين رَحِمَهُ اللَّهُ: «إني لأستحيي من الله أن أرى الأخ من إخواني، فأسأل الله له الجنة، وأبخل عليه بالدنيا، فإذا كان غدًا قيل لي: لو كانت الجنة بيدك، لكنت بها أبخل وأبخل»[(٤)].

فيه فوائد

الأولى: مكانة صدقة التطوُّع في الكتاب والسُّنّة، وفضلها العظيم.

الثانية: في الباب معنى قوله ﷺ: «**مَا نَقَصَ مَالٌ مِنْ صَدَقَةٍ**».

الثالثة: دعاء الملائكة للمنفق ابتغاء وجه الله بالخلَف، ودعاؤها على الممسك بالتلَف والحرمان.

الرابعة: الصدقة يعود نفعها للمتصدقين.

الخامسة: الجزاء من جنس العمل، فمن تصدق في الدنيا، كانت صدقته ظلًّا له يوم القيامة.

السادسة: إخلاص السَّلَف في الطاعات.

---

(١) «سير أعلام النبلاء» (٢/ ٢٩٢).
(٢) «سير أعلام النبلاء» (٤/ ٣٩٣).
(٣) «سير أعلام النبلاء» (٤/ ٣٩٣).
(٤) «سير أعلام النبلاء» (٤/ ٣٩٣).

السابعة: معرفة كَرَم السَّلَف وأحوالهم في الصدقة، والإحسان إلى الناس.

الثامنة: اهتمام السَّلَف بأحوال المسلمين.

التاسعة: مفهوم الصدقة في الشرع، وأنها ليست قاصرة على المال.

العاشرة: ذمُّ البخل.

۞ ۞ ۞

١٦

باب ما جاء في إجمام النفوس، والترويح عنها بين الإفراط والتفريط

قال تعالى: ﴿طه ۝١ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ۝٢﴾ [طه: ١ ـ ٢].

وعن أبي جحيفة وهب بن عبد الله رضي الله عنه قال: آخى النبي ﷺ بين سلمان وأبي الدرداء، فزار سلمان أبا الدرداء، فرأى أم الدرداء مُتبذِّلة؛ فقال: ما شأنك؟ قالت: أخوك أبو الدرداء ليس له حاجة في الدنيا. فجاء أبو الدرداء فصنع له طعامًا، فقال له: كُلْ فإني صائم، قال: ما أنا بآكل حتى تأكل؛ فأكل. فلما كان الليل ذهب أبو الدرداء يقوم؛ فقال له: نَمْ! فنام. ثم ذهب يقوم، فقال: نَمْ! فلما كان من آخر الليل، قال سلمان: قُمِ الآن. فصليًّا جميعًا؛ فقال له سلمان: إن لربك عليك حقًّا، وإن لنفسكَ عليك حقًّا، ولأهلك عليك حقًّا، فأعط كل ذي حق حقه. فأتى النبيَّ ﷺ فذكر ذلك له، فقال النبي ﷺ: «**صَدَقَ سَلْمَانُ**»[(١)].

وعن حنظلة بن الرُّبَيِّع الأُسَيِّدي رضي الله عنه قال: «لقيني أبو بكر رضي الله عنه فقال: كيف أنت يا حنظلة؟ قلت: نافق حنظلة. قال: سبحان الله! ما تقول؟ قلت: نكون عند رسول الله ﷺ يذكرنا بالجنة والنار كأنّا رأي عين، فإذا خرجنا من عند رسول الله ﷺ عافسنا الأزواج والأولاد والضيعات، فنسينا كثيرًا. قال أبو بكر رضي الله عنه: فوالله إنا لنلقى مثل هذا. فانطلقت أنا وأبو بكر حتى دخلنا على رسول الله ﷺ، فقلت: نافق حنظلة يا رسول الله. فقال رسول الله ﷺ: «**وَمَا ذَاكَ؟**»، قلت: يا رسول الله، نكون عندك تذكّرنا بالنار والجنة كأنّا رأي عين، فإذا

(١) رواه البخاري (٢/ ١٨٦٧).

خرجنا من عندك عافسنا الأزواج، والأولاد، والضّيْعات نسينا كثيرًا، فقال رسول الله ﷺ: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَوْ تَدُومُونَ عَلَى مَا تَكُونُونَ عِنْدِي وَفِي الذِّكْرِ، لَصَافَحَتْكُمُ الْمَلَائِكَةُ عَلَى فُرُشِكُمْ وَفِي طُرُقِكُمْ، لَكِنْ يا حَنْظَلَةُ سَاعَةً وَسَاعَةً**» ثلاث مرات(١).

وقال ابن مسعود رضي الله عنهما: «إِنَّ لِلْقُلُوبِ شَهْوَةً وَإِقْبَالًا، وَفَتْرَةً وَإِدْبَارًا، فَخُذُوهَا عِنْدَ شَهَوَاتِهَا وَإِقْبَالِهَا، وَذَرُوهَا عِنْدَ فَتْرَتِهَا وَإِدْبَارِهَا»(٢).

وقال أبو الدرداء رضي الله عنه: «إِنِّي لَأَسْتَجِمُّ لِقَلْبِي بِالشَّيْءِ مِنَ اللَّهْوِ، لِيَكُونَ أَقْوَى لِي عَلَى الْحَقِّ»(٣).

وقال شيخ الإسلام رحمه الله: «بل قد قيل: إن من جملة حكمة النهي عن التطوُّع المطلق في بعض الأوقات: إجمام النفوس في وقت النهي لتنشط للصلاة، فإنها تنبسط إلى ما كانت ممنوعة منه، وتنشط للصلاة بعد الراحة. والله أعلم»(٤).

وقال ابن القيِّم رحمه الله شارحًا قول النبي ﷺ: «**إِنَّ لِكُلِّ عَمَلٍ شِرَّةً، وَلِكُلِّ شِرَّةٍ فَتْرَةٌ، فَمَنْ كَانَتْ فَتْرَتُهُ إِلَى سُنَّتِي فَقَدِ اهْتَدَى، وَمَنْ كَانَتْ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ فَقَدْ هَلَكَ**»(٥): «فالطالب الجاد لا بد أن تُعرض له فترة، فَيشتاق في تلك الفترة إلى حالِه وقت الطلب والاجتهاد... فتخلل الفترات للسالكين أمر لازم لا بد منه؛ فمن كانت فترته إلى مقاربة وتسديد، ولم تخرجه من فرض، ولم تدخله في محرم، رُجي له أن يعود خيرًا مما كان، مع أن العبادة المحببة إلى الله هي ما داوم العبد عليه»(٦).

---

(١) رواه مسلم (٤/ ٢٧٥٠).

(٢) «بهجة المجالس وأنس المجالس» لابن عبد البر (١/ ٢٠).

(٣) «الفَتاوَى» (٢٨/ ٣٦٨). (٤) «الفتاوَى» (٢٣/ ٢١٧).

(٥) رواه ابن حبان (١١)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٢١٥٣).

(٦) انظر: «مدارج السالكين» (٣/ ٦٣٨).

فيه فوائد

الأولى: الله تعالى ما أَنزل القرآن على عبده ليشقى؛ بل ليسعدَ وينعمَ بهذا القرآن.

الثانية: الشريعة أعطت كل ذي حقّ حقه؛ فينبغي للعبد أن يراعي الحقوق بحسب الأولويات ووظيفة الوقت، وألا يقع في المحظور.

الثالثة: الترويح عن النفس بلا إفراط ولا تفريط، لا ينافي العبودية وتزكية النفس.

الرابعة: كمال هدي الصحابة، وذلك لقيامهم بالحقوق على أكمل وجه.

الخامسة: من حق النفس السعي في أسباب نجاتها من الوعيد.

السادسة: غلط من منع نفسه حاجتها.

السابعة: أهمية الحكمة مع النفس ومُداراتها[١].

الثامنة: تَعاهد النبيّ ﷺ أصحابه بالموعظة.

التاسعة: معنى قوله ﷺ: «**إنّ لِكُلِّ عَمَلٍ شِرَّةً**».

العاشرة: معرفة ضابط الترويح المحمود، والترويح المذموم.

الحادية عشرة: الفَرْق بين الفَتْرة عن نوافل العبادات، وبين الانتكاسة التي هي ترك لبعض الواجبات وفعل لبعض المحرمات.

الثانية عشرة: الرد على من ظنَّ أن صاحب العبودية لا بد أن يكون متواصل الأحزان، منقطعًا عن الناس، بعيدًا عن الأنس مع الأهل والأصحاب، ولا يلهو بلهو مباح.

الثالثة عشرة: ذكر الآخرة على الدوام في جميع الأحوال عزيز جدًّا.

---

(١) قال ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ولقد رأيت الإنسان قد حمل من التكاليف أمورًا صعبة، ومن أثقل ما حمل مداراة النفس وتكليفها الصبر عما تحب وعلى ما تكره؛ فرأيت الصواب قطع طرق الصبر بالتسلية والتلطف للنفس». «صيد الخاطر» (ص٩٩).

١٧

باب الحذر من اتباع خطوات الشيطان

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِۚ﴾ [النور: ٢١].

وقال النبي ﷺ: «**إِنَّ الشَّيْطَانَ يَجْرِي مِنِ ابْنِ آدَمَ مَجْرَى الدَّمِ**»(١).

وقال أبو الدرداء رضي الله عنه: «إِنَّ مِنْ فِقْهِ الْعَبْدِ أَنْ يَعْلَمَ نَزَغَاتِ الشَّيْطَانِ، مَتى تَأْتِيهِ، وَمِنْ أَيْنَ تَأْتِيهِ»(٢).

وقال الحسن البصري رحمه الله: «إذا نظر إليك الشيطان فرآك مداومًا على طاعة الله فبغاك وبغاك، فرآك مداومًا ملّك ورفضك، وإذا كنت مَرة هكذا، ومرة هكذا طَمِع فيك»(٣).

وقال مخلد بن الحسين رحمه الله: «ما ندب الله العباد إلى شيء إلّا اعترض فيه إبليس بأمرين ما يبالي بأيهما ظفر: إما غُلُوًّا فيه، وإما تقصيرًا عنه»(٤).

وقال ابن الجوزي رحمه الله: «اعلم أن الباب الأعظم الذي يدخل منه إبليس على الناس هو الجهل، فهو يدخل منه على الجهال بأمان. وأما العالِم فلا يدخل عليه إلّا مُسارقة. وقد لَبَّس إبليسُ على كثير من المتعبِّدين بقلة علمهم؛ لأن جمورهم يشتغل بالتعبُّد، ولم يُحْكم العلم»(٥).

وقال ابن القيِّم رحمه الله: «والمتأخرون من أرباب السلوك لم يعتنوا به

(١) رواه البخاري (٧١٧١).
(٢) «جامع الأحاديث» للسيوطي (٣٨/٣٣٨).
(٣) «الزهد» لابن المبارك (ص٧).
(٤) «سير أعلام النبلاء» (١٧/ ٢٤٤).
(٥) «تلبيس إبليس» (١/ ١٦٥).

اعتناءهم بذكر النفس وعيوبها وآفاتها، فإنهم توسعوا في ذلك، وقصَّروا في هذا الباب، ومن تأمل القرآن والسُّنَّة وجد اعتناءهما بذكر الشيطان ومحاربته أكثر من ذكر النفس»[(١)].

وقال أيضًا رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «من مكايده أن يسحر العقل دائمًا حتى يكيده، ولا يسلم من سحره إلّا من يشاء الله، فيزين له الفعل الذي يضره حتى يُخيّل إليه أنه أنفع الأشياء، ويُنفِّره من الفعل الذي هو أنفع الأشياء له، حتى يُخيّل له أنه يضره»[(٢)].

فيه فوائد

الأولى: الحذر من اتباع خطوات الشيطان.

الثانية: من فقه العبد معرفته بطرق مداخل الشيطان عليه.

الثالثة: الغلو والجفاء خلاف أمر الله.

الرابعة: معرفة أهم الأسباب التي تعصم ـ بإذن الله ـ من مكائد الشيطان[(٣)].

الخامسة: العلم سبب رئيسٌ في النجاة من مكائد الشيطان.

السادسة: معرفة العدو الذي نذر نفسه بإغواء بني آدم بمكائده الخفية.

السابعة: مكائد الشيطان من أكبر المعوقات في طريق صلاح النفس وتزكيتها.

❁ ❁ ❁

---

(١) «إغاثة اللهفان» (١/ ٩٠). (٢) «إغاثة اللهفان» (١/ ١١٠).

(٣) انظر: «بدائع الفوائد» (٢/ ٤٩٠) قاعدة فيما يعتصم به العبد من الشيطان.

١٨

باب الحذر من العُجْب

قال تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣].

وقال تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾﴾ [النور: ٢١].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓاْ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٣﴾﴾ [محمد: ٣٣].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه: سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «**كَانَ رَجُلَانِ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ مُتَوَاخِيَيْنِ، فَكَانَ أَحَدُهُمَا يُذْنِبُ، وَالْآخَرُ مُجْتَهِدٌ فِي الْعِبَادَةِ، فَكَانَ لَا يَزَالُ الْمُجْتَهِدُ يَرَى الْآخَرَ عَلَى الذَّنْبِ فَيَقُولُ: أَقْصِرْ، فَوَجَدَهُ يَوْمًا عَلَى ذَنْبٍ فَقَالَ لَهُ: أَقْصِرْ، فَقَالَ: خَلِّنِي وَرَبِّي أَبُعِثْتَ عَلَيَّ رَقِيبًا؟ فَقَالَ: وَاللهِ لَا يَغْفِرُ اللهُ لَكَ، أَوْ لَا يُدْخِلُكَ اللهُ الْجَنَّةَ. فَقَبَضَ أَرْوَاحَهُمَا، فَاجْتَمَعَا عِنْدَ رَبِّ الْعَالَمِينَ، فَقَالَ لِهَذَا الْمُجْتَهِدِ: أَكُنْتَ بِي عَالِمًا، أو كُنْتَ عَلَى مَا فِي يَدِي قَادِرًا؟ وَقَالَ لِلْمُذْنِبِ: اذْهَبْ فَادْخُلِ الْجَنَّةَ بِرَحْمَتِي، وَقَالَ لِلْآخَرِ: اذْهَبُوا بِهِ إِلَى النَّارِ**». قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: (وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتَكَلَّمَ بِكَلِمَةٍ أَوْبَقَتْ دُنْيَاهُ وَآخِرَتَهُ)(١).

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: «**ثَلَاثٌ مُهْلِكَاتٌ: شُحٌّ مُطَاعٌ، وَهَوًى مُتَّبَعٌ، وَإِعْجَابُ الْمَرْءِ بِرَأْيِهِ**»(٢).

وعن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال: «بِحَسْبِ الْمَرْءِ مِنَ الْعِلْمِ أَنْ

---

(١) رواه أبو داود (٢/ ٤٩٠١).

(٢) رواه البزار، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٣/ ٧٢٩٣).

يَخْشَى اللهَ، وَبِحَسْبِهِ مِنَ الْجَهْلِ أَنْ يُعْجَبَ بِعِلْمِهِ»[(١)].

وقال مُطَرِّف بن عبد الله الشِّخِّير رَحِمَهُ اللهُ: «لئِن أَبِيتُ نائمًا وأُصبح نادمًا أَحبّ إليّ من أن أَبيت قائمًا فأُصبح معجبًا»[(٢)].

وسئل عبد الله بن المبارك رَحِمَهُ اللهُ عن العُجب، فقال: «أن ترى أن عندك شيئًا ليس عند غيرك»[(٣)].

وقال شيخ الإسلام؟: «والعُجب قريب من الرياء، لكن الرياء من باب الإشراك بالخلق، والعُجب من باب الإشراك بالنفس؛ فالمرائي لا يحقق قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾، والمُعجب لا يحقق قوله: ﴿وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ۝٥﴾، فمن حقق قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾، خرج عن الرياء، ومن حقق قوله: ﴿وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ۝٥﴾ خرج عن الإعجاب»[(٤)].

فيه فوائد

الأولى: عبادة العبد فضل من الله تعالى عملًا وثوابًا.

الثانية: حقيقة العجب والرياء، والفرق بينهما.

الثالثة: العجب سبب للخذلان والهلاك.

الرابعة: وجوب الحذر من إحباط العمل وتضييع الحسنات.

الخامسة: ذم السَّلَف للعجب، وحثهم على الإخلاص.

السادسة: المرائي لم يحقق قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾، والمعجب لم يحقق قوله: ﴿وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ۝٥﴾.

السابعة: الحذر من التألّي على الله تعالى.

الثامنة: معرفة ما يفسد تزكية النفس.

التاسعة: المخلص لا يَغْترّ بِعلْمِه أو عَمَلِه؛ بل يَحمد الله، ويَرحم العصاة والمذنبين.

---

(١) «الزهد» لأبي داود (٢٩٠).
(٢) «سير أعلام النبلاء» (٤/ ١٩٠).
(٣) «سير أعلام النبلاء» (٨/ ٤٠٧).
(٤) «الفتاوى» (١٠/ ٢٧٧).

١٩

باب غنى الله وفقر العباد إليه

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾﴾ [فاطر: ١٥ ـ ١٧].

وعن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه عن النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه تَبَارَكَ وَتَعَالَى، أنه قال: «**يَا عِبَادِي، إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي، وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا، فَلَا تَظَالَمُوا. يَا عِبَادِي، كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلَّا مَنْ هَدَيْتُهُ، فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ. يَا عِبَادِي، كُلُّكُمْ جَائِعٌ، إِلَّا مَنْ أَطْعَمْتُهُ، فَاسْتَطْعِمُونِي أُطْعِمْكُمْ. يَا عِبَادِي، كُلُّكُمْ عَارٍ، إِلَّا مَنْ كَسَوْتُهُ، فَاسْتَكْسُونِي أَكْسُكُمْ. يَا عِبَادِي، إِنَّكُمْ تُخْطِؤُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا، فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ. يَا عِبَادِي، إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي، وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي. يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ، مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا. يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا. يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ. يَا عِبَادِي، إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ، ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا، فَلْيَحْمَدِ اللهَ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ، فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ**»(١).

---

(١) رواه مسلم (٤/ ٢٥٧٧).

وقال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فلا شيء أنفع للصادق من التحقق بالمسْكَنة والفاقة والذلّ، وأنه لا شيء، وأنه ممن لم يصح له بعد الإسلام، حتى يدعي الشرف فيه.

ولقد شاهدت من شيخ الإسلام ـ قدَّس الله روحه ـ من ذلك أمرًا لم أُشاهده من غيره، وكان يقول كثيرًا: ما لي شيء، ولا مِنّي شيء، ولا فيّ شيء.

وكان كثيرًا ما يَتمثل بهذا البيت:

أنا المُكدِّي وابن المُكَدّي ... وهكذا كان أبي وَجَدِّي

وكان إذا أُثنِى عليه في وجهه يقول: واللهِ، إني إلى الآن أُجدد إسلامي كل وقت، وما أَسلمت بعد إسلامًا جيدًا.

وبَعث إليَّ في آخر عمره قاعدة في التفسير بخطه، وعلى ظهرها أبيات بخطه من نظمه:

أنا الفَقيرُ إلى رَبّ البَريَّات ... أنا المُسَيكينُ في مَجْموع حالاتى
أنا الظلومُ لِنَفْسي وَهْيَ ظالِمتي ... وَالخَيْرُ إنْ يأْتنا مِنْ عِنْدِهِ يَاتي
لا أسْتَطيعُ لِنَفْسي جَلْبَ مَنْفَعَةٍ ... ولا عَنِ النّفْسِ لي دَفْعَ المَضَرّاتِ
وليس لي دُونه مولًى يُدَبِّرني ... ولا شفيعٌ إذا حَاطَتْ خطيئَاتي
إلا بِإذْنٍ مِنَ الرّحمنِ خالِقِنا ... إلى الشفيع كَما قَدْ جاءَ في الآياتِ
وَلَسْتُ أمْلِكُ شيئًا دونَهُ أبَدًا ... ولا شَريكٌ أنا في بَعْضِ ذَرّاتِ
وَلا ظَهيرٌ لهُ كْي يَستعين به ... كَما يَكونُ لأَرْبابِ الوِلاياتِ
وَالفَقْرُ لي وَصْفُ ذاتٍ لازِمٌ أبَدًا ... كَما الغِنى أبدًا وَصْفٌ لَهُ ذاتي
وَهذِهِ الحالُ حالُ الخَلْقِ أجْمَعُهُمْ ... وَكُلّهُمْ عِنْدَهُ عَبْدٌ لَهُ آتي
فَمَنْ بَغى مَطْلَبًا من غير خالِقِهِ ... فَهْوَ الجَهولُ الظّلومُ المُشْرِكُ العاتي
وَالحَمْدُ لِلّهِ مِلءُ الكَوْنِ أجْمَعِهِ ... ما كانَ مِنْهُ وَما مِنْ بَعْدِهِ ياتي[١].

(١) «مدارج السالكين» (١/ ٥٢٤).

ولابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ أبيات قريبة من أبيات شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ يقول فيها عن نفسه(١):

بُـنَـيُّ أَبِـي بَـكْـرٍ كَـثِـيـرٌ ذُنُـوبُـهُ فَلَيْسَ عَلَى مَن نَالَ مِنْ عِرْضِهِ إِثْمُ
بُنَيُّ أَبِي بَكْرٍ جَهُولٌ بِنَفْسِهِ جَهُولٌ بِأَمْرِ اللهِ أَنَّى لَهُ الْعِلْمُ
بُنَيُّ أَبِي بَكْرٍ غَدَا مُتَصَدِّرًا يُعَلِّمُ عِلْمًا وهْوَ لَيْسَ لَهُ عِلْمُ
بُنَيُّ أَبِي بَكْرٍ غَدَا مُتَمَنِّيًا وِصَالَ الْمَعَالِي وَالذُّنُوبُ لَهُ هَمُّ
بُنَيُّ أَبِي بَكْرٍ يَرُومُ تَرَقِّيًا إِلَى جَنَّةِ الْمَأْوَى وَلَيْسَ لَهُ عَزْمُ
بُنَيُّ أَبِي بَكْرٍ يَرَى الغُنْمَ فِي الَّذِي يَزُولُ وَيَفْنَى وَالَّذِي تَرْكُهُ غُنْمُ
بُنَيُّ أَبِي بَكْرٍ لَقَدْ خَابَ سَعْيُهُ إِذَا لَمْ يَكُنْ في الصَّالِحَاتِ لَهُ سَهْمُ
بُنَيُّ أَبِي بَكْرٍ كَمَا قَالَ رَبُّهُ هَلُوعٌ كَنُودٌ وَصْفُهُ الجَهْلُ والظُّلْمُ
بُنَيُّ أَبِي بَكْرٍ وَأَمْثَالُهُ غَدَوْا بِفَتْوَاهُمُ هَذِي الخَلِيقَةُ تَأْتَمُّ
وَلَيْسَ لَهُمْ في العِلْمِ بَاعٌ ولا التُّقَى وَلا الزُّهْد، وَالدُّنْيَا لَدَيْهِمْ هِيَ الْهَمُّ
فَوَاللهِ لَوْ أَنَّ الصَّحَابَةَ شَاهَدُوا أَفَاضِلَهُمْ قَالُوا: هُمُ الصُّمُّ وَالبُكْمُ

فيه فوائد

الأولى: افتقار العِباد كلهم إلى الله تعالى في جميع شؤونهم، ومن كل وجه، وغِنى الله تعالى عنهم وعن عباداتهم.

الثانية: طاعة العِباد يعود نفعها إليهم.

الثالثة: وجوب شكر الله تعالى، وإخلاص العبادة له دون ما سواه.

الرابعة: ما في العِباد من خير وصلاح فهو فضل من الله تعالى.

الخامسة: وجوب تطهير القلب من العُجب والكِبْر والرياء وسائر ما ينافي العبودية الخالصة لله.

---

(١) «أعيان العصر وأعوان النصر» (٤/ ٣٦٩).

السادسة: وجوب اللجوء إلى الله تعالى وطلب الحوائج منه لا من غيره.

السابعة: صدق السَّلَف مع أنفسهم، وإخلاصهم العبادة لله، ومعرفتهم بما يستحقّه الله.

الثامنة: شيخ الإسلام ابن تيمية وابن القيِّم مثالان لحال العلماء الربانيين، في الافتقار إلى الله تعالى.

۞ ۞ ۞

خاتمة

في الزهد، وأحكامه، وما يُعين عليه

١

باب ما جاء من الزهد في الدنيا، والترغيب في الآخرة

قال تعالى: ﴿وَفَرِحُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٞ ﴿٢٦﴾﴾ [الرعد: ٢٦].

وقال تعالى: ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ وَزِينَةٞ وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ وَتَكَاثُرٞ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِۖ كَمَثَلِ غَيۡثٍ أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمٗاۖ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٞ شَدِيدٞ وَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٞۚ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ ﴿٢٠﴾﴾ [الحديد: ٢٠].

وقال النبي ﷺ: «**فَوَاللهِ لَا الفَقْرَ أَخْشَى عَلَيْكُمْ، وَلَكِنْ أَخْشَى عَلَيْكُم أَنْ تُبْسَطَ عَلَيْكُمُ الدُّنْيَا كَمَا بُسِطَتْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا وَتُهْلِكَكُمْ كَمَا أَهْلَكَتْهُمْ**»(١).

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «**إِنَّ الدُّنْيَا حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ، وَإِنَّ اللهَ مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيهَا، فَيَنْظُرُ كَيْفَ تَعْمَلُونَ؛ فَاتَّقُوا الدُّنْيَا وَاتَّقُوا النِّسَاءَ، فَإِنَّ أَوَّلَ فِتْنَةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانَتْ فِي النِّسَاءِ**»(٢).

وعن جابر رضي الله عنه: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ مَرَّ بِالسُّوقِ وَالنَّاسُ كَنَفَيْهِ، فَمَرَّ بِجَدْيٍ أَسَكَّ مَيِّتٍ، فَتَنَاوَلَهُ، فَأَخَذَ بِأُذُنِهِ، فَقَالَ: «**أَيُّكُم يُحِبُّ أَنَّ هَذَا لَهُ بِدِرْهَم؟**». فَقَالُوا: مَا نُحِبُّ أَنَّه لَنَا بِشَيْءٍ، وَمَا نَصْنَعُ بِهِ؟ قال: «**أَتُحِبُّونَ أَنَّهُ لَكُمْ؟**»، قَالُوا: وَالله لَوْ كَانَ حَيًّا كَانَ عَيْبًا فِيهِ؛ لِأَنَّهُ أَسَكُّ، فَكَيْفَ وَهُوَ مَيِّتٌ؟ فَقَالَ: «**وَاللهِ لَلدُّنْيَا أَهْوَنُ عَلَى اللهِ مِنْ هَذَا عَلَيْكُمْ**»(٣).

---

(١) رواه البخاري (٣/ ٢٩٨٨).
(٢) رواه مسلم (٤/ ٢٧٤٢).
(٣) رواه مسلم (٢٩٥٧).

وعن سهل بن سعد الساعدي قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، دُلَّني على عمل إذا عملته أحبني الله، وأحبني الناس. فقال: «**ازْهَدْ فِي الدُّنْيَا يُحِبُّكَ اللهُ، وَازْهَدْ فِيمَا فِي أَيْدِي النَّاسِ يُحِبُّكَ النَّاسُ**»(١).

وعن المستورد الفهري، عن النَّبيِّ ﷺ قال: «**مَا الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مِثْلُ مَا يَجْعَلُ أَحَدُكُمْ إِصْبَعَهُ فِي الْيَمِّ، فَلْيَنْظُرْ بِمَاذَا يَرْجِعُ**»(٢).

وعن عبد الله رضي الله عنه قال: نام رسول الله ﷺ على حصير، فقام وقد أَثَّر في جَنبِه؛ فقلنا: يا رسول الله، لو اتخذنا لك وطاء. فقال: «**مَا لِي وَمَا لِلدُّنْيَا؟ مَا أَنَا فِي الدُّنْيَا إِلَّا كَرَاكِبٍ اسْتَظَلَّ تَحْتَ شَجَرَةٍ، ثُمَّ رَاحَ وَتَرَكَهَا**»(٣).

وقال ﷺ: «**إِنَّ مَطْعَمَ ابْنِ آدَمَ جُعِلَ مَثَلًا لِلدُّنْيَا، وَإِنْ قَزَّحَهُ وَمَلَّحَهُ، فَانْظُرُوا إِلَى مَا يَصِيرُ**»(٤).

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: أخذ رسول الله ﷺ بمنكبي، وقال: «**كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ**».

وكان ابن عمر رضي الله عنهما يقول: «إِذَا أَمْسَيْتَ فَلَا تَنْتَظِرِ الصَّبَاحَ، وَإِذَا أَصْبَحْتَ فَلَا تَنْتَظِرِ المَسَاءَ، وَخُذْ مِنْ صِحَّتِكَ لِمَرَضِكَ، وَمِنْ حَيَاتِكَ لِمَوْتِكَ»(٥).

وعن عمر رضي الله عنه أنه لّما أُتي بكنوز كسرى بكى، فقال له عبد الرحمٰن بن عوف رضي الله عنه: «مَا الَّذِي يُبْكِيكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ؟ فَوَاللهِ إِنَّ هَذَا لَيَوْمُ شُكْرٍ، وَيَوْمُ سُرُورٍ، وَيَوْمُ فَرَحٍ. فَقَالَ عُمَرُ رضي الله عنه: إِنَّ هَذَا لَمْ

---

(١) رواه ابن ماجه (٤١٠٢).
(٢) رواه الترمذي (٢٣٢٣).
(٣) رواه الترمذي (٢٣٧٧).
(٤) رواه أحمد (٢١٢٣٩)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٢١٩٥).
(٥) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٦٤١٦).

يُعْطَهُ قَوْمٌ، إِلَّا أَلْقَى اللهُ بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ»(١).

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «**إِنَّمَا أَخَافُ عَلَيْكُمُ اثْنَتَيْنِ: طُولَ الْأَمَلِ، وَاتِّبَاعَ الْهَوَى. فَإِنَّ طُولَ الْأَمَلِ يُنْسِي الْآخِرَةَ، وَإِنَّ اتِّبَاعَ الْهَوَى يُبْعِدُ عَنِ الْحَقِّ. وَإِنَّ الدُّنْيَا قَدْ تَرَحَّلَتْ مُدْبِرَةً، وَإِنَّ الْآخِرَةَ مُقْبِلَةٌ، وَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا بَنُونَ؛ فَكُونُوا مِنْ أَبْنَاءِ الْآخِرَةِ، فَإِنَّ الْيَوْمَ عَمَلٌ وَلَا حِسَابٌ، وَغَدًا حِسَابٌ وَلَا عَمَلٌ**»(٢).

وعن إبراهيم بن عبد الرحمٰن قال: «أُوتى عبد الرحمٰن رضي الله عنه بطعام وكان صائمًا، فقال: قُتِل مصعب بن عمير وهو خير مِنّي، وكُفِّن في بردة إن غُطي رأسه بدت رجلاه، وإن غُطي رجلاه بدا رأسه. وقُتِل حمزة رضي الله عنه وهو خير مني، فلم يوجد له كفن إلّا بُردة. ثم بُسِط لنا من الدنيا ما بسط. أو قال: أُعطينا من الدنيا ما أُعطينا، وقد خشيت أن تكون عُجِّلت لنا طيباتنا في حياتنا الدنيا. ثم جعل يبكي حتى ترك الطعام»(٣).

وقال الحسن البصري رحمه الله: «والذي نفسي بيده لقد أدركت أقوامًا كانت الدنيا أهون عليهم من التراب الذي يمشون عليه»(٤).

وقال رحمه الله: «أدركت أقوامًا لا يفرحون بشيء من الدنيا أَتوه، ولا يأسفون على شيء منها فاتهم»(٥).

وقال عمر بن عبد العزيز رحمه الله في آخر خطبة خطبها في حياته ـ بعد أن حمد الله وأثنى عليه ـ: «أما بعد، فإنكم لم تُخْلَقوا عَبثًا، ولن تُتركوا سُدى، وإن لكم معادًا يَنزل الله فيه للحكم بينكم والفصل بينكم، فخابَ وخَسِر من خرج من رحمة الله، وحُرِم جنّة عرضها السموات والأرض. أَلَم تعلموا أنه لا يأمن غدًا إلا من حَذِر هذا اليوم وخافه، وباع نافدًا

---

(١) «عدة الصابرين» (ص٢٤٢).

(٢) «مصنف ابن أبي شيبة» (٣٤٤٩٥).

(٣) رواه البخاري (٤/٣٨١٩).

(٤) «الزهد» لابن أبي الدنيا (ص٥٥).

(٥) «الزهد» للإمام أحمد (ص٢٣٠).

بباق، وقليلًا بكثير، وخوفًا بأمان؟! ألا تَرون أنكم من أصلاب الهالكين، وسيكون من بعدكم الباقون، حتى تُردوا إلى خير الوارثين؟ ثم إنكم في كل يوم تُشيّعون غاديًا ورائحًا إلى الله ﷻ، قد قضى نَحْبه، وانقضى أَجله، حتى تُغيّبوه في صِدْع من الأرض، في بطن صِدْع غير مُمهد ولا مُوسد، قد فارق الأحباب وباشر التراب، وواجه الحساب، مُرتهن بعمله، غني عما ترك، فقير إلى ما قدم. فاتقوا الله عباد الله قبل انقضاء مواثيقه، ونزول الموت بكم. ثم جعل طرف ردائه على وجهه، فبكى وأبكى من حوله»[(١)].

وقال يونس بن ميسرة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ليس الزَّهادة في الدُّنيا بتحريم الحلال، ولا بإضاعة المال، ولكن الزهادة في الدُّنيا أنْ تكونَ بما في يد الله أوثق منك بما في يدك، وأنْ يكونَ حالك في المصيبة وحالُك إذا لم تُصب بها سواءً، وأنْ يكون مادِحُك وذامُّك في الحقِّ سواء»[(٢)].

وقال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الزهد المحمود في الكتاب والسُّنّة إنما هو إرادة الدار الآخرة، والمذموم إنما هو من ترك إرادة الدار الآخرة، واشتغل بإرادة الدنيا عنها، فأما مجرد مدح ترك الدنيا، فليس في كتاب الله ولا سُنّة رسوله، ولا تنظر إلى كثرة ذم الناس الدنيا ذمًّا غير ديني، فإن أكثر العامة إنما يذمونها لعدم حصول أغراضهم منها، فإنها لم تَصفُ لأحدٍ قط، ولو نال منها ما عساه أن ينال، وما امتلأت دارٌ حبرة إلّا امتلأت عبرة»[(٣)].

---

(١) «تفسير ابن كثير» (٥/ ٥٠٠).
(٢) «جامع العلوم والحكم» (٥٤٤).
(٣) «الفَتاوَى» (١١/ ٢٨).
وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: مبينًا بعض الأخطاء في مفهوم الزهد وتطبيقه: «وقد يقع الغلط في الزهد من وجوه، كما وقع في الورع:
أحدها: أن قومًا زهدوا فيما ينفعهم بلا مضرة، فوقعوا به في ترك واجبات أو مستحبات، كمن ترك النساء، واللحم ونحو ذلك، وقد قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: =

وقال ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ: «جميع الأمم المكذبة لأنبيائهم إنما حمَلهم على كفرهم وهلاكهم حبّ الدنيا، فإن الرسل لمّا نهوهم عن الشرك والمعاصي التي كانوا يكسبون بها الدنيا، حملهم حبّها على مخالفتهم وتكذيبهم، فكل خطيئة في العالم أصلها حبّ الدنيا... فحبُّ الدنيا والرياسة هو الذي عمَّر النار بأهلها، والزهد في الدنيا والرياسة هو الذي عمَّر الجنة بأهلها، والسُّكْر بحب الدنيا أعظم من السُّكْر بشرب الخمر بكثير، وصاحب هذا السكر لا يفيق منه إلّا في ظلمة اللحد... والدنيا تسحر العقول أعظم سحر.

وقال مالك بن دينار: اتقوا السَّحَّارة، اتقوا السّحّارة؛ فإنها تسحر قلوب العلماء، وأقل ما في حبها أنه يلهي عن حبّ الله وذِكْره، ومن ألهاه

= «**لكني أصوم وأفطر، وأتزوج النساء وآكل اللحم، فمن رغب عن سنتي فليس مني**».

والثاني: أن زهد هذا أوقعه في فعل محظورات، كمن ترك تناول ما أبيح له من المال والمنفعة، واحتاج إلى ذلك، فأخذه من حرام، أو سأل الناس المسألة المحرمة، أو استشرف إليهم والاستشراف مكروه.

والثالث: من زَهِد زُهد الكسل والبطالة والراحة، لا لطلب الدار الآخرة بالعمل الصالح والعلم النافع، فإن العبد إذا كان زاهدًا بطالًا فسد أعظم فساد. فهؤلاء لا يعمرون الدنيا ولا الآخرة...

ثم قال: فمن ترك بزهده حسنات مأمور بها كان ما تركه خيرًا من زهده، أو فعل سيئات منهيًّا عنها، أو دخل في الكسل والبطالات فهو من الأخسرين أعمالًا ﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾﴾ [الكهف: ١٠٤]. ومن زهد، فيما يشغله عن الواجبات أو يوقعه في المحرمات، فهو من المقتصدين أصحاب اليمين. ومن زهد فيما يشغله عن المستحبات والدرجات، فهو من المقدمين السابقين..

واحذر أن تغتر بزهد الكافرين والمبتدعين؛ فإن الفاسق المؤمن الذي يريد الآخرة ويريد الدنيا خير من زهاد أهل البدع وزهاد الكفار؛ إما لفساد عقدهم؛ وإما لفساد قصدهم وإما لفسادهما جميعًا». «الفَتاوَى» (٢٠/١٤٨).

ماله عن ذكر الله تعالى فهو من الخاسرين، وإذا لَهِي القلب عن ذكر الله، سكنه الشيطان وصرفه حيث أراد»[١].

---

(١) «عدة الصابرين» (ص١٨٦).

قال ابن القيم رحمه الله: «وإنما كان حبّ الدنيا رأس الخطايا، ومفسدًا للدين من وجوه:

أحدها: أن حبها يقتضي تعظيمها وهي حقيرة عند الله، ومن أكبر الذنوب تعظيم ما حقّر الله.

وثانيها: أن الله لعنها ومَقتها وأبغضّها، إلا ما كان له فيها، ومن أحبّ ما لعنه الله ومَقته وأبغضَه، فقد تعرّض للفتنة ومَقته وغضَبه.

وثالثها: أنه إذا أحبّها، صيرها غايته، وتوسل إليها بالأعمال التي جعلها الله وسائل إليه، وإلى الدار الآخرة، فعكس الأمر، وقلب الحكمة، فانعكس قلبه، وانعكس سيره إلى وراء، **فها هنا أمران:**

أحدهما: جعل الوسيلة غاية. **والثاني**: التوسُّل بأعمال الآخرة إلى الدنيا، وهذا شر معكوس من كل وجه، وقلب منكوس غاية الانتكاس.

وهذا هو الذي انطبق عليه ـ حذو القذة بالقذة ـ قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾، وقوله تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾﴾، وقوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْأٓخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْأٓخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾﴾. فهذه ثلاث آيات يشبه بعضها بعضًا، وتدل على معنى واحد، وهو أن من أراد بعمله الدنيا وزينتها دون الله والدار الآخرة، فحظّه ما أراد، وهو نصيبه ليس له نصيب غيره..

ورابعها: أن محبتها تعترض بين العبد وبين فعل ما يعود عليه نفعه في الآخرة لاشتغاله عنه بمحبوبه.

وخامسها: أن محبتها تجعلها أكثر هم العبد.

وسادسها: أن مُحبّها أشدّ الناس عذابًا بها، وهو معذب في دوره الثلاث: يعذب في الدنيا بتحصيلها، والسعي فيها، ومنازعة أهلها. وفي دار البرزخ بفواتها، والحسرة عليها. وكونه قد حيل بينه وبين محبوبه على وجه لا يرجو اجتماعه به أبدًا، ولم يحصل له هناك محبوب يعوضه عنه. فهذا أشد الناس =

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: « والذي يصحح هذا الزهد ـ أي: المشروع ـ ثلاثة أشياء:

أحدها: علم العبد أنها ظل زائل، وخيال زائر.

الثاني: علمه أن وراءها دارًا أعظم منها قدرًا، وأجل خطرًا، وهي دار البقاءِ... فالزهد فيها لكمال [رغبته] فيما هو أعظم منها زهد فيها.

الثالث: معرفته أن زهده فيها لا يمنعه شيئًا كتب له منها، وأن حرصه عليها لا يجلب له ما لم يقض له منها، فمتى تيقن ذلك وصار له به علم يقين، هان عليه الزهد فيها.... فهذه الأُمور الثلاثة تُسَهل على العبد الزهد فيها، وتُثَبِّت قدمه في مقامه. والله الموفق لمن يشاءُ»(١).

وقال أيضًا رَحِمَهُ اللَّهُ: «سمعت شيخ الإسلام يقول: الزهد ترك ما لا ينفع في الآخرة، والورع ترك ما تخاف من ضرره في الآخرة. وهذه العبارة

= عذابًا في قبره، يعمل الهم والغم والحزن والحسرة في روحه ما تعمل الديدان وهوام الأرض في جسمه. والمقصود: أن مُحب الدنيا يُعذب في قبره، ويُعذب يوم لقاء ربه، قال تعالى: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٥٥﴾﴾. قال بعض السلف: يعذبهم بجمعها، وتزهق أنفسهم بحبها، وهم كافرون بمنع حق الله فيها.

وسابعها: أن عاشقها ومحبها الذي يؤثرها على الآخرة مِن أَسْفَه الخَلْق، وأقلهم عقلًا؛ إذ آثر الخيال على الحقيقة، والمنام على اليقظة، والظل الزائل على النعيم الدائم، والدار الفانية على الدار الباقية، وباع حياة الأبد في أرغد عيش، بحياة إنما هي أحلام نوم أو كظل زائل. أشبه الأشياء بالدنيا الظل؛ تحسب له حقيقة ثابتة وهو في تقلُّص وانقباض؛ فتتبعه لتدركه فلا تلحقه. وأشبه الأشياء بها السراب ﴿يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٣٩﴾﴾ [النور: ٣٩]. وأشبه الأشياء بها المنام، يرى فيه العبد ما يحب وما يكره، فإذا استيقظ علم أن ذلك لا حقيقة له». «عدة الصابرين» (ص١٨٦).

(١) «طريق الهجرتين» (٢/٥٤٩).

من أحسن ما قيل في الزهد والورع وأجمعها»[١].

فيه فوائد

الأولى: منزلة الزهد في الكتاب والسُّنّة.

الثانية: الحياة الدنيا لعب، ولهو، وزينة، وتفاخر، وتكاثر في الأموال والأولاد.

الثالثة: الدنيا من أولها إلى آخرها متاع الغرور.

الرابعة: خوف النبي ﷺ على أُمّته من فتنة الدنيا، والتنافس فيها.

الخامسة: عِظَم الآخرة، وبيان ثوابها، وكمال نعيمها.

السادسة: معرفة أحوال السَّلَف في الزهد في الدنيا، والرغبة في الآخرة.

السابعة: حبّ الدنيا أصل كل خطيئة في العالم.

الثامنة: حبّ الدنيا، والزهد في الآخرة، هو الذي عَمّر النار بأهلها.

التاسعة: تعريف الزهد، ومعرفة ما الذي يدخل فيه، والذي لا يدخل فيه.

العاشرة: الزهد المحمود هو: ترك ما يَشْغل من الدنيا عن الدار الآخرة.

الحادية عشرة: معرفة الفرق بين الزهد المحمود، والزهد المذموم.

الثانية عشرة: معرفة الفرق بين الزهد والورع.

الثالثة عشرة: ذمُّ حال أهل الدنيا الزاهدين في الآخرة، المقبلين على حطام الدنيا.

---

(١) «مدارج السالكين» (٢/ ١٠).

٢

باب في حكم الزهد وأنواعه

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ:

«**الزهد على أربعة أقسام:**

* **أحدها: فرض على كل مسلم: وهو الزهد في الحرام**. وهذا متى أخلّ به انعقد سبب العقاب؛ فلا بدّ من وجود مسبَّبه ما لم ينعقد سبب آخر يضادّه.

* **الثاني: زهد مستحب**: وهو على درجات في الاستحباب بحسب المزهود فيه؛ **وهو: الزهد في المكروه**، وفضول المباحات والتفنن في الشهوات المباحة.

* **الثالث: زهد الداخلين في هذا الشأْن**، وهم المشمّرون في السير إلى الله، **وهو نوعان:**

• **أحدهما: الزهد في الدنيا جملة:**

وليس [المراد] تخليها من اليد، ولا إخراجها وقعوده صفرًا منها، وإنما المراد إخراجها من قلبه بالكلية، فلا يلتفت إليها، ولا يدعها تساكن قلبه، وإن كانت في يده. فليس الزهد أن تترك الدنيا من يدك وهي في قلبك، وإنما الزهد أن تتركها من قلبك وهي في يدك. وهذا كحال الخلفاء الراشدين وعمر بن عبد العزيز الذي يضرب بزهده المثل، مع أن خزائن الأموال تحت يده؛ بل كحال سيد ولد آدم ﷺ حين فُتح عليه من الدنيا ما فُتح، ولا يزيده ذلك إلا زهدًا فيها.

• **النوع الثاني: الزهد في نفسك:**

وهو أصعب الأقسام وأشقّها. وأَكثر الزاهدين إنما وصلوا إليه ولم

يلجوه... وأما الزهد في النفس فهو ذبحها بغير سكين، **وهو نوعان**:

ـ **أحدهما: وسيلة وبداية**: وهو أن تميتها فلا يَبْقى [لها] عندك من القَدْر شيء، فلا تَغضَب لها ولا تَرضى لها ولا تَنتصر لها ولا تَنتقم لها، قد سبَّلت عِرضها ليوم فَقْرها وفاقتِها، فهي أَهون عليك من أن تَنتصر لها أو تَنتقم لها أو تُجيبها إذا دعتك أو تكرمها إذا عصتك أو تغضَب لها إذا ذُمّت؛ بل هي عندك أخس مما قيل فيها، أو ترفهها عما فيه حظك وفلاحك، وإن كان صعبًا عليها، وهذا وإن كان ذبحًا لها وإماتة عن طباعها وأخلاقها، فهو عين حياتها وصحتها، ولا حياة لها بدون هذا البتة.

وهذه العقبة هي آخر عقبة يُشرف منها على منازل المقربين، وينحدر منها إلى وادي البقاءِ ويشرب من عين الحياة، ويخلص روحه من سجون المحن والبلاء وأسر الشهوات، وتتعلق بربها ومعبودها ومولاها الحق؛ فيا قرة عينها ويا نعيمها وسرورها بقربه، ويا بهجتها بالخلاص من عدوها، [ومصيرها إلى وليها] مولاها ومالك أمرها ومتولي مصالحها. وهذا الزهد هو أول نَقْدةٍ من مَهر الحب، فيا مفلسُ تأَخَّرْ.

ـ **والنوع الثاني: غاية وكمال**: وهو أن يبذلها للمحبوب جملة؛ بحيث لا يستبقي منها شيئًا؛ بل يزهد فيها زهد المحب في قدر خسيس من ماله، قد تعلّقت رغبة محبوبه به، فهل يجد من قلبه رغبة في إمساك ذلك القَدْر وحبسه عن محبوبه؟ فهكذا زهد المحب الصادق في نفسه قد خرج عنها وسلمها لربه، فهو يبذلها له دائمًا بتعرض منه لقبولها.

وجميع مراتب الزهد المتقدمة مبادٍ ووسائل لهذه المرتبة، ولكن لا يصح إلا بتلك المراتب، فمن رام الوصول إلى هذه المرتبة بدون ما قبلها فمتعنٍّ متمنٍّ؛ كمن رام الصعود إلى أعلى المنارة بلا سلَّم»[(١)].

---

(١) «طريق الهجرتين» (٢/٥٤١ ـ ٥٥٤).

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: «ومُتعلّقه ـ أي: الزهد ـ ستة أشياء: لا يستحق العبد اسم الزهد حتى يزهد فيها، وهي: المال، والصور، والرياسة، والناس، والنفس، وكل ما دون الله»(١).

فيه فوائد

الأولى: معرفة الزهد الواجب على كل مسلم، والزهد المستحب الذي يتنافس فيه أهل الإيمان.

الثانية: معرفة مجالات الزهد وأنواعه الستة.

(١) «مدارج السالكين» (٢/ ١٥).

٣

باب ما جاء في التحذير من فتنة المال

قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ١٥﴾ [التغابن: ١٥].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ٩﴾ [المنافقون: ٩].

وعن كعب بن عياض رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إِنَّ لِكُلِّ أُمَّةٍ فِتْنَةً، وَفِتْنَةُ أُمَّتِي الْمَالُ**»(١).

وعن عطاء بن يسار، أنه سمع أبا سعيد الخدري رضي الله عنه، يحدث: أن النبي ﷺ جلس ذات يوم على المنبر وجلسنا حوله، فقال: «**إِنِّي مِمَّا أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِي، مَا يُفْتَحُ عَلَيْكُمْ مِنْ زَهْرَةِ الدُّنْيَا وَزِينَتِهَا**». فقال رجل: يا رسول الله، أويأتي الخير بالشر؟ فسكت النبي ﷺ. فقيل له: ما شأنك؟ تكلم النبي ﷺ ولا يكلمك؟ فرأينا أنه ينزل عليه؟ قال: فمسح عنه الرُّحضَاءَ، فقال: «**أَيْنَ السَّائِلُ؟**» وكأنه حمده، فقال: «**إِنَّهُ لَا يَأْتِي الْخَيْرُ بِالشَّرِّ؛ وَإِنَّ مِمَّا يُنْبِتُ الرَّبِيعُ يَقْتُلُ أَوْ يُلِمُّ، إِلَّا آكِلَةَ الْخَضْرَاءِ، أَكَلَتْ حَتَّى إِذَا امْتَدَّتْ خَاصِرَتَاهَا اسْتَقْبَلَتْ عَيْنَ الشَّمْسِ، فَثَلَطَتْ وَبَالَتْ، وَرَتَعَتْ؛ وَإِنَّ هَذَا الْمَالَ خَضِرَةٌ حُلْوَةٌ، فَنِعْمَ صَاحِبُ الْمُسْلِمِ مَا أَعْطَى مِنْهُ الْمِسْكِينَ وَالْيَتِيمَ وَابْنَ السَّبِيلِ - أَوْ كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ -؛ وَإِنَّهُ مَنْ يَأْخُذُهُ بِغَيْرِ حَقِّهِ، كَالَّذِي يَأْكُلُ وَلَا يَشْبَعُ، وَيَكُونُ شَهِيدًا عَلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**»(٢).

---

(١) رواه الترمذي (٤/ ٢٣٣٦).

(٢) رواه البخاري (١٤٦٥).

قال ابن القيم رحمه الله في شرحه لحديث أبي سعيد: «**قوله: «إن مما ينبت الربيع** =

وعن كعب بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَا ذِئْبَانِ جَائِعَانِ أُرْسِلَا فِي غَنَمٍ بِأَفْسَدَ لَهَا مِنْ حِرْصِ الْـمَرْءِ عَلَى الْمَالِ وَالشَّرَفِ لِدِينِهِ**»[1].

وقال أبو الدرداء رضي الله عنه: «أَعُوذُ بِاللهِ مِنْ تَفْرِقَةِ الْقَلْبِ. قِيلَ: وَمَا تَفْرِقَةُ الْقَلْبِ؟ قَالَ: أَنْ يُجْعَلَ لِي فِي كُلِّ وَادٍ مَالٌ»[2].

وقال شيخ الإسلام رحمه الله: «حب المال والشرف يفسد الدين، والذي يعاقب عليه الشخص هو الحب الذي يدعو إلى المعاصي مثل

= **ما يقتل حبطًا أو يلم**»: هذا من أحسن التمثيل المتضمن للتحذير من الدنيا، والانهماك عليها، والمسرة فيها؛ وذلك أن الماشية يروقها نبت الربيع، فتأكل منه بأعينها، فربما هلكت حبطًا. و«الحبط»: انتفاخ بطن الدابة من الامتلاء أو من المرض. فكذلك الشرِه في المال يقتله شرهه وحرصه، فإن لم يقتله قارب أن يقتله، وهو قوله: «أو يلم»، وكثير من أرباب الأموال إنما قتلتهم أموالهم، فإنهم شرهوا في جمعها، واحتاج إليها غيرهم، فلم يصلوا إليها إلا بقتلهم، أو ما يقاربه من إذلالهم وقهرهم.

وقوله: «**إلا آكلة الخضر**»: هذا تمثيل لمن أخذ من الدنيا حاجته؛ مثّله بالشاة الآكلة من الخضر بقدر حاجتها، أكلت حتى امتلأت خاصرتاها.

وفي قوله: «**استقبلت عين الشمس فثلطت وبالت**» **ثلاث فوائد**:

أحدها: أنها لما أخذت حاجتها من المرعى، تركته وبركت مستقبلة الشمس لتستمرئ بذلك ما أكلته. **الثانية**: أنها أعرضت عما يضرها من الشره في المرعى، وأقبلت على ما ينفعها من استقبال الشمس التي يحصل لها بحرارتها إنضاج ما أكلته وإخراجه. **الثالثة**: أنها استفرغت بالبول والثلط ما جمعته من المرعى في بطنها، فاستراحت بإخراجه، ولو بقي فيها لقتلها. فكذلك جامع المال: مصلحته: أن يفعل به كما فعلت هذه الشاة.

وفي هذا الحديث إشارة إلى الاعتدال والتوسط بين الشره في المرعى القاتل بكثرته، وبين الإعراض عنه وتركه بالكلية فتهلك جوعًا. وتضمّن الخبر أيضًا إرشاد المكثر من المال إلى ما يحفظ عليه قوته وصحته في بدنه وقلبه، وهو الإخراج منه وإنفاقه، ولا يحبسه فيضره حبسه». «عدة الصابرين» (ص١٩٩).

(١) رواه الترمذي (٤/ ٢٣٧٦).

(٢) «سير أعلام النبلاء» (٢/ ٣٤٨).

الظلم والكذب والفواحش، ولا ريب أن فَرَط الحرص على المال والرياسة يوجب ذلك، أما مجرد حبّ القلب إذا كان الإنسان يفعل ما أَمر الله به ويترك ما نُهي عنه، ويخاف مقام ربه، وينهى النفس عن الهوى، فإن الله تعالى لا يعاقب على مثل هذا، إذا لم يكن معه عمل. وجامع المال إذا قام بالواجبات، ولم يكتسبه من الحرام لا يعاقب عليه، لكن إخراج الفضل والاقتصاد على الكفاية أفضل وأسلم، وأفرغ للقلب، وأجمع للهم، وأنفع للدنيا والآخرة»(١).

وقال ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**فأما الحرص على المال، فهو على نوعين**:

ـ **أحدهما**: شدّة محبة المال مع طلبه من وجوه مباحة، والمبالغة في طلبه والجدّ في تحصيله واكتسابه من وجوهه مع الجهد والمشقة». ثم قال ـ في هذا النوع ـ: «ولو لم يكن في الحرص على المال إلّا تضييع العمر الشريف الذي لا قيمة له، وقد يُمكن صاحبه فيه اكتساب الدرجات العلى، والنعيم المقيم فضيّعه بالحرص في طلب رزق مضمون مقسوم لا يأتي منه إلّا ما قُدّر وقُسِم، ثم لا ينتفع به؛ بل يتركه لغيره، ويرتحل عنه، فيبقى حسابه عليه ونفعه لغيره، فيجمع لمن لا يحمده، ويَقدم على مَن لا يعذره: لكفاه بذلك ذمًّا للحرص؛ فالحريص يُضيِّع زمانه الشريف، ويُخاطر بنفسه في الأسفار، وركوب الأخطار، لجمع مال ينتفع به غيره.

ـ **النوع الثاني**: من الحرص على المال: أن يزيد على ما سبق ذكره في النوع الأول، حتى يطلب المال من الوجوه المحرمة، ويمنع الحقوق الواجبة، فهذا من الشح المذموم، قال الله تعالى: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ١٦﴾ [التغابن: ١٦].

وفي «صحيح مسلم»: عن جابر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، عن النبي ﷺ قال: «**اتَّقُوا الشُّحَّ؛ فَإِنَّ الشُّحَّ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، حَمَلَهُمْ عَلَى أَنْ سَفَكُوا دِمَاءَهُمْ،**

---

(١) «الفَتَاوَى» المصرية (٤٩٣).

وَاسْتَحَلُّوا مَحَارِمَهُمْ»[(١)](٢).

فيه فوائد

الأولى: تحذير القرآن والسُّنّة من فتنة المال، والتعلّق به.

الثانية: معرفة الحرص المباح، والحرص المذموم في جمع المال.

الثالثة: عواقب الحرص المذموم في جمع المال.

الرابعة: آفة الحرص المباح في جمع المال كما في كلامَيْ شيخ الإسلام، وابن رجب.

الخامسة: الحذر من الاشتغال بالمال والولد وحطام الدنيا عن الدار الآخرة.

السادسة: الاقتصاد على الكفاية في الحياة أسلم لدين العبد، وأصلح لقلبه.

السابعة: الإرشاد النبوي إلى التوسط في التعامل مع المال، بما يحفظ القلب والبدن للتجار، ويسدّ حاجة العِبَاد بلا إفراط ولا تفريط.

الثامنة: أهمية تطهير القلب من الحرص المذموم في جمع المال.

التاسعة: جمع المال للحاجة أو الاستغناء عن الناس ليس بمذموم(٣).

---

(١) رواه مسلم (٢٥٧٨).

(٢) «ذم المال والجاه» (٥/ ٣٩) باختصار.

(٣) قال ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ليس في الدنيا أنفع للعلماء من جمع المال للاستغناء عن الناس؛ فإنها إذا ضم إلى العلم، حيز الكمال. وإن جمهور العلماء شغلهم العلم عن الكسب، فاحتاجوا إلى ما لا بد منه، وقل الصبر، فدخلوا مداخل شانتهم، وإن تأولوا فيها.. وقد رأينا جماعة من المتصوفة والعلماء يَغْشَون الولاة لأجل نيل ما في أيديهم؛ فمنهم: من يُداهن ويُرائي، ومنهم: من يَمدح بما لا يجوز، ومنهم: من يسكت عن منكرات، إلى غير ذلك من المداهنات، وسببها الفقر. فعلمنا أن كمال العز، وبُعد الرياء، إنما يكون في البعد عن العمال الظلمة. =

٤

باب ما جاء في ذمِّ طلب المناصب والرِّياسات

قال تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ۝٨٣﴾ [القصص: ٨٣].

وعن كعب بن مالك رَحِمَهُ اللهُ، عن النبي ﷺ أنه قال: «**مَا ذِئْبَانِ جَائِعَانِ أُرْسِلَا فِي غَنَمٍ بِأَفْسَدَ لَهَا مِنْ حِرْصِ الْمَرْءِ عَلَى الْمَالِ وَالشَّرَفِ لِدِينِهِ**»(١).

وقال ابن رجب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «أَخبر النبي ﷺ أن حرص المرء على المال والشّرف إفساد لدينه ليس بأقلّ من إفساد الذئبين لهذه الغنم؛ بل إمّا أن يكون مساويًا وإمّا أكثر. يُشير أنه لا يَسْلَم من دين المسلم مع حرصه على المال والشرف في الدنيا إلّا القليل، كما أنه لا يسلم من الغنم مع إفساد الذئبين المذكورين فيها إلّا القليل، فهذا المثل العظيم يتضمن غاية

= **ولم نر من صح له هذا إلا في أحد رجلين: إما من كان له مال:** كسعيد بن المسيب ـ كان يتجر في الزيت وغيره ـ، وسفيان الثوري ـ كانت له بضائع ـ، وابن المبارك. **وإما من كان شديد الصبر**، قنوعًا بما رُزِق، وإن لم يكفه، كبشر الحافي، وأحمد بن حنبل. ومتى لم يجد الإنسان كصبر هذين، ولا كمال أولئك؛ فالظاهر تقلّبه في المحن والآفات، وربما تلف دينه.

فعليك يا طالب العلم بالاجتهاد في جمع المال للغنى عن الناس؛ فإنه يجمع لك دينك؛ فما رأينا في الأغلب منافقًا في التدين والتزهد والتخشع، ولا آفة طرأت على عالم إلا بحب الدنيا، وغالب ذلك الفقر. فإن كان من له مال يكفيه، ثم يطلب بتلك المخالطة الزيادة، فذلك معدود في أهل الشّره، خارج عن حيز العلماء، نعوذ بالله من تلك الأحوال». «صيد الخاطر» (ص١٧٥).

(١) رواه الترمذي (٢٣٧٦).

التحذير من شرِّ الحرص على المال والشرف في الدنيا»(١).

وقال أيضًا رَحِمَهُ اللَّهُ: «**والحرص على الشّرف قسمان:**

ـ **أحدهما:** طلب الشّرف بالولاية والسلطان والمال. وهذا خطر جدًّا، وهو في الغالب يمنع خير الآخرة وشرفها وكرامتها وعزها، قال الله تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [القصص: ٨٣]. وقلّ من يحرص على رياسة الدنيا بطلب الولايات فيوفق؛ بل يُوكل إلى نفسه.

ـ **القسم الثاني:** طلب الشرف والعلو على الناس بالأمور الدينية؛ كالعلم والعمل والزهد. فهذا أفحش من الأول، وأقبح وأشد فسادًا وخطرًا؛ فإن العلم والعمل والزهد إنما يُطلب به ما عند الله من الدرجات العلى والنعيم المقيم، والقربى منه والزلفى لديه»(٢).

وقال أيضًا رَحِمَهُ اللَّهُ: «واعلم أن حب الشرف بالحرص على نفوذ الأمر والنهي، وتدبير أمر الناس إذا قُصِدَ بذلك مجرد علو المنزلة على

---

(١) «ذم المال والجاه» (٥/ ٣٩).

من تطلعت نفسه للمناصب، وقع في محاذير كثيرة منها:

١ ـ **الغفلة، ونسيان الحق، ومداهنة الخلق في الدين؛** قال ابن الجوزي رَحِمَهُ اللَّهُ: «وما تتمكن الرياسات حتى يتمكن من القلب الغفلة، ورؤية الخلق، ونسيان الحق؛ فحينئذ تطلب الرياسة على أهل الدنيا، ولقد رأيت من الناس عجبًا حتى من يتزين بالعلم». «صيد الخاطر» (ص٢٢٧).

٢ ـ **عيب الناس ولمزهم؛** قال الفضيل: «ما أحب أحدٌ الرياسة إلا أحبّ ذكر الناس بالنقائص والعيوب ليتميز هو بالكمال، ويكره أن يذكر الناس أحدًا عنده بخير. ومن عشق الرياسة، فقد تودع صلاحه».

٣ ـ **خصومة الناس في الغالب؛** قال سفيان الثوري: «ما رأيت الزهد في شيء أقل منه في الرياسة، ترى الرجل يزهد في المطعم والمشرب والمال والثياب، فإذا نوزع في الرياسة حامَى عليها وعادى».

(٢) ذم المال والجاه (٥/ ٤٦) باختصار.

الخلق، والتعاظم عليهم، وإظهار صاحب هذا الشرف حاجة الناس وافتقارهم إليه، وذلهم له في طلب حوائجهم منه، فهذا نفسه مزاحمة لربوبية الله وإلهيته»(١).

فيه فوائد

الأولى: تحذير النبي ﷺ أُمّته من فتنة المناصب والرياسات، وبيانه لضرَرِهما على دين العبد.

الثانية: من طلب الرياسة وُكِل إليها(٢).

---

(١) ذم المال والجاه (٥/ ٥٠).
قال شيخ الإسلام رحمه الله مبينًا أقسام الناس في طلب العلو: «**فإن الناس أربعة أقسام**:
القسم الأول: يريدون العلو على الناس والفساد في الأرض، وهو معصية لله. وهؤلاء الملوك والرؤساء المفسدون كفرعون وحزبه.
والقسم الثاني: الذين يريدون الفساد بلا علو؛ كالسُّرّاق والمجرمين من سفلة الناس.
والقسم الثالث: يريدون العلو بلا فساد؛ كالذين عندهم دين يريدون أن يعلوا به على غيرهم من الناس.
وأما **القسم الرابع**: فهم أهل الجنة الذين لا يريدون علوًّا في الأرض ولا فسادًا، مع أنهم قد يكونون أعلى من غيرهم، كما قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾﴾.
فكم ممن يريدون العلو، ولا يزيده ذلك إلا سفولًا، وكم ممن جعل من الأعلين، وهو لا يريد العلو ولا الفساد؛ وذلك لأن إرادة العلو على الخلق ظلم؛ لأن الناس من جنس واحد، فإرادة الإنسان أن يكون هو الأعلى ونظيره تحته ظلم، ومع أنه ظلم فالناس يبغضُون من يكون كذلك ويعادونه؛ لأن العادل منهم لا يحب أن يكون مقهورًا لنظيره، وغير العادل منهم يؤثر أن يكون هو القاهر». «الفَتاوَى» (٢٨/ ٣٩٣).

(٢) جاء في الصحيحين عن عبد الرحمٰن بن سمرة أن رسول الله ﷺ قال: «**لا تسأل الإمارة؛ فإنك إن أعطيتها من غير مسألة أعنت عليها، وإن أعطيتها عن مسألة** =

الثالثة: طلب العلو على الخلق ليس من أخلاق المؤمنين المخلصين.

الرابعة: ذمُّ من جعل العلم الشرعي وسيلة لنيل المناصب والرياسات.

الخامسة: من طلب الدنيا فاتته الآخرة.

السادسة: أهمية تطهير القلب من أمراضه، ومنها حبّ العلو على الخلق.

❁ ❁ ❁

= **وكلت إليها**». وفي «الصحيحين»: «أن قومًا دخلوا عليه فسألوه الولاية. فقال: «**إنا لا نولي أمرنا هذا من طلبه**».

٥

باب ما جاء في التحذير من فتنة النساء

قال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾ ۞ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿١٥﴾﴾ [آل عمران: ١٤ ـ ١٥][(١)].

(١) قال القرطبي في تفسيره لهذه الآية: «قوله: ﴿مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾: بدأ بهن لكثرة تشوُّف النفوس إليهن، ولأنهن حبائل الشيطان، وفتنة الرجال».
ولهذا أمر الله تعالى بِغضّ البصر.
قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وأمر الله تعالى نبيه أن يأمر المؤمنين بغضّ أبصارهم، وحفظ فروجهم، وأن يعلمهم أنه مشاهد لأعمالهم مطلع عليها: ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾﴾ [غافر: ١٩].
ولما كان مبدؤها ذلك من قبل البصر، جعل الأمر بِغضّه مقدمًا على حفظ الفرج، فإن الحوادث مبدؤها من النظر، كما أن معظم النار مبدؤها من مستصغر الشرر، ثم تكون نظرة، ثم تكون خطرة، ثم خطوة، ثم خطيئة. ولهذا قيل: (من حفظ هذه الأربعة أحرز دينه: اللحظات، والخطرات، واللفظات، والخطوات).
فينبغي للعبد أن يكون بواب نفسه على هذه الأبواب الأربعة، ويلازم الرباط على ثغورها، فمنها يدخل عليه العدو فيجوس خلال الديار ويتبر ما علوا تتبيرًا». «الجواب الكافي» (ص١٧٩).
ومن الأدوية: ما قاله الأحنف بن قيس؟: «جنبوا مجالسنا ذكر النساء والطعام، إني أبغض الرجل أن يكون وصافًا لفرجه وبطنه». «سير أعلام النبلاء» (٤/ ٤٩).
لأن الحديث عنهن يحرك الغرائز، ويزيد صاحب المرض مرضًا.

وقال تعالى: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾﴾ [النساء: ٢٨].

وقال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾﴾ [الشعراء: ٢٠٥ ـ ٢٠٧].

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «**إِنَّ الدُّنْيَا حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ، وَإِنَّ اللهَ مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيهَا، فَيَنْظُرُ كَيْفَ تَعْمَلُونَ؛ فَاتَّقُوا الدُّنْيَا وَاتَّقُوا النِّسَاءَ، فَإِنَّ أَوَّلَ فِتْنَةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانَتْ فِي النِّسَاءِ**»(١).

وعن أسامة بن زيد رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «**مَا تَرَكْتُ بَعْدِي فِتْنَةً أَضَرَّ عَلَى الرِّجَالِ مِنَ النِّسَاءِ**»(٢).

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: جاء رهط إلى بيوت أزواج النبي ﷺ يسألون عن عبادة النبي ﷺ، فلما أُخبِروا كأنهم تقالُّوها. فقالوا: وأين نحن من النبي ﷺ قد غُفِر له ما تقدّم من ذنبه وما تأخّر. قال أحدهم: أما أنا فإني أُصلي الليل أبدًا. وقال آخر: أنا أصوم الدهر ولا أُفطر. وقال آخر: أنا اعتزل النساء فلا أتزوج أبدًا. فجاء رسول الله ﷺ إليهم، فقال: «**أَنْتُمُ الَّذِينَ قُلْتُمْ كَذَا وَكَذَا؟ أَمَاوَاللهِ إِنِّي لَأَخْشَاكُمْ وَأَتْقَاكُمْ لَهُ، لَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي، فَلَيْسَ مِنِّي**»(٣).

وقال شيخ الإسلام رحمه الله: «ولهذا لا يكون عشق الصور إلّا من ضعف محبة الله وضعف الإيمان، والله تعالى إنما ذكره في القرآن عن امرأة العزيز المشركة، وعن قوم لوط المشركين»(٤).

---

(١) رواه مسلم (٤/ ٢٧٤٢).
(٢) رواه البخاري (٥٠٩٦)، ومسلم (٢٧٤٠).
(٣) رواه البخاري (٥٠٦٣)، ومسلم (١٤٠١).
(٤) «مجموع الفتاوى» (١٥/ ٢٩٣).

فيه فوائد

الأولى: تهذيب الشريعة لفتنة الشهوات، وصرفها للحلال عن الحرام.

الثانية: من ترك شيئًا لله عوضه الله خيرًا منه.

الثالثة: تحذير النبي ﷺ أُمته من فتنة النساء.

الرابعة: فتنة النساء على الرجال أشد الفتن.

الخامسة: أهل الشهوات مهما تمتعوا بها بالحرام، فهي إلى آلام وحسرات.

السادسة: السُّنّة وسط في باب التعامل مع الشهوات.

السابعة: العشق والافتتان بالنساء سببه نقص التوحيد، وضعف محبة الله في القلب.

الثامنة: الواجب على العبد أن يصرف شهوة نفسه إلى الحلال بالزواج، كما قال النبي ﷺ: «يَا مَعْشَرَ الشَّبَابِ، مَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمُ الْبَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ؛ فَإِنَّهُ أَغضّ لِلْبَصَرِ، وَأَحْصَنُ لِلْفَرْجِ، وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصِّيَامِ؛ فَإِنَّهُ لَهُ وِجَاءٌ»(١).

۞ ۞ ۞

(١) متفق عليه: البخاري (٥/ ٤٧٧٨)، ومسلم (٢/ ١٤٠٠).

٦

باب ما جاء في القناعة، والرضا بالكَفَاف من الرزق

قال تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ۝١٣﴾ [سبأ: ١٣].

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ قال: «**قَدْ أَفْلَحَ مَنْ أَسْلَمَ، وَرُزِقَ كَفَافًا، وَقَنَّعَهُ اللهُ بِمَا آتَاهُ**»(١).

وقال رسول الله ﷺ: «**مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمْ آمِنًا فِي سِرْبِهِ مُعَافًى فِي جَسَدِهِ عِنْدَهُ قُوتُ يَوْمِهِ، فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا**»(٢).

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: (مَا شَبِعَ آلُ مُحَمَّدٍ ﷺ مُنْذُ قَدِمِ الْمَدِينَةَ مِنْ طَعَامِ بُرٍّ ثَلَاثَ لَيَالٍ تِبَاعًا، حَتَّى قُبِضَ)(٣).

وعنها رضي الله عنها قلت لعروة ابن أُختي: «إِنْ كُنَّا لَنَنْظُرُ إِلَى الهِلَالِ، ثُمَّ الهِلَالِ، ثَلَاثَةَ أَهِلَّةٍ فِي شَهْرَيْنِ، وَمَا أُوقِدَتْ فِي أَبْيَاتِ رَسُولِ اللهِ ﷺ نَارٌ. فَقُلْتُ: مَا كَانَ يُعِيشُكُمْ؟ قَالَت: الْأَسْوَدَانِ: التَّمْرُ وَالْمَاءُ، إِلَّا أَنَّهُ قَدْ كَانَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ جِيرَانٌ مِنَ الأَنْصَارِ، كَانَتْ لَهُمْ مَنَائِحُ، وَكَانُوا يَمْنَحُونَ رَسُولَ اللهِ ﷺ مِنْ أَلْبَانِهِمْ، فَيَسْقِينَا»(٤).

وعنها رضي الله عنها قالت: «كَانَ فِرَاشُ رَسُولِ الله ﷺ مِنْ أَدَمٍ، وَحَشْوُهُ مِنْ لِيفٍ»(٥).

وقال بكر بن عبد الله المزني رحمه الله: «يكفيك من الدنيا ما قنعت به، ولو كفَّ تَمْر وشَرْبة ماء، وظِلَّ خباء، وكلما انفتح عليك من الدنيا شيء

(١) رواه مسلم (٢/ ١٠٥٤).
(٢) رواه الترمذي (٢٣٤٦).
(٣) رواه البخاري (٥/ ٦٠٨٩).
(٤) رواه البخاري (٥/ ٦٠٩٤).
(٥) رواه البخاري (٥/ ٦٠٩١).

ازدادت نفسك به تعبًا»[١].

وقال الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الحريص الجاهل والقانع الزاهد، كل مُدرك رِزْقه، فَعَلام التهافت في النار؟»[٢].

وقال المناوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «القناعة: هي السكون عند عدم المألوف. وقيل: الاكتفاء بالبلغة. وقيل: سكون الجأش عند أدنى المعاش. وقيل: الوقوف عند الكفاية»[٣].

فيه فوائد

الأولى: فضل القناعة، ومنزلتها في الكتاب والسُّنّة.

الثانية: فضل العِفَّة، والاستغناء بالله عن الخلق.

الثالثة: معرفة جانب من صفة عَيْش النبي ﷺ.

الرابعة: قناعة السَّلَف.

الخامسة: مفهوم القناعة.

السادسة: ذمُّ التسخُّط وعدم القناعة في الحياة.

السابعة: لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها.

❁ ❁ ❁

---

(١) «القناعة»، لابن أبي الدنيا (ص٤٠).

(٢) «القناعة» (ص٤١).

(٣) «التوقيف على مهمات التعاريف» (ص٢٧٥).

٧

باب ما جاء في الوَرَعِ

قال تعالى: ﴿وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾﴾ [النور: ١٥].

وقال النبي ﷺ: «**فَضْلُ الْعِلْمِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ فَضْلِ الْعِبَادَةِ، وَخَيْرُ دِينِكُمُ الْوَرَعُ**»[١].

وعن أنس رضي الله عنه: أن النبي ﷺ وجد تمرةً في الطريق، فقال: «**لَوْلَا أَنِّي أَخَافُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الصَّدَقَةِ، لَأَكَلْتُهَا**»[٢].

وعن عقبة بن الحارث رضي الله عنه: «أنه تزوّج ابنةً لأبي إهاب بن عزيز، فأتته امرأة، فقالت: «إني قد أَرْضَعت عقبة والتي تزوج. فقال لها عقبة: مَا أَعْلَمُ أَنَّكِ أَرْضَعْتِنِي وَلَا أَخْبَرْتِنِي. فَرِكِبَ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ بِالْمَدِينَةِ، فَسَأَلَهُ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**كَيْفَ، وَقَدْ قِيلَ؟**» فَفَارَقَهَا عُقْبَةُ، وَنَكَحَتْ زَوْجًا غَيْرَهُ»[٣].

وعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: «إِنَّكُمْ تَعْمَلُونَ أَعْمَالًا هِيَ أَدَقُّ فِي أَعْيُنِكُمْ مِنَ الشَّعْرِ، كُنَّا نَعُدُّهَا عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ مِنَ الْمُوبِقَاتِ»[٤].

وعن الضحاك رحمه الله قال: «أدركتُ الناس وهم يتعلّمون الورع، وهم اليوم يتعلمون الكلام»[٥].

---

(١) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (١/ ٣١٤)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٢/ ٤٢١٤).

(٢) رواه البخاري (٢/ ٢٢٩٩).

(٣) رواه البخاري (١/ ٨٨).

(٤) «الزهد»، لأبي داود (ص٣٧٣).

(٥) «الورع»، لابن أبي الدنيا (ص٢٦).

وقال مطرف بن عبد الله رَحِمَهُ اللَّهُ: «إنك لتلقى الرجلين أحدهما أكثر صلاة وصومًا وصدقة، والآخر أفضل منه دينًا. قيل له: كيف ذلك؟ قال: يكون أحدهما أشدّ ورعًا لله عَزَّ وَجَلَّ عن محارمه»[(١)].

وعن بكر بن منير رَحِمَهُ اللَّهُ قال: «حُمِل إلى البخاري بضاعةٌ أنفذها إليه ابنه أحمد، فاجتمع بعض التجار إليه فطلبوها بربح خمسة آلاف درهم، فقال: انصرفوا الليلة، فجاءه من الغد تجار آخرون، فطلبوا منه البضاعة بربح عشرة آلاف، فقال: إني نويت بيعها للذين أَتوا البارحة»[(٢)].

وقال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: «والورع ترك ما تخاف من ضرره في الآخرة»[(٣)].

فيه فوائد

الأولى: فضل الورع، ومنزلته في الكتاب والسُّنّة.

الثانية: معرفة جانب من ورع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

الثالثة: معرفة صُوَر من ورع السَّلَف، وكيف رحل عقبة لطلب التثبُّت عما يحلّ ويَحرُم.

الرابعة: معرفة مفهوم الورع، وما الذي يدخل فيه، والذي لا يدخل فيه.

الخامسة: الورع يكون في المأمورات والمنهيات.

السادسة: معرفة خطأ من قَصَرَ الورع على ترك المحرمات دون فعل الواجبات[(٤)].

---

(١) «الزهد» لأحمد (ص٢٩٤). (٢) «سير أعلام النبلاء» (١٢/٤٤٨).

(٣) سبق عزوه في باب: الزهد (ص٢٠٩).

(٤) قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ محذرًا من الانحراف في مفهوم الورع: «**يقع الغلط في الورع من ثلاث جهات:** =

= **أحدها: اعتقاد كثير من الناس أنه من باب الترك**، فلا يرون الورع إلا في ترك الحرام لا في أداء الواجب. وهذا يبتلى به كثير من المتدينة المتورعة؛ ترى أحدهم يتورع عن الكلمة الكاذبة، وعن الدرهم فيه شبهة، لكونه من مال ظالم أو معاملة فاسدة، ويتورع عن الركون إلى الظلمة من أجل البدع في الدين وذوي الفجور في الدنيا، ومع هذا يترك أمورًا واجبةً عليه؛ إما عينًا وإما كفايةً، وقد تعينت عليه (من صلة رحم، وحق جار ومسكين، وصاحب ويتيم وابن سبيل، وحق مسلم وذي سلطان، وذي علم، وعن أمر بمعروف ونهي عن منكر، وعن الجهاد في سبيل الله، إلى غير ذلك مما فيه نفع للخلق في دينهم ودنياهم، مما وجب عليه). أو يفعل ذلك لا على وجه العبادة لله تعالى بل من جهة التكليف ونحو ذلك. وهذا الورع قد يوقع صاحبه في البدع الكبار؛ فإن ورع الخوارج والروافض والمعتزلة ونحوهم من هذا الجنس، تورعوا عن الظلم وعما اعتقدوه ظلمًا من مخالطة الظلمة في زعمهم، حتى تركوا الواجبات الكبار من الجمعة والجماعة، والحج والجهاد، ونصيحة المسلمين والرحمة لهم. وأهل هذا الورع ممن أنكر عليهم الأئمة كالأئمة الأربعة وصار حالهم يذكر في اعتقاد أهل السُّنَّة والجماعة.

الجهة الثانية من الاعتقاد الفاسد: أنه إذا فعل الواجب والمشتبه وترك المحرم والمشتبه، فينبغي أن يكون اعتقاد الوجوب والتحريم بأدلة الكتاب والسُّنَّة، وبالعلم لا بالهوى، وإلا فكثير من الناس تنفر نفسه عن أشياء لعادة ونحوها، فيكون ذلك مما يقوي تحريمها واشتباهها عنده، ويكون بعضهم في أوهام وظنون كاذبة، فتكون تلك الظنون مبناها على الورع الفاسد، فيكون صاحبه ممن قال الله تعالى فيه: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ﴾. وهذه حال أهل الوسوسة في النجاسات، فإنهم من أهل الورع الفاسد المركب من نوع دين وضعف عقل وعلم. وكذلك ورع قوم يعدون غالب أموال الناس محرمةً أو مشتبهةً أو كلها، وآل الأمر ببعضهم إلى إحلالها لذي سلطان؛ لأنه مستحق لها، وإلى أنه لا يقطع بها يد السارق ولا يحكم فيها بالأموال المغصوبة. وقد أنكر حال هؤلاء الأئمة كأحمد بن حنبل وغيره وذم المتنطّعين في الورع. وقد روى مسلم في صحيحه عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «**هلك المتنطّعون قالها ثلاثًا**». =

= وورع أهل البدع كثير منه من هذا الباب. بل ورع اليهود والنصارى والكفار عن واجبات دين الإسلام من هذا الباب، وكذلك ما ذمه الله تعالى في القرآن من ورعهم عما حرموه ولم يحرمه الله تعالى؛ كالبحيرة والسائبة والوصيلة والحام. ومن هذا الباب الورع الذي ذمه الرسول ﷺ في الحديث الذي في الصحيح لما ترخص في أشياء، فبلغه أن أقوامًا تنزهوا عنها، فقال: «**ما بال رجال يتنزّهون عن أشياء أترخص فيها، والله إني لأرجو أن أكون أعلمهم بالله وأخشاهم**». وفي رواية: «**أخشاهم وأعلمهم بحدوده له**». وكذلك حديث صاحب القبلة.

ولهذا يحتاج المتديّن المتورّع إلى علم كثير بالكتاب والسُّنَّة والفقه في الدين، وإلا فقد يفسد تورّعه الفاسد أكثر مما يصلحه؛ كما فعله الكفار وأهل البدع من الخوارج والروافض وغيرهم.

الثالثة: جهة المعارض الراجح. هذا أصعب من الذي قبله، فإن الشيء قد يكون جهة فساده يقتضي تركه فيلحظه المتورع، ولا يلحظ ما يعارضه من الصلاح الراجح، وبالعكس فهذا هذا.

وقد تبين أن من جعل الورع الترك فقط، وأدخل في هذا الورع أفعال قوم ذوي مقاصد صالحة بلا بصيرة من دينهم، وأعرض عما فوتوه بورعهم من الحسنات الراجحة، فإن الذي فاته من دين الإسلام أعظم مما أدركه، فإنه قد يعيب أقوامًا هم إلى النجاة والسعادة أقرب.

وهذه القاعدة منفعتها لهذا الضرب وأمثاله كثيرة، فإنه ينتفع بها أهل الورع الناقص أو الفاسد، وكذلك أهل الزهد الناقص أو الفاسد، فإن الزهد المشروع الذي به أمر الله ورسوله هو عدم الرغبة فيما لا ينفع من فضول المباح، فترك فضول المباح الذي لا ينفع في الدين زهد وليس بورع، ولا ريب أن الحرص والرغبة في الحياة الدنيا وفي الدار الدنيا من المال والسلطان مضر؛ كما روى الترمذي عن كعب بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما ذئبان جائعان أرسلا في زريبة غنم بأفسد لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه**». قال الترمذي: حديث حسن صحيح. فذم النبي ﷺ الحرص على المال والشرف وهو الرياسة والسلطان، وأخبر أن ذلك يفسد الدين مثل أو فوق إفساد الذئبين الجائعين لزريبة الغنم. وهذا دليل على أن هذا الحرص إنما ذم؛ لأنه يفسد =

٨

باب وجوب حفظ اللسان

قال تعالى: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾﴾ [النساء: ١١٤].

وقال ﷺ: «**مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ، فَلْيَقُلْ خيرًا، أَوْ لِيَصْمُتْ**»(١).

وقال ﷺ: «**إِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ رِضْوَانِ اللهِ، وَمَا يَظُنُّ أَنْ تَبْلُغَ مَا بَلَغَتْ، فَيَكْتُبُ اللهُ لَهُ بِهَا رِضْوَانَهُ إِلَى يَوْمِ يَلْقَاهُ، وَإِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللهِ، مَا يَظُنُّ أَنْ تَبْلُغَ مَا بَلَغَتْ، فَيَكْتُبُ اللهُ بِهَا عَلَيْهِ سَخَطَهُ إِلَى يَوْمِ يَلْقَاهُ**»(٢).

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «**إِذَا أَصْبَحَ ابْنُ آدَمَ، فَإِنَّ الأَعْضَاءَ كُلَّهَا تُكَفِّرُ اللِّسَانَ، فَتَقُولُ: اتَّقِ اللهَ فِينَا فَإِنَّمَا نَحْنُ**

= الدين الذي هو الإيمان والعمل الصالح، فكان ترك هذا الحرص لصالح العمل وهذان هما المذكوران في قوله تعالى: ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ ﴿٢٩﴾﴾، وهما اللذان: ذكرهما الله في سورة القصص؛ حيث افتتحها بأمر فرعون، وذكر علوّه في الأرض وهو الرياسة والشرف والسلطان، ثم ذكر في آخرها قارون وما أوتيه من الأموال، وذكر عاقبة سلطان هذا وعاقبة مال هذا، ثم قال: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا﴾ كحال فرعون وقارون، فإن جمع الأموال من غير إنفاقها في مواضعها المأمور بها وأخذها من غير وجهها هو من نوع الفساد». «الفَتَاوَى» (٢٠/ ١٣٩).

(١) رواه البخاري (٥/ ٥٧٨٤).

(٢) رواه الترمذي (٤/ ٢٣١٩).

بِكَ، فَإِنِ اسْتَقَمْتَ اسْتَقَمْنَا وَإِنِ اعْوَجَجْتَ اعْوَجَجْنَا»(١).

وقال عقبة بن عامر رضي الله عنه: يا رسول الله، ما النجاة؟ فقال ﷺ: **«أَمْسِكْ عَلَيْكَ لِسَانَكَ، وَلْيَسَعْكَ بَيْتُكَ، وَابْكِ عَلَى خَطِيئَتِكَ»**(٢).

وعن عمر رضي الله عنه أنه دخل على أبي بكر رضي الله عنه وهو يجبذ لسانه، فقال له عمر رضي الله عنه: «مَهْ! غَفَرَ اللهُ لَكَ»، فقال أبو بكر رضي الله عنه: «إِنَّ هَذَا أَوْرَدَنِي الْـمَوَارِدَ»(٣).

وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «وَالَّذِي لَا إِلٰهَ غَيْرُهُ، مَا عَلَى الْأَرْضِ شَيْءٌ أَحْوَجُ إِلَى طُولِ سَجْنٍ مِنْ لِسَانٍ»(٤).

وقال الأوزاعي رحمه الله: «من أكثر ذكر الموت كفَاه اليسير، ومن عرف أن منطقه من عمله قلّ كلامه»(٥).

وعن الفضيل رحمه الله قال: «من سَمِع بفاحشة فأفشاها كان كمن أتاها، وإن الفاحشة لتشيع في الذين آمنوا، حتى إذا بلغت إلى الصالحين كانوا خُزَّانَها»(٦).

وقال ابن القيّم رحمه الله: «ومن العجب أن الإنسان يهون عليه التحفُّظ والاحتراز من أكل الحرام والظلم والزنى والسرقة وشرب الخمر، ومن النظر المحرم وغير ذلك، ويصعب عليه التحفُّظ من حركة لسانه، حتى ترى الرجل يشار إليه بالدين والزهد والعبادة، وهو يتكلم بالكلمات من سخط الله لا يلقي لها بالًا، ينزل بالكلمة الواحدة منها أبعد مما بين المشرق والمغرب، وكم ترى من رجل متورّع عن الفواحش والظلم، ولسانه يفري في أعراض الأحياء والأموات، ولا يبالي ما يقول»(٧).

---

(١) رواه الترمذي (٤/ ٦٠٥).

(٢) رواه الترمذي (٤/ ٢٤٠٦).

(٣) رواه مالك في الموطأ.

(٤) «الزهد»، لأبي داود (١٥٩).

(٥) «سير أعلام النبلاء» (٧/ ١١٧).

(٦) «التوبيخ» (ص٦٨).

(٧) «الداء والدواء» (ص١٥٩).

فيه فوائد

الأولى: فضل الكلمة الطيبة التي قُصد بها وجه الله.

الثانية: وجوب حفظ اللسان.

الثالثة: الإنسان مأمور بالكلام الذي فيه خير، والكفّ عما سواه.

الرابعة: النجاة تكون بحفظ اللسان، واعتزال الشرّ، والندم على ما مضى من الذنوب.

الخامسة: فقه السَّلَف في خطورة آفات اللسان.

السادسة: مَن عَلِم أن مَنطقه من عَمَلِه، قلّ كلامه.

السابعة: من أخلاق الصالحين كتم المعايب، ونشر الخير.

۞ ۞ ۞

٩

باب كفى بالموت واعظًا

قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾﴾ [آل عمران: ١٨٥].

وقال تعالى: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍۗ﴾ [النساء: ٧٨].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**أَكْثِرُوا ذِكْرَ هَادِمِ اللَّذَّاتِ**»[١].

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: كنت جالسًا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، فجاء رجل من الأنصار، فسلَّم على النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: يا رسول الله، أيّ المؤمنين أفضل؟ قال: «**أحسنهم خُلُقًا**». قال: فأيّ المؤمنين أكْيَس؟ قال: «**أَكْثَرُهُمْ لِلْمَوْتِ ذِكْرًا، وَأَحْسَنُهُمْ لِمَا بَعْدَهُ اسْتِعْدَادًا؛ أُولَئِكَ الأَكْيَاسُ**»[٢].

وقال الحسن رحمه الله: «فَضَحَ الْمَوْتُ الدُّنْيَا، فَلَمْ يَتْرُكْ لِذِي لُبٍّ فَرَحًا»[٣].

وقال إبراهيم النخعي رحمه الله: «كنا إذا حضرنا الجنازة أو سمعنا بميت، عُرِف فينا أيامًا؛ لأنا قد عرفنا أنه نزل به أمر صيّره إلى الجنة أو النار، وإنكم في جنازتكم تتحدثون بأحاديث الدنيا»[٤].

---

(١) رواه الترمذي (٤/ ٢٤٦٠).

(٢) رواه البيهقي في «الشعب» (٧/ ١٠٥٥٠).

(٣) «سير أعلام النبلاء» (٤/ ٥٨٥). (٤) «حلية الأولياء» (٤/ ٢٢٧).

وقال إبراهيم التيمي رَحِمَهُ اللَّهُ: «شيئان قطعا عني لذة الدنيا: ذكر الموت، والوقوف بين يدي الله عَزَّ وَجَلَّ»[(١)].

وقال بعضهم رَحِمَهُ اللَّهُ: «من أكثر من ذكر الموت أُكرم بثلاثة أشياء: تعجيل التوبة، وقناعة القلب، ونشاط العبادة. ومن نسي الموت، عوقِب بثلاثة أشياء: تسويف التوبة، وترك الرضا بالكفاف، والتكاسل في العبادة»[(٢)].

فيه فوائد

الأولى: أهمية تذكُّر الموت، وعدم الغفلة عنه.

الثانية: أعقل الناس من عمل لِمِا بعد الموت.

الثالثة: الفوز العظيم هو الفوز بالجنة، والنجاة من النار.

الرابعة: الموت ما ذكر في كثير إلا قلّله، ولا في قليل إلا كثَّره

الخامسة: أثر تذكُّر الموت على العبد.

السادسة: معرفة أحوال السَّلَف في التفكُّر بالموت.

السابعة: الجزاء من جنس العمل.

الثامنة: كفى بالموت واعظًا.

❁ ❁ ❁

---

(١) «التذكرة» للقرطبي (ص٧).

(٢) «التذكرة» للقرطبي (ص٨).

فهرس المحتويات

الموضوع رقم الصفحة

الفصل الثالث

الموضوع | رقم الصفحة

الموضوع | رقم الصفحة